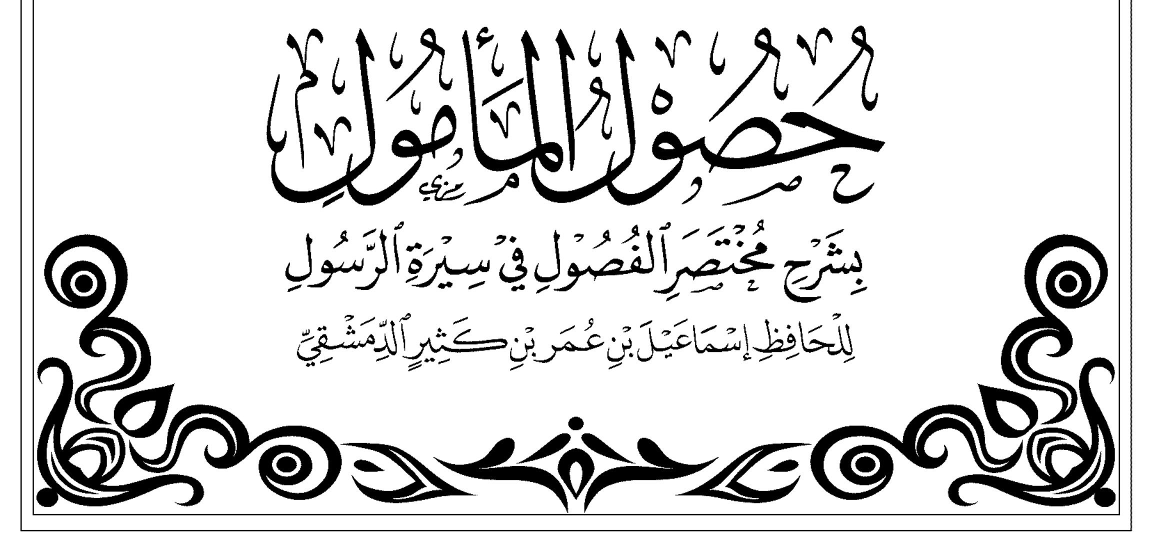
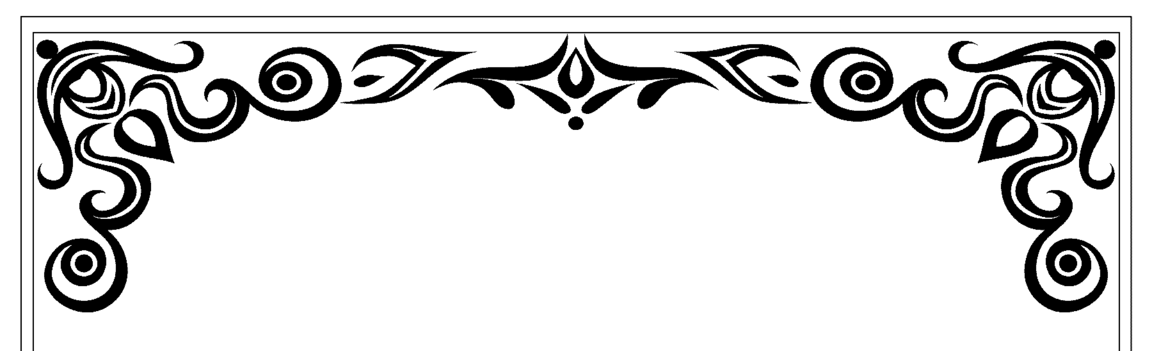


حُصُولُ المَأمُولِ

بِشَرْحِ مُخْتَصَرِ الفُصُولِ فِي سِيرَةِ الرَّسُولِ

لِلْحَافِظِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ الدِّمَشْقِيِّ

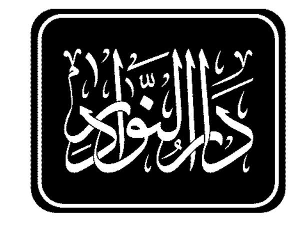


الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م



نادي المدينة المنورة الأدبي
تلفاكس: ٠٠٩٦٦١٤٨٤٧٤٩١٣
Adabimadina@yahoo.com

قامت بعمليات التنضيد الضوئي والإخراج الفني والطباعة



سوريا - دمشق
ص . ب : 34306
هاتف : 00963112227001
فاكس : 00963112227011

لبنان - بيروت
ص . ب : 4462/14
هاتف : 009611652528
فاكس : 009611652529



E - mail : info@daralnawader . com
Website : www.daralnawader.com







حصول المأمول

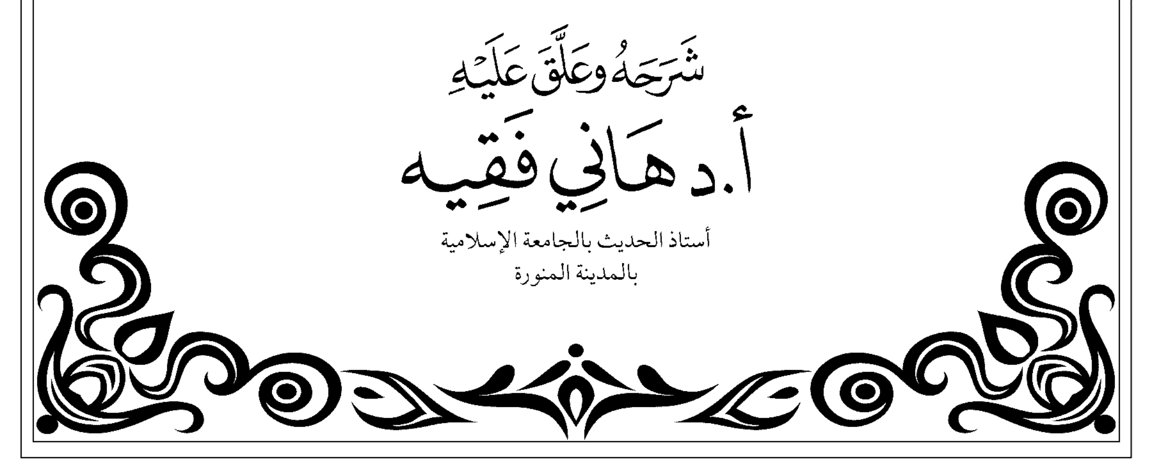
بشرح مختصر الفصول في سيرة الرسول

للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي

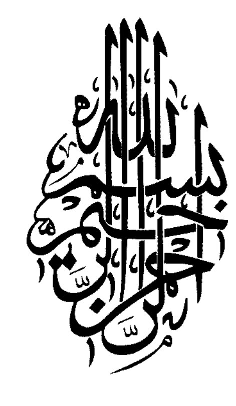
شرحه وعلق عليه

أ.د هاني فقيه

أستاذ الحديث بالجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة







﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾





الحمدُ لله الـذي أرسل رسولـه بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الـدّين كلّه ولو كره المشركون، والصلاة والسلام على سيّـد الأولين والآخرين، سيّدنا ونبيّا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين...

وبعــد:

١ ـ فهذه تقييـدات طريفة، وحواش نافعة ـ إن شاء الله ـ لطيفة، على كتابي «**مختصر الفصول في سيرة الرسول ﷺ**» للحافظ أبي الفـداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدّمشقي، المولود سنة: ٧٠١هـ، والمتوفى سنة: ٧٧٤هـ رحمه الله تعالى.

٢ ـ وكتاب «**الفصـول في سيـرة الرسول**» يعـد مـن أحسـن كتب السيـرة المختصرة، وقد تحرَّى مؤلفُه صحـة المرويات غالباً، وأجـاد في عرض الحوادث، وكتابتها بأسلوب واضح مليح.

٣ ـ لكنه رغم ذلك لم يسلم من بعض المآخذ، خاصة خوضه في بعض الزوائد والاستطرادات في الأحداث، وتفصيله أحياناً في بعض المسائل المتعلقة بالأنساب، وإيراد الأشعار، وتنبيهه على الخلافات الفقهية داخل المذهب الشافعي... فضلاً عن كونه ختم الكتاب بفصول مطولة في معجزات النبي ﷺ وشمائله وخصائصه...

هذه الزوائد دفعتني إلى اختصار الكتاب قبل شرحه؛ **أولاً**: لأن الاختصار

هو سمة هذا الزمان ومطلب أكثر أبنائه، **وثانياً**: لأنني أرى أن التفاصيل والاستطرادات تشوش ذهن القارئ، وتشتت انتباهه، وتقطع مقدرته على متابعة الحوادث الأساسية.

٤ ـ لكنني ومع هذا لم أختصر من الكتاب إلا القليل(١)، وقد حافظتُ على نصّ المؤلف كما هو، ولم أغيّر منه حرفاً، بحيث يمكن للقارئ والباحث أن يعزو منه إلى ابن كثير وهو مطمئن إن شاء الله.

والشيء الوحيد الذي أضفته إلى كلام المصنف هو عناوين الفصول والمقاطع، فقد أغفل المصنف كتابتها، واجتهدت في وضع ما يناسب منها ويعبر عنها باللون الأحمر.

٥ ـ وأما عن منهجي في الشرح والتعليق، فإني أُثبت نصَّ المصنف أولاً كما هو بخط بارز بين قوسين.

ثم أشرحُ منه ما يحتاج إلى شرح وإيضاح، وأوثق ما يذكره من حوادث السيرة من مصادرها الأصلية، وبيان درجة كل حادثة من حيث الصحة أو الضعف، حسب قواعد علم الحديث المرعيّة، مع توجيه ما قد يقع في كلام المصنف من عبارة مشكلة، أو تعقبه فيما رأيت الصواب في خلافه.

كل هذا أكتبه على ضوء ما حرره أئمة هذا الشأن، كالإمام ابن إسحاق صاحب السيرة، والحافظ الذهبي، والحافظ ابن حجر، وغيرهم من أهل العلم المعتبرين المختصين.

---

(١) إلا فصوله الأخيرة المتعلقة بالمعجزات والشمائل والخصائص فقد حذفتها كلها، وفي رأيي أن إفرادها بتأليف مستقل هو الأفضل، لأنها من مكملات السيرة النبوية وليست من صلبها.

وبما أن كتاب «السيرة النبوية» لابن إسحاق مفقودٌ معظمه فإن الإحالة إليه تكون في الأغلب عن طريق مختصره المعروف «بسيرة ابن هشام»، أو ما ينقله أهل العلم عنه، خاصة الطبري في تاريخه، والبيهقي في دلائله، فقد استوعبا كثيراً من سيرة ابن إسحاق ونصوصه.

٦ ـ وقد رأيت ألّا أُخلي الشرح من بعض ما يستفاد ويستنبط من حوادث السيرة من فوائد فقهية وآداب تشريعية حسبما تيسر، لأنه باب يطول جداً.

٧ ـ كذلك لم أُخله من تعقب بعض أباطيل المستشرقين في تفسير بعض حوادث السيرة وبيان ما في كلامهم من خطأ وخطل.

٨ ـ وقد كنت كتبت مقدمة في التعريف بالسيرة النبوية وأهميتها والكلام على مصادرها مع ترجمة موجزة لابن كثير رحمه الله... ثم تركت ذلك كله وأغفلته لكثرة ما كتب في هذا مما يستغنى به عن الإعادة.

٩ ـ وقبل مغادرة المقدمة تجدر الإشارة إلى أن السيرة النبوية ليست مجرد قَصَص وحكايات، وحوادث وروايات، تُقرأ من أجل ترقيق القلوب واستجلاب العَبَرات!

هذا تصور قاصر للسيرة النبوية.

إن السيرة النبوية علمٌ قائمٌ بذاته، كعلم التوحيد والفقه، وعلم التفسير والأصول.

إن السيرة النبوية مصدر أساسي من مصادر التشريع في الإسلام، لاشتمالها على كثير من أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته.

ومن ثم لا بد لمن يتحدث في السيرة أن يكون مؤهلاً في علم الحديث،

حتى يكون قادراً على دراسة أسانيد الروايات، وتمييز ما يصح منها مما لا يصح، وما يقبل منها مما لا يقبل.

ولا بد أن تكون له دُربة قويّة في علم الفقه وأصول الفقه حتى يكون قادراً على استنباط ما يستفاد من أحداث السيرة من أحكام تشريعية ودلالات عقدية وفقهية، ويستطيع أن يوفق بين ما قد يقع بين نصوصها أحياناً من تعارض وإشكالات.

ولا بد أن يكون على معرفة وإلمام بعلم التربية والاجتماع حتى يتمكن من انتزاع ما يقع في السيرة من آداب تربوية وفوائد سلوكية واجتماعية يحتاجها الفرد أو المجتمع.

وإذن فليست السيرة النبوية كلأً مباحاً يتحدث فيها من يشاء، كيف شاء.

وليست السيرة النبوية تخصص من لا تخصص له كما يحسب البعض؟!!

إن هذا كلام من لا يعرف السيرة النبوية، ولا يعرف قدرها وأهميتها وخطورتها ومكانتها في الإسلام.

١٠ ـ هذا وقد عنونت هذا الشرح بـ «**حصول المأمول بشرح مختصر الفصول في سيرة الرسول** ﷺ». سائلاً المولى فيه القبول، وأن ييسر لي به إلى جنّة الخلد الوصول، إنه أكرم مسؤول، وأعظم مأمول، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

وكتبه: أ. د هاني فقيه

أستاذ الحديث بالجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة





مُقَدِّمَةُ ٱلْمُصَنِّفُ

قـال المصنّف رحمـه الله: «بسم الله الرحمن الرحيم وبـه نستعين: الحمـدُ لله وسلامٌ على عبادِه الذين اصطفى، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يُـحبُّ ربُّنا ويَرضى. وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، شهادةَ من أخلص له قلبُه، وانجابت عنه أكدارُ الشّرك وصفا، وأقرّ له برقّ العبودية، واستعاذَ بهِ من شرّ الشيطان والهوى، وتمسّك بحبلِه المتيـن المنزَّل على رسولـه الأمين؛ محمـدٍ خيرِ الورى، صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الحشر واللقا. ورضي الله عن أصحابِهِ وأزواجِهِ وذُرّيتِهِ وأتباعِهِ أجمعين، أولي البصائرِ والنُّهى.

أما بعد:

فإنَّه لا يَـجْمُل بأولي العلم إهمالُ معرفة الأيام النبويّةِ، والتواريخ الإسلامية، وهي مشتملةٌ على علومٍ جمّةٍ، وفوائدَ مهمّةٍ، لا يستَغني عالـمٌ عنها، ولا يُعـذَر في العِزْو منها.

وقد أحببتُ أنْ أُعلّق تذكرةً في ذلك لتكونَ مـدخلاً إليه، وأنموذجاً وعوناً له وعليه، وعلى الله اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي.

وهي مشتملةٌ على ذكر نَسَبِ رسُـولِ الله عليـه الصلاة والسلام، وسيرتِـه،

وأعلامِه[1]، وذكر أيامِ الإسلام بعـده إلى يومنا هـذا، مما تمسُّ حاجةُ ذوي الأرَبِ إليه، على سبيلِ الاختصارِ، إن شاء الله تعالى».

الكلام على مقدمة المصنف من وجوه:

١ ـ بدأ المصنف رحمه الله بمقدمة موجزة جداً، تحدّث فيها عن أهمية دراسة السيرة النبوية، ومعرفة التاريخ الإسلامي، وأنها مشتملة على علوم جمّـة، وفوائد مهمّة، لا يستغني عنها عالِمٌ ولا يُعذر بالجهل بها.

٢ ـ ثم أشار إلى أنه يريد كتابة كتاب في ذلك، سماه تواضعاً بالتذكرة.

٣ ـ لكن قولـه بعـد ذلك: «**وهي مشتملة على ذكـر نسب رسـول الله ﷺ، وسيرته... وذكر أيام الإسلام بعده إلى يومنا هذا**»، هذه الجملة فيها إشكال، لأن ظاهرها يفيد أن الكتاب المصنف هـذا لا يقتصر على السيرة النبويـة فحسب، بل ويذكر أيضاً تاريخ الإسلام إلى عصر المؤلف!!

والذي بين أيدينا من الكتاب إنما هو مقتصر على حوادث السيرة وملحقاتها من الخصائص والشمائل، وليس فيه شيء من أيام الإسلام كما يفيده كلام المصنّف!!

ولعل أحسن مـا يقال في الجواب عن هـذا الإشكال: أن المصنّف ربما أراد ذكر حـوادث السيرة وتاريخ الإسلام بعـدها على وجه مختصر، ثم إنـه عدل عن ذلك، واقتصر على قسم السيرة النبوية وملحقاتها فحسب، اكتفاء منه بكتابه الكبير الآخر، المسمَّى بالبداية والنهاية، حيث أسهب فيه وأطنب في الحديث عن حوادث التاريخ الإسلامي إلى عصره رحمه الله.

---

(١) معجزاته.

وهناك من أهل العلم كالعلامة أحمد محمد شاكر (ت: ١٣٧٧هـ) من أبدى احتمال أن يكون قسم التاريخ من كتاب الفصول قد فُقد!! فقد قال رحمه الله: «إن المطبوع غير كامل يقيناً، فلا أدري اقتصر المؤلف على هذا القدر، أم فُقد باقي الكتاب؟»[١].

ومسألة فقدان شيء من الكتاب بعيد في نظري، لأن جميع من وصفوا الكتاب قالوا إنه سيرة صغيرة، كابن العماد الحنبلي في الشذرات[٢] وغيره، ولم يشر أحدٌ منهم إلى ما أشار له الشيخ شاكر، أو قال إن الكتاب ناقص، والله تعالى أعلم.

❐ ❐ ❐

(١) عمدة التفسير ١/ ٣٥.

(٢) شذرات الذهب ٨/ ٣٩٩.



فَصل

نَسَبه[1] ﷺ وأسمائه

قال المصنّف: «هو سيّدُ ولدِ آدم: أبو القاسم، محمدٌ، وأحمدٌ، والماحِي الذي يُمحى بـه الكفرُ، والحاشِرُ الذي يَحشُـرُ الناسَ، والعاقِبُ الـذي ليس بعـده نبيٌّ، والـمُقَفّيّ، ونبيّ الرَّحمة، ونبيّ التوبة، ونبيّ الـمَلْحَمَة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قـول المصنّف: «**هو سيد ولـد آدم**»: هـذا محلّ اتفاق بين العلماء، وقد دلت عليـه النصوص الصريحـة الثابتة كقولـه ﷺ في حديث أبي هريرة: «أنا سيّد الناس يوم القيامة»[2].

٢ ـ وقوله: «**أبو القاسم**»: هذه كنيته ﷺ، وقد تواترت النصوص بذلك كما قال الحافظ الذهبي[3].

و«القاسم» هو أكبر أبنائه ﷺ، ولد بمكة قبل النبوة، ومات بها طفلاً، وهو ابن سنتين. وقـد كان للنبي ﷺ ثلاثة من الولـد في قول جمهور العلماء[4]: **أولهم:**

---

(١) النَّسَب هو: سلسلة الآباء والأجداد الذين ينتمي إليهم الإنسان.

(٢) صحيح البخاري «٤٧١٢»، صحيح مسلم «٣٢٧».

(٣) تاريخ الإسلام ١/ ٤٨٨.

(٤) ينظر سبل الهدى والرشاد ١١/ ١٦.

القاسم، وقد تقدم الكلام حوله.

وثانيهم: عبدالله، ويُلقب بالطيّب والطاهر، لأنه ولد بعد النبوة على الصحيح، وقد مات بمكة طفلاً رضيعاً.

وثالثهم: إبراهيم، ولد بالمدينة، ومات بها وعمره (١٨) شهراً في السنة العاشرة للهجرة.

ـ وأما بناته ﷺ فهنّ: زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة رضي الله عنهن.

ـ وأفضلهن وأحبّهن إلى النبي ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها، وقد صحّ عنه ﷺ أنه قال لها في مرض موته: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، أو نساء المؤمنين»[١].

ـ وكلّ أولاده ﷺ ذكوراً وإناثاً من زوجه خديجة رضي الله عنها إلا إبراهيم فأمُّه مارية بنت شمعون القبطية جارية النبي ﷺ، التي أهداها إليه المقوقس عظيم مصر.

٣ ـ وهل يجوز التكني بأبي القاسم لغير النبي ﷺ؟ هذه مسألة اختلف فيها على مذاهب، ومذهب الجمهور وهو الراجح أن النهي مقيّد بزمن النبي ﷺ، أما بعد وفاته فلا بأس بالتكني بهذه الكنية.

ويدلّ على هذا التفصيل حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: كان النبي ﷺ في السوق، فقال رجلٌ: يا أبا القاسم، فالتفت إليه النبي ﷺ، فقال: إنما دعوتُ هذا، فقال النبي ﷺ: «سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي»[٢]. ففهم من هذا أن

---

(١) رواه البخاري «٣٦٢٤»، صحيح مسلم «٢٤٥٠» واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح البخاري «٢١٢٠» واللفظ له، صحيح مسلم «٢١٣١».

النهي مختصٌّ بحياته ﷺ للسبب المذكور، وقد زالت العلة بوفاته[1].

٤ ـ وقوله: «**محمد**»: أخذ المصنف يذكر بعض أسمائه ﷺ وهي كثيرة، فبدأ باسمه الأجل والأشهر «محمد» ﷺ، قيل إن الذي سمّاه به جدُّه عبد المطلب، وقيل بل أمّه آمنة، رأت في المنام من يأمرها بتسميته محمداً[2].

ـ وقد تكرر هذا الاسم في القرآن الكريم مرات عدة. وهو مشتق من الحمْد، لكثرة محامده وخصاله المحمودة.

ـ ولم يكن هـذا الاسم مشهوراً في الجاهليـة، وإنما تسمَّى به بعض العرب قرب بعثته عليه الصلاة والسلام، لـمّا سمعوا من الأحبار والرهبان أن نبياً يبعث آخر الزمان اسمه «محمداً»، فسمُّوا أبناءهم بهذا الاسم رجاء نيل النبوة[3]!!

٥ ـ وقولـه: «**وأحمد**»: هـذا هو الاسم الثاني في المكانـة والشهرة لنبينا ﷺ. وقـد ورد ذكره في القرآن مرة واحـدة على لسان نبي الله عيسى بن مريم في قولـه تعـالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ**﴾[الصَّفّ: ٦].

٦ ـ وقوله: «**والماحِي**»: هـذا أيضاً من أسمائـه ﷺ، وفسره المصنف بالذي يمحو الله به الكفر، وهو نص تفسير النبي ﷺ في قوله من حديث جبير بن مُطعم واللفظ للبخاري: «لي خمسة أسماء: أنا محمّد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله

---

(١) إرشاد الساري للقسطلاني ٩/ ١١٠.

(٢) فتح الباري ٧/ ١٦٣، شرح المواهب للزرقاني ١/ ١٩٩.

(٣) عيون الأثر ١/ ٣٩.

بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»[1].

ـ وفي الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ يسمِّي لنا نفسه أسماء، فقال: «أنا محمّد، وأحمد، والمقفِّي، والحاشر، ونبيّ التَّوبة، ونبيّ الرحمة»[2].

٧ ـ وقوله: «**والحاشِر**»: قلت: هذا من أسمائه ﷺ، وقد فسره في حديث جبير بن مُطعم السابق بالذي يُحشر الناس على قدمه.

ومعناه: أن الخلق يُحشرون يوم القيامة على أثره، فليس بينه وبين يوم القيامة نبي آخر، كما أفاده ابن الملقن[3].

٨ ـ وقوله: «**والعاقِب**»: فسَّره المصنف بالذي ليس بعده نبي، وهو نص تفسير النبي ﷺ في رواية مسلم لحديث جبير بن مُطعم.

٩ ـ وقوله: «**والمقفّي**»: أي: آخر الأنبياء المتَّبع لهم، فإذا قفّى فلا نبي بعده، أفاده ابن الأثير[4].

ـ وبناء على ما تقدَّم فإن الحاشِرَ والعاقِبَ والمقفِّي كلها بمعنى واحد: أي الذي لا نبيّ بعده.

١٠ ـ وقوله: «**ونبيّ التوبة**»: دل على هذا الاسم حديث أبي موسى الأشعري المتقدم، قال العلماء: سمّي بذلك لأنه كان كثير الرجوع والتوبة إلى الله، أو لأنه

---

(١) صحيح البخاري «٣٥٣٢»، صحيح مسلم «٢٣٥٤».

(٢) صحيح مسلم «٢٣٥٥».

(٣) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ٢٠/ ١٠٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث ٤/ ٩٤.

قُبل من أمته التوبة بمجرد الاستغفار بخلاف الأمم السالفة(١).

١١ ـ وقولـه: «**ونبيّ الرحمة**»: سُمي بذلك: لأنـه بعث رحمة للناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

١٢ ـ وقولـه: «**ونبيّ المَلحمـة**»: قلت: ورد هـذا الاسـم في إحـدى ألفاظ روايات مسلم لحديث أبي موسى الأشعري المتقدم(٢).

ومعنى «نبي الملحمة»: أي نبي الحرب والجهاد، فالإسلام كما أنه دين لين ورحمـة، فهو دين جهاد وقوة، كلٌ بحسب الحاجـة والمناسبة، وهـذا من واقعيتـه ووسطيته.

*** بقيّة نَسَبه ﷺ:**

قال المصنف: «ابن عبدالله بن عبدِ المطَّلِب بن هَاشِم بن عبد مَنَاف بن قُصيّ ابن كِلَاب بن مُـرَّة بـن كَعْب بن لؤيّ بن غَالِب بن فِـهْر بن مَـالك بن النَّضر بن كِنَانَة بن خُزيمة بن مُدرِكة بن إِلياس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَد بن عَدنَان.

فهذا النَّسب الذي سُقناه إلى عَدْنان لا مِرية فيه، ولا نِزاع، وهو ثابتٌ بالتواتر والإجماع. وإنما الشأنُ فيما بعد ذلك، لكن لا خِلَاف بين أهل النَّسب وغيرِهم من عُلماء أهلِ الكتاب أن عَدْنان من ولـدِ إسماعيل؛ نبيّ الله، وإسماعيل بن إبراهيم؛ خليل الرحمن عليه أفضل الصلاة والسلام.

وأمُّه ﷺ آمنةُ بنت وَهْب بن عبد مَنَاف بن زُهرة بن كِلَاب بن مُـرَّة».

---

(١) مرقاة المفاتيح للقاري ٩/ ٣٦٩٧.

(٢) تحفة الأشراف للمزي ٦/ ٤٧٢.

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قولـه «**ابن عبدالله**»: هذا هو اسم والد النبي ﷺ، وقد مات قبل البعثة شاباً بالمدينة ودفن بها.

كان قد قدم إلى المدينـة من مكة ليشتري تمراً فاتفق أنـه مرض بها ومـات، وقيل بل مرّ بها مريضاً وهو راجع من بلاد الشام[١].

وكان عمره عندما مات ثماني عشرة سنة كما صححه الحافظ العلائي وابن حجر والسيوطي، وقيل: خمساً وعشرين سنة[٢].

٢ ـ قوله «**ابن عبد المطلب**»: هذا هو جدّ النبي ﷺ، واسمه الحقيقي: شيبة الحَمْد، كان شيخاً معظّماً في قريش، وزعيماً من زعمائها، وهو الذي حفر بئر زمزم، وهو الذي كَفَل النبيَّ ﷺ بعد وفاة أمّه، وقد رقّ عليه جداً، وكان يجلسه معه على فراشه في ظل الكعبـة، وكان عُمُره ﷺ عندما مـات جدُّه ثمان سنين، وقد أوصى بكفالة حفيده من بعده إلى عمّه أبي طالب[٣].

٣ ـ وإذن فإبراهيم الخليل هو جدّ النبي الأعلى، وقد انتقلت منه إلى النبي ﷺ بعض الصفات الوراثية الجسمانيـة، فكان النبيُّ ﷺ أشبـه الناس به في الخِلْقَة، كما ورد في الحديث الصحيح: «أشبه الناس به صاحبكم يعني نفسه»[٤].

٤ ـ وقد اقتضت حكمـة الله ﷻ أن يجعل نسب نبيه ﷺ من أرفع الأنساب

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ٤٩٩.

(٢) شرح المواهب للزرقاني ١/ ٢٠٤.

(٣) جوامع السيرة لابن حزم ص٥، تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ٥١.

(٤) صحيح مسلم «٢٧٨» من حديث أبي هريرة.

وقبيلته من أشرف القبائل.

ولعل من حكم ذلك: أن يكون أدعى لقبول كلامه، لأن العرب كانت في ذلك الوقت لا تستمع إلا لذوي الأنساب العالية.

وأيضاً حتى لا يتوهم متوهم أن رسالة النبي ﷺ كانت وسيلة لرفع مستواه الاجتماعي بين الناس، فهو لم يكن بحاجة إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

٥ ـ ومن النصوص الدالة على شريف نسبه ﷺ ما ثبت في الصحيح مرفوعاً: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[١].

٦ ـ وقوله: «**وهذا النَّسَب إلى عَدْنان لا مِرية فيه، وهو ثابتٌ بالتواتر والإجماع**»: قلتُ: الأمر كما ذكر المصنف، فإن العلماء متفقون على هذا القدر من نسبه ﷺ، ولذلك ساقه الإمام البخاري في صحيحه بدون إسناد[٢].

وأما ما بعد عدنان فهو محلّ خلاف، والقدر المتفق عليه بعد عدنان، أن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام[٣].

٧ ـ وقوله: «**وأمُّه ﷺ آمنة بنت وهب**»: هذا هو اسم أمه صلوات الله وسلامه عليه، وهي من أفضل قريش نسباً وموضعاً، وتجتمع به ﷺ في كِلَاب بن مُرة، وسيأتي مزيد كلام عنها في الفصل القادم.

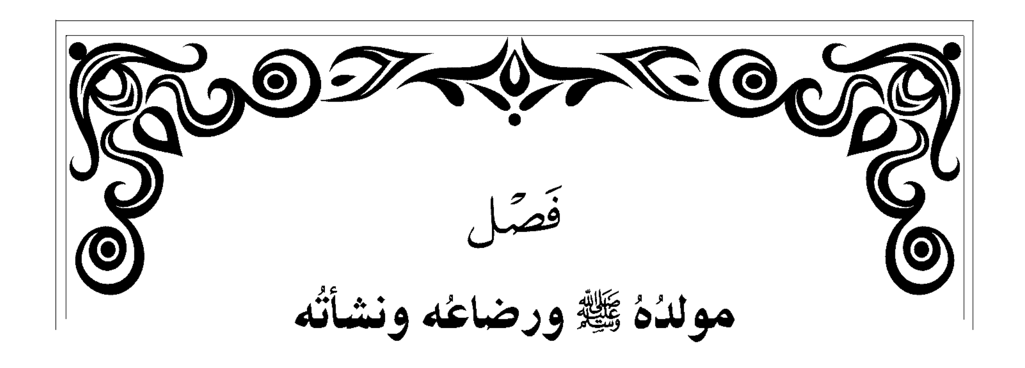


---

(١) صحيح مسلم «٢٢٧٦» من حديث واثلة بن الأسقع.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/ ١٦٣.

(٣) عيون الأثر ١/ ٢٦.



فَصْل

مولدُهُ ﷺ ورضاعُه ونشأتُه

قال المصنف: «ووُلد رسُولُ الله ﷺ يومَ الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأوّلِ. وقِيل: ثامنُه، وقِيل عاشرُه، وقِيل لثنتي عشرة منه، وذلكَ عَام الفيلِ على الصحيح.

ومات أبوه وهو حَمْل، واستُرضع له في بني سَعْدٍ، فأرضعته حَلِيمة السَّعدية، وأقامَ عندها في بني سَعْدٍ نحواً من أربعِ سنين، وشُقّ عن فُؤادِه هناك، فردَّته إلى أُمّه. فخَرجتْ به أُمُّه إلى المدينة؛ تزورُ أخوالَه بالمدينة، فتوفيت بالأَبواء، وهي راجعةٌ إلى مكة، وله من العُمُر ستّ سنين وثلاثة أشهر وعشرة أيام».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قوله: «وُلد ﷺ يوم الاثنين ...إلى آخره»: قلت: ثمة مواضع اتفاق ومواضع اختلاف في تحديد تاريخ مولده ﷺ.

فقد اتفق العلماء على أن مولده ﷺ كان في يوم الاثنين، كما صح بذلك حديث أبي قتادة الأنصاري أنه ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين؟ فقال: «ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت فيه»[1]. وكذلك اتفقوا تقريباً على أن

---

(١) صحيح مسلم «١١٦٢».

مولده كان عام الفيل[١].

وأما الشهر، فقال الحافظ ابن حجر: «الصحيح المشهور أنه في ربيع الأول»[٢].

وحدده الجمهور باليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وهو قول ابن إسحاق شيخ السيرة[٣]، الموافق لسنة: (٥٧١) للميلاد.

٢ ـ وقد صحبت ولادته الشريفة بعض العجائب والآيات؛ من ذلك أن أمه رأت حين حملت به كأن نوراً خرج منها، أضاءت له قصور الشام[٤].

ـ كذلك اشتهر في كتب السيرة أنه في اليوم الذي ولد فيه: إرتجس إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نارُ المجوس، ولم تكن خمدت منذ ألف عام، وأن ماء بحيرة ساوة[٥] ذَهَبَ في الأرض.

وهذه الثلاث الآيات وإن كانت قد اشتهرت في كتب السيرة إلا أنها لم تثبت من طريق يمكن الوثوق به[٦].

---

(١) إكمال المعلم للقاضي عياض ٧/ ٣١٦، سبل الهدى والرشاد ١/ ٣٣٤.

(٢) فتح الباري ٧/ ١٦٤.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ١٤٦، البداية والنهاية ٣/ ٣٧٥، السيرة الحلبية ٣/ ٦٣٧.

(٤) رواه أحمد في المسند «١٧١٥١» بسند حسنه الحافظ الهيثمي، مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٢، وقال شعيب الأرناؤوط: «صحيح لغيره».

(٥) بحيرة ساوة: بحيرة مغلقة مالحة قرب نهر الفرات بالعراق، ترشح إليها المياه الجوفية من نهر الفرات عبر الصدوع والشقوق. وعمق المياه فيها يتراوح ما بين ٤ إلى ٥ أمتار، كما في الموسوعة الحرة المنشورة على شبكة الإنترنت.

(٦) السيرة النبوية الصحيحة للعُمري ١/ ١٠٠.

وكأن المقصود بهذه الآيات تنبيه البشرية بأنها مقبلة على حدث كبير سوف يغير العالم، ويدخله دوراً جديداً في الدين والأخلاق[1].

٣ ـ وقولـه: «**ومات أبوه وهو حمل**»: هـذا هو القول الراجح الـذي عليـه عامة علماء السيرة، وصححـه الحافظ الذهبي[2]. وقـد ثبت ما يؤيده عن الإمام الزهري، أنه قال: «ولدت آمنةُ رسول الله ﷺ بعدما توفي أبوه»[3].

٤ ـ وقولـه: «**واستُرضع لـه في بني سعـد**»: بنو سعد يُنسبون إلى سعـد بن بكر بن هوازن، إحـدى فروع قبيلة هوازن المعروفـة التي كانت تسكن الطائف، وكانوا مشهورين بالفصاحـة وسلامة اللغـة، لذلك كانت قريش ترسل أبناءهـا إليهم في سنواتهم الأولى.

ورضاعـه ﷺ في بني سعـد بن بكر ممـا لا شك في ثبوتـه، وقد دلت عليـه نصوص كثيرة، منها ما رواه ابن إسحاق قال: حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، فقال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، واستُرضعت في بني سعد بن بكر»[4].

٥ ـ وقولـه: «**فأرضعته حليمة السعديـة**»: حليمة السعديـة هي: بنت أبي ذؤيب، أسلمت بعد ذلك، وترجم لها غير واحد في الصحابة[5].

---

(١) السيرة النبوية للندوي ص١٠٠.

(٢) تاريخ الإسلام ١/ ٤٩٩.

(٣) صحيح مسلم «١٧٧١».

(٤) سيرة ابن إسحـاق ص٥١، وقال ابن كثير في البدايـة والنهاية ٣/ ٤١٣: «إسناده جيد قوي».

(٥) الإصابة لابن حجر ٨/ ٨٧.

وكـذا أسلم زوجهـا، واسمـه الحـارث بن عبـد العـزى، والـد النبي ﷺ بالرضاعة[1].

ورضاعته ﷺ من حليمة ثابت من طرق عدة[2].

٦ ـ وكان النبي ﷺ قد رضع من ثويبة جارية عمّه أبي لهب بضعة أيام قبل أن يرضع من حليمة السعدية[3].

٧ ـ واسترضاعـه ﷺ في بني سعد بن بكر فيه دلالة على عناية العرب ذلك الوقت بلغتهم العربية، حيث كانوا يرضعون أطفالهم في البادية لإكسابهم سلامة اللغـة وفصاحـة اللسـان، وأيضاً لما في الباديـة من نقاء الهواء، وبعـد أهلها عـن مفاسد المدنية.

٨ ـ وقولـه: «**وأقـام عندها في بني سعـد نحواً من أربع سنين**»: اختلف في عمر النبي ﷺ عندما ردّته حليمة إلى أمه، والمشهور الذي جزم به الحافظان العراقي وابن حجر ورجحـه الزرقـاني أنـه كان في سنّ الرابعـة بعد حادثـة شـقّ الصدر مباشرة[4].

وكان سبب ردّها لـه هو ما حصل له من حادثـة شقّ الصدر، فقـد خافت حليمـة عليـه، ورغبت في إخـلاء مسؤوليتها عنـه، بالرغـم من شـدة حبّها لـه وتعلقها به.

---

(١) المصدر السابق ١/ ٦٧٦.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة للعُمري ١/ ١٠٣.

(٣) صحيح البخاري «٥١٠١»، صحيح مسلم «١٤٤٩».

(٤) شرح المواهب للزرقاني ١/ ٢٨٢.

٩ ـ وقوله: «**وشُقّ عن فؤاده هناك فردّته إلى أمه**»: حادثة شقّ الصدر ذكرها ابن إسحاق في السيرة بإسناد جيد: أن النبي ﷺ قال: «استرضعت في بني سعد ابن بكر، فبينا أنا مع أخ لي في بَهْمٍ لنا، أتاني رجلان عليهما ثياب بياض، معهما طست من ذهب مملوءة ثلجاً، فأضجعاني، فشقّا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقة سوداء، فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذاك الثلج، حتى إذا أنقياه، ردّاه كما كان»[١].

وكان عمره ﷺ عندما شُقَّ صدره في بني سعد أربع سنوات أو خمسة[٢].

١٠ ـ وقد حاول بعض المستشرقين ومن تلوث بأفكارهم إنكار حادثة الشقّ، وزعموا أنها أسطورة وخيال[٣]!!

ورُدّ عليهم بأن الحادثة ذكرها عامة علماء السيرة في كتبهم المعتمدة، وأصلها مخرج في صحيح الإمام مسلم، ولم ينكرها أحدٌ من علماء المسلمين، فالواجب التصديق بها.

وما أحسن قول الحافظ ابن حجر في الرد على هؤلاء: «وجميع ما ورد من شقّ الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك»[٤].

---

(١) سيرة ابن إسحاق ص٥١، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ٤١٣: «إسناده جيد قوي». والحادثة أصلها في صحيح مسلم «٢٦١».

(٢) السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٠٣.

(٣) «حياة محمد»!! لهيكل ص٨٠.

(٤) فتح الباري ٧/ ٢٠٥.

١١ ـ وقـد تكررت حادثـة شقّ الصـدر للنبي ﷺ على ما رجحـه السهيلي مرتيـن[١]، مرة في بني سعـد بن بكر عندما كان صغيراً، والثانية قبيل صعوده في رحلة الإسراء والمعراج، وسيأتي الحديث عنها بمشيئة الله تعالى.

١٢ ـ قولـه: «فخرجت به أمّه إلى المدينة تزور أخواله[٢]، فتوفيت بالأبواء وهي راجعة إلى مكة»: هذه الحادثة رواها ابن إسحاق، قال حدثني عبدالله بن أبي بكر بن حزم به مرسلاً[٣]، وبهذا جزم الذهبي وعامة كتاب السيرة[٤].

١٣ ـ وقوله: «ولـه من العُمُر ستّ سنين وثلاثة أشهر وعشرة أيام»: قلت: هكذا جزم به ابن إسحاق[٥] والذهبي[٦] وغيرهما دون ذكر عدد الأشهر والأيام.

*** حضانة أمّ أَيمن وكفالة عمّه أبي طالب:**

قال المصنف: «فلمَّا مـاتت أمُّـه: حضنته أمُّ أَيمن وهي مولاتُـه، ورثها من أبيه، وكَفلهُ جدُّه عبـد المطَّلب، فلما بَلَغَ رسُولُ الله ﷺ من العُمُر ثماني سنين توفي جدُّه، وأوصى بـه إلى عمّه أبي طالب، لأنـه كان شقيقَ عبدالله فكَفَلَه، وحاطَه أتم حِياطة، ونَصَرَه حين بعثَه الله أعزَّ نصرٍ، مع أنه كان مستمراً على شركه إلى أن ماتَ،

---

(١) الروض الأنف ٢/ ١٧٣.

(٢) وهـم بنو عدي بن النجـار، ويطلق عليهم أخـوال النبي تجـوزاً، وإنما هم أخوال جدّه عبد المطلب، أما أخواله المباشرون فكانوا من قريش من بني زهرة.

(٣) سيرة ابن إسحاق ص٦٥.

(٤) تاريخ الإسلام ١/ ٥٠٠.

(٥) سيرة ابن إسحاق ص٦٥.

(٦) تاريخ الإسلام ١/ ٥٠٠.

فخفَّفَ الله بذلك من عذابه كما صَحَّ الحديثُ بذلك».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قوله: «**حضنته أم أيمن**»: اسمها: بركة بنت ثعلبة الحبشية، مولاة النبي ﷺ وحاضنته، وقد زوجها ﷺ بمولاه زيد بن حارثة، وأنجبت له أسامة ابن زيد رضي الله عنهما، معدودة في الصحابة[1].

٢ ـ وقوله: «**فكَفَلَه ـ أبو طالبٍ ـ وحاطَه أتم حِياطةٍ، ونَصَرَه حين بعَثَه الله...**»: قلت: كفالة أبي طالب للنبي ﷺ وحَدَبه عليه وذوده عنه ونصرته له بعد بعثته قد صحت بها الأحاديث، كحديث العباس الآتي بعد قليل.

٣ ـ وقوله: «**فخفَّفَ الله بذلك من عذابه**»: قلت: يشير إلى حديث العباس ابن عبد المطلب في الصحيحين: أنه قال: يا رسول الله، هل نفعتَ أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[2].

٤ ـ ولعل من أسباب بقاء أبي طالب على شركه رغم نصرته للنبي ﷺ ووقوفه معه هو التمسك بالإلف والعادة واتباع الآباء، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ**﴾[المائدة: ١٠٤].

*** خروج عمّه به إلى الشَّام وما صَحِبَه من الآيات:**

قال المصنف: «وخَرَجَ به عمُّه إلى الشَّام في تجارة وهو ابنُ ثنتي عشرة سنة، وذلك من تمام لطفِه بِهِ، لعدمِ من يقوم به إذا تركه بمكة، فرأى هو وأصحابه ممن

---

(١) الإصابة لابن حجر ٨/ ٣٥٨.

(٢) صحيح البخاري «٣٨٨٣»، صحيح مسلم «٢٠٩» واللفظ لمسلم.

خَرَجَ معه إلى الشَّام من الآيات فيه ﷺ ما زاد عمَّه في الوصاة بِهِ والحرصِ عليهِ؛ كما رواه الترمـذي في جامعه بإسنادٍ رجالُـه كلُّهم ثقاتٍ، من تظليل الغَمامـةِ له ومَيْلِ الشجرة بظلّها عليـه، وتبشير بَـحيرا الرَّاهب به، وأمره لعمّه بالرجوع به لئلَّا يراه اليهود فيرومونه سوءاً، والحديث له أصلٌ محفوظٌ، وفيه زياداتٌ أُخر».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قولـه: «**وخرج به عمـه إلى الشام**»: هـذه الحادثة أخرجها الترمذي في سننه، وابن إسحاق في السيرة[1]، ورجالها كلهم ثقات ولها أصل محفوظ كما قال المصنف.

وقـال الحافظ ابن حجـر: «إسناده قـوي»[2]، وقـد صححها الحـاكم فـي المستدرك[3]، وصححها بمجموع طرقها وشواهدها الدكتور أكرم ضياء العُمري[4]، والألباني[5]، على نكارة في بعض ألفاظ الحديث نبّه عليها العلماء.

٢ ـ وقد اكتفى المصنف بالإشارة إلى الحادثة، وخلاصتها: أن أبا طالب كان قد أراد الخروج إلى بلاد الشام في تجارة لـه، فرغب ابن أخيـه في صحبته، فرقّ له واصطحبـه. فلما وصل الركبُ بُصرى من بلاد الشام، كـان بها راهب نصراني[6]

---

(١) سنن الترمذي (٣٦٢٠)، سيرة ابن هشام ١/ ١٨١.

(٢) فتح الباري ٧/ ٧١٦.

(٣) مستدرك الحاكم (٤٢٢٩).

(٤) السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٠٩.

(٥) صحيح سنن الترمذي «٣٦٢٠»، والتعليق على فقه السيرة للغزالي ص٦٩.

(٦) وقيل: يهودي.

يقال له بَحِيرا، وكان عنده عِلْمٌ بالكتب السماوية، وقد علم منها قرب مبعث نبيّ، فكان يتحرّى خروجه.

فلما وصلت قافلة أبي طالب قرية بُصرى جذب انتباه الراهبَ غمامةٌ كانت تظلل شخصاً في القافلة، والشجر يميل عليه بفيئه، فدعاهم إلى طعام، وهناك تعرّف الراهب على النبي ﷺ من خلال صفاته وأحواله وخاتم النبوة الذي كان بين كتفيه.

وقد ورد عند ابن إسحاق[1]: أن بحيرا سأل أبا طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني.

قال له بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً.

قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به.

قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغنَّه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده.

٣ـ وقد استغل هذه الحادثة بعض المستشرقين والمبشرين للطعن في النبي ﷺ، فزعموا أنه عندما التقى مع الراهب بَحيرا تعلَّم منه مبادئ الدين، وأمدَّه الراهبُ بكثير من علوم أهل الكتاب، مما كان له بالغ الأثر في ادعائه النبوة بعد ذلك!!

بل زعم بعضهم أن النبي ﷺ تلقى القرآن كله من الراهب بحيرا!!

وكل هذا محض كذب وافتراء وخيال، لأن قصة التعليم والتلقي المزعوم ليس في الروايات ما يدل عليها؟!

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٨٢.

ثم إن النبي ﷺ وقتها كان عمره ما بين العاشرة والثانية عشرة، وكان لقاؤه بالراهب قصيراً عابراً على دعوة طعام، فكيف تسنَّى في ذاك العمر الصغير وذاك اللقاء العابر أن يتعلَّم منه علوم أهل الكتاب وعقائدهم، هذه دعاوى باطلة عقلاً ونقلاً.

والعجيب أن هؤلاء المستشرقين لا يفتؤون يرددون مثل هذه الأباطيل في كتبهم، فتارة يزعمون أن النبي ﷺ تعلَّم من بحيرا الراهب!

وتارة يزعمون أنه تعلَّم من ورقة بن نوفل، أو من يهود مكة... ومعلوم أن مكة لم يكن بها يهود آنذاك، إلى غير ذلك من الأباطيل والتفسيرات التي يريدون من ورائها إنكار الوحي وتكذيب الرسالة، كما قال أسلافهم من قبل: ﴿**إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ**﴾[النحل: ١٠٣].

٤ ـ وقوله: «**وفيه زيادات أخر**»: يريد المصنف أن الحديث مع كون أصله محفوظاً إلا أن بعض رواياته اشتملت على ألفاظ منكرة وباطلة.

ففي رواية الترمذي أن أبا طالب ردّ النبي ﷺ إلى مكة ومعه أبو بكر وبلال!!

وقد استنكر العلماء هذه اللفظة وقالوا: إن أبا بكر وقتها كان صبياً في التاسعة، وبلال لعله من يخلق بعد. ورجح ابن حجر أن تكون هذه الزيادة وهم من أحد الرواة(١).

* خُروجُه الثَّاني إلى الشَّام وزواجُهُ من خَدِيجة:

قال المصنف: «ثم خَرجَ ثانياً إلى الشامِ في تجارة لخديجة بنتِ خُويلد مع

---

(١) الإصابة لابن حجر ١/ ٤٧٦، تحفة الأحوذي للمباركفوري ١٠/ ٦٦.

غلامها مَيْسَرة على سبيلِ القِراض[1]، فرأى مَيْسَرةُ ما بَهَرَهُ من شأنه، فرجعَ فأخبر سيّدته بما رأى، فرغبت إليهِ أن يتزوجها؛ لما رجَتْ في ذلك من الخيرِ الذي جَمَعَه الله لها، وفوقَ ما يخطرُ ببال بشرٍ، فتزوَّجها رسُولُ الله ﷺ وله خمسٌ وعشرونَ سنة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ خروجه ﷺ في تجارة لخديجة إلى أرض الشام ذكره ابن إسحاق مرسلاً بدون إسناد[2]، وصحح الرواية الحاكم في المستدرك، ووافقه الذهبي[3].

٢ ـ وهذا الخروج هو الثاني له ﷺ إلى بلاد الشام، وكان عمُرُه كما قال المصنف خمساً وعشرين سنة، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى الجمهور[4].

٣ ـ وخلاصة الحادثة أن خديجة بنت خويلد كانت امرأة تاجرة، وكانت تستأجر الرجال للعمل في مالها على سبيل القِراض والمضاربة. فلما سمعت عن صدق رسول الله وأخلاقه أرسلت إليه وطلبت منه أن يخرج إلى بلاد الشام في تجارة لها، فَقَبِلَ ذلك، وخرج في صحبته غلام لخديجة اسمه: ميسرة[5].

---

(١) القِراض: أن يكون المال من طرف والعمل من طرف آخر والربح بينهما على ما شرطا، ويسمى المضاربة.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٨٧.

(٣) المستدرك للحاكم ٢/ ٢٠٠، ورواية الحاكم تقول: إنها كانت سَفرتين.

(٤) فتح الباري ٧/ ١٣٤.

(٥) ذكر ابن حجر ميسرة في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة» ٦/ ١٨٩، وقال: «لم أقف على رواية صريحة بأنه بقي إلى البعثة، فكتبته على الاحتمال».

٤ ـ وقد حالف التوفيق هذه الرحلة فربحت تجارتُها، ورأى ميسرةُ من أمانة النبي ﷺ واستقامته ما أثار إعجابه فأخبر سيدته بذلك فرغبت في الزواج منه، ورأت فيه ضالتها المنشودة[١].

٥ ـ وقد اختلفت الروايات في سنّ خديجة عندما تزوجت به ﷺ، فالمشهور أنها كانت في سنّ الأربعين، وهو قول الواقدي[٢].

وقال ابن إسحاق: كانت في الثامنة والعشرين[٣].

وليس عندنا رواية مسندة تفصل في المسألة، فالله أعلم.

٦ ـ وكانت خديجة هي أول امرأة تزوجها النبي ﷺ، وولدت له كل ولده، إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية كما تقدم.

٧ ـ وفي الحادثـة دليل على اعتماد النبي ﷺ على نفسه في الكسب والعيشة قبل بعثتـه، فقد عمل أجيراً لدى خديجـة، وعمل قبلها راعياً للغنم لبعض أهـل مكة، وهكذا استطاع ﷺ في صغره وفي شبابـه أن يستغني عمّا في أيدي الناس، أو انتظار إحسانهم وشفقتهم.

*** صيانة الله لنبيّهِ ﷺ في صِغَره وشَبَابه:**

قال المصنف: «وكان اللهُ سُبحانَه قد صَانَه وحَـمَـاه من صِغَره، وطَهَّره من دَنَس الجاهِلية، ومن كلّ عَيب، ومَنَحَه كلّ خُلقٍ جَمِيل، حتى لم يَكن يُعرفُ بين قومِه إلا بالأَمين، لما شاهدوا مِن طهارتِه وصِدقِ حديثِه وأمانتِه. حتى إِنه لما بنت قريشٌ

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٧٢، سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٦٤.

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ١٠٥.

(٣) مستدرك الحاكم ٣/ ٢٠٠.

الكعبةَ في سنةِ خمسٍ وثلاثين من عمرِه فوصلوا إلى موضِعِ الحَجَر الأسودِ اشتجروا فيمن يَضَع الحَجَر موضعه، فقالت كلُّ قبيلة: نحن نَضَعه، ثم اتَّفقُوا على أن يَضَعَه أولُّ داخلٍ عليهم، فكان رسُولُ الله ﷺ، فقالوا: جاء الأَمينُ، فَرضُوا به، فأَمَر بثوبٍ، فوَضَع الحَجَر في وسَطَه، وأَمرَ كلّ قبيلةٍ أن تَرفَع بجانبٍ مِن جَوانب الثوبِ، ثم أخذ الحَجَر فوَضَعَه موضِعَه ﷺ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ صيانة الله ﷻ لنبيّه وحفظه له منذ صغره مما تواترت به النصوص، فلم يُعرف عنه شيء ﷺ من انحرافات أهل، سواء في العقيدة أو السلوك. ولم يُعرف عنه ﷺ أنه مسَّ صنماً أو شرب خمراً، وكان يأبى مشاركة قريش في أعيادهم وشعائرهم الوثنية[١].

٢ ـ ومن شواهد حفظ الله له في أيام شبابه أنه ﷺ: أراد مرّة حين كان شاباً أن يسمُر كما يسمُر فتيان مكة، فقال لغلام كان يرعى الغنم معه: لو أبصرتَ لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمُر بها كما يسمُر الفتيان! فخرج حتى إذا كان عند أول دار سمع عزفاً، فقال: ما هذا؟ فقالوا: تزوج فلان بفلانة، فجلس يستمع، فضرب الله على أذنيه، فنام، فما أيقظه إلا حرّ الشمس، ثم إنه حاول مرة أخرى فأصابه مثل ما أصابه في المرة الأولى، فما عاد إلى ذلك بعدها[٢].

---

(١) عيون الأثر ١/ ٥٦.

(٢) رواه ابن إسحاق في سيرته ص٧٩، ومن طريقه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٣٧، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الحافظ ابن حجر: «إسناده حسن متصل» كما نقله عنه الصالحي في سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٤٨.

٣ ـ ومن الشواهد ما رواه زيد بن حارثة، قال: كان صنم من نحاس يقال لـه: إِساف أو نائلة، يتمسح بـه المشركون إذا طافـوا، فطاف رسـول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم فطفت معه، فلما مررت مسحـت به، فقال رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم: لا تمسَّه! فقال زيـد: فطفت فقلت في نفسي لأمسَّنَّه حتى أنظر ما يكون، فمسحته، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ألم تُنه؟![1].

٤ ـ وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبدالله يحدث: «أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره»، فقال له العبَّاس عمّه: يا ابن أخي، لـو حللتَ إزارك فجعلت على منكبيك دون الحجـارة، قـال: «فحلَّه فجعله على منكبيه، فسقط مغشياً عليه، فما رُئي بعد ذلك عرياناً ﷺ»[2].

وعلق الحافظ ابن حجر على هذا الحديث قائلاً: «وفي الحديث أنه ﷺ كان مصوناً عما يستقبح قبل البعثة وبعدها»[3].

٥ ـ ويكفي في الدلالة على حال النبي ﷺ قبل بعثته شهادة زوجه خديجة له وهي أعلم الناس به حين قالت له: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتُكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[4].

٦ ـ وأما حادثة اختصام قريش حول من يضع الحجر الأسود في مكانه عندما جددت بناء الكعبة، وما أشار به النبي ﷺ من الرأي السديد، فهذه حادثة مشهورة

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٤، وحسنه الذهبي في تاريخ الإسلام ١/ ٥١٦.

(٢) صحيح البخاري «٣٦٤» واللفظ له، صحيح مسلم «٣٤٠».

(٣) فتح الباري ١/ ٤٧٥.

(٤) صحيح البخاري «٣»، صحيح مسلم «٢٥٢».

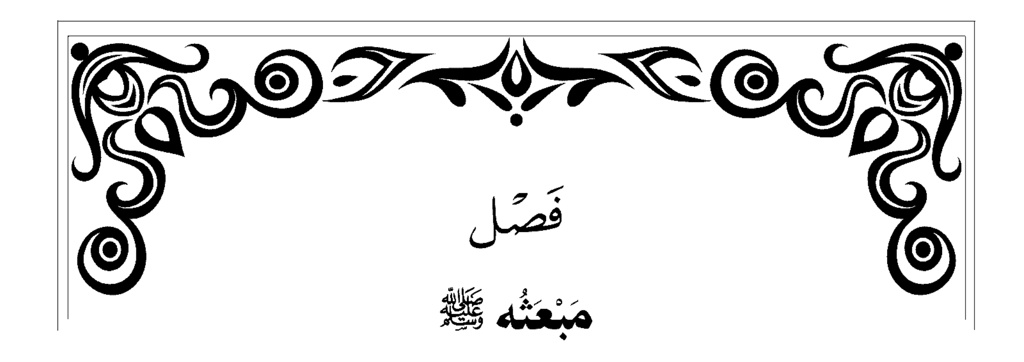
مخرجة في مسند أحمد وغيره من كتب السنة بإسناد صحيح[1].

٧ ـ وفي الحادثة دليل على ما كان يتمتع به ﷺ من مكانة أدبية في أوساط قريش قبل البعثة، فإن قريشاً قالت لما دخل عليهم النبي ﷺ من باب المسجد: «جاء الأمين»، ورضوا بحكمه كما ورد في الرواية المذكورة.

❐ ❐ ❐

---

(١) مسند أحمد «١٥٥٠٤»، وقال الحاكم في المستدرك ١/ ٦٢٨: «صحيح على شرط مسلم، وله شاهد صحيح على شرطه»، وكذا صحح إسناده شعيب الأرناؤوط.



فَصْل

مَبْعَثُه ﷺ

قال المصنف: «ولما أرادَ الله تعالى رحمةَ العِبَاد، وكرامتَه بإرساله إلى العالمين؛ حَبَّب إليـه الخلاءَ، فكان يتحنَّثُ بغار حِـرَاءٍ، كما كان يصنعُ ذلك متعبّدوا ذلك الزمان، كما قال أبو طالبٍ في قصيدته المشهورة اللاميةِ:

وثَــور ومــن أرســى ثَبيــراً مكانَـه ... وراقٍ لِبِـــرّ في حِـــرَاءٍ ونَـــازلِ»

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ شرع المصنف رحمه الله في الحديث عن بدايات بعثته ﷺ وبعض ما تقدمها من حوادث.

وحاصل الأمـر أن النبي ﷺ عنـدما دنت سنُّـهُ من الأربعين حبَّب الله إليه الخلوة عن الناس، فكان يختلي كل عام شهراً[1] بغار حِراء للتعبد والتأمل وإطعام

---

(١) حدَّد مـدة الشهر من كل عام: ابن إسحاق في سيرته ص١٢١ من رواية عُبيد بن عمير مرسلاً: «كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كلّ سنةٍ شهراً»، بينما رواية الصحيحين لم تحدّد. لكن يقوي التحديد بالشهر ما ثبت في صحيح مسلم «٢٥٧» من حديث جابر ابن عبدالله مرفوعاً: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري نزلت...». وقد جزم غير واحد كابن حجر في الفتح ١/ ٣٣ أن ذاك الشهر كان في رمضان.

من يمرّ بـه من المساكين. وسأورد بعـد قليل حديث عائشة في وصف خلوته ﷺ بغار حراء.

٢ ـ وغار حراء يقع في جبل النور قريباً من مكة[١]، وقد كانت قريش تقصده للتعبد به في الجاهلية كمـا في سيرة ابن إسحاق عن عُبيد بن عمير بإسناد صحيح مرسل[٢].

ويبدو أن التحنث كان من بقايا دين إبراهيم التي ظلت في قريش على طريقة الاعتكاف[٣].

٣ ـ ولا يعـرف على وجـه التحـديد متى كـان بـدء هـذه العزلـة، بيـد أن المجـزوم بـه أنها كـانت قرب بعثتـه ﷺ، كمـا دل عليـه حـديث عـائشـة ﵂ في الصحيحين: «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جـاءت مثل فلق الصُّبح، ثم حبّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيـه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك...»[٤].

٤ ـ وفي اختلائه ﷺ شهراً من كل عام وهو ما عبرت عنه عائشة ﵂ «بالليالي ذوات العدد» دليل على ضرورة مراعاة الاعتدال والوسطية في الأمور كلها بما فيه أمور التعبـد، فلم يكن ﷺ يخلو أياماً قصيرة جـداً في الغار ولا أياماً طويلة جداً،

---

(١) وهو مطل على الكعبة، ويحتاج الصعود إليه نحواً من نصف ساعة أو أكثر.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٥.

(٣) فتح الباري ١٢/ ٣٥٥.

(٤) صحيح البخاري «٣» واللفظ له، صحيح مسلم «١٦٠» من حديث عائشة ﵂.

وإنما وسطاً بين هـذا وذاك، وهو الهدي الذي استمر عليـه النبي ﷺ بعد بعثته في أموره كلها.

٥ ـ كذلك يؤخذ من هذه الخلوة حاجة المسلم إلى الاختلاء بين الحين والآخر خلوة إيجابية للتأمل والتفكر والتوبة ومراجعة النفس والتبصر فيها.

٦ ـ وقصيـدة أبي طالب اللاميَّة المشار إليها: هي من عيـون الشعر العربي، وقـد أوردها المصنف بطولها في تاريخه، وقال عنها: «هذه قصيدة عظيمة فصيحة بليغة جـداً؛ لا يستطيع أن يقولها إلا مـن نُسبت إليـه، وهي أفحل مـن المعلّقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعاً»[١].

٧ ـ وقد كان العالم بأسره عند بعثة النبي ﷺ يعيش في ظلام حالك وجاهلية جهلاء، ومظاهر هـذه الجاهليـة كثيرة جـداً، فبلاد العرب في ذلك الوقت ـ على سبيل المثال ـ كان الناس فيها يعبدون الأصنام، ويستشفعون بها عند الله، وكانوا ينكرون البعث واليـوم الآخر، ويقولون: إن هي إلا حياتنا الـدنيا نموت ونحيا، وكانوا يزعمون أن الملائكـة بنات الله، وأن الجن شركاء لله، ويطوفـون بالكعبـة عراة... هذا فضلاً عن انحرافاتهم الاجتماعية والأخلاقية، كقطع الطريق، وإتيان الفواحش، وأكل الميتـة، ووأد البنات ...وغير ذلك مما يطول الحديث عنه، سواء كان في بلاد العرب أو في غيرها من البلدان ذلك الوقت.

لكن هذه الانحرافات والمساوئ التي كان عليها العرب في ذلك الوقت لم تمنع من وجود بعض الفضائل والخصال الحميدة فيهم، كحُبّ الصّدق والشهامة، والأنفة والإباء، والشجاعة والصراحة، وحماية المستجير والمستغيث ...إلى غير ذلك

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ١٤٢.

من الفضائل التي أهّلتهم لحمل رايـة الإسلام وتحمّل أمانة الدعوة إلى دين الحق بعد ذلك.

*** مجيئ المَلَك في غَار حِرَاء:**

قال المصنف: «فَجَاءه الحقُّ وهو بغَار حِرَاء في رمضانَ، ولهُ من العُمُر أربعونَ سنة، فجَاءه الملَكُ، فقالَ: اقرأ. قالَ: لستُ بقارئ، فغتَّه[1] حتى بَلَغ منه الجَهْد، ثم أرسلَه فقال: اقرأ، قال: لستُ بقارئٍ ثلاثاً، ثم قالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ١ ـ ٥]».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ كافة علماء السيرة على أن مجيء جبريل في الغار كان حقيقة في اليقظة، كما هو ظاهر الروايات الصحيحة.

لكن أشكل على هـذا روايةٌ ذكرها ابن إسحـاق تفيـد أن مجيئه كان مناماً، ولفظها من طريق عُبيد بن عمير: «فجاءني جبريل، وأنا نائم، بنمطٍ من ديباج فيه كتاب، فقال اقرأ»[2].

ويجاب عن هذه الروايـة بأنها رواية مرسلة[3]، فهي لا تحتمل مخالفة ظاهر روايات الصحيحين الدالة على أن هذا المجيء كان يقظة لا مناماً.

---

(١) ضمه وعصره.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٦.

(٣) لأن راويها عبيد بن عمير تابعي، فروايتـه مرسلة، لكن ما ذكره الدكتور أكرم العُمري فـي صحيح السيرة ١/ ١٢٩ بأن «إسنادهـا واه» فيه نظر، فإن عبيد بن عمير من كبار التابعين والإسناد إليه صحيح، وكان بالإمكان قبول روايته هذه لولا معارضتها لظاهر روايات الصحيحين، والله أعلم.

وأما محاولة السهيلي[1] وابن سيد الناس[2] الجمع بين الروايتين بأن الحادثة تكررت مرتين، الأولى في المنام والأخرى في اليقظة، ففيه نظر، لأنه لو كان كذلك لما حصل للنبي كل ذلك الخوف من هول المفاجأة في المرة الثانية!!

٢ ـ وقوله: «**في رمضان**»: أي أن مجيء جبريل إلى الغار كان في رمضان، قال ابن حجر: «هذا هو الراجح»[3].

وقال الألباني: «هو المشهور»[4].

واستدل له ابن إسحاق بقوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ**﴾[البقرة: ١٨٥][5].

٣ ـ وقوله: «**وله أربعون سنة**»: هذا هو المشهور، وتدل عليه الروايات الصحيحة، منها ما ثبت عن ابن عباس قال: «أُنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين»[6].

---

(١) الروض الأنف ٢/ ٣٩٢.

(٢) عيون الأثر ١/ ١٠٨.

(٣) فتح الباري ١٢/ ٣٥٦، ٨/ ٧١٨. ووهم الدكتور مهدي رزق الله في كتابه السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص١٣٠ عندما قال: «روى الشيخان أن أمين الوحي فجأ الرسول ﷺ لأول مرة في يوم الاثنين، الحادي والعشرين من شهر رمضان»!! وهذا وهم منه، فليس في الصحيحين تحديد تاريخ المجيء باليوم والشهر، والثابت فيهما التحديد بيوم الاثنين فقط.

(٤) صحيح السيرة للألباني ص٨٩.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٩.

(٦) صحيح البخاري «٣٨٥١».

لكن بيّن الحافظُ ابنُ حجر أنه ﷺ كان بالتحديد ابن أربعين سنة وستة أشهر، لأنه ولد في ربيع الأول ونُبّيء في رمضان[1].

٤ ـ ولعل الحكمة في اختيار الأربعين: أنها سنّ النضج واكتمال العقل وحصول التجربة في الحياة.

٥ ـ وأما ما أشتهر بين الناس من أنه لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين فهذا لم أطلع على دليل يسنده بالرغم من اشتهاره.

ومعلوم أن نبي الله عيسى كان في سنّ الثلاثين عندما بعث، فإن صحّ أن النبوة تكون في الأربعين فيكون أمراً أغلبياً وليس لجميع الأنبياء، والله أعلم.

٦ ـ قوله: «**فجاءه الملَك فقال له اقرأ**»: المراد بالملَكِ: جبريل عليه السلام بغير خلاف كما قال الحافظ العراقي[2].

٧ ـ وقوله: «**لست بقارئ**»: معناه: لا أحسن القراءة، لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

ولفظ رواية الصحيح: «ما أنا بقارئ»[3]، والمؤلف أتي بجملة تفسيرية لرواية الصحيح، وكان الأولى التزام اللفظ الوارد.

*** رجوعه ﷺ إلى خديجة وفؤاده يرجف:**

قال المصنف: «فرجعَ بها رسُولُ الله ﷺ ترجُفُ بوادِرُه، فأخبرَ بذلك خديجةَ رضي الله تعالى عنها، وقال: قد خشيتُ على عقلي، فثبّتته، وقالت: أبْشر،

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٦٤، ١٢/ ٣٥٦.

(٢) طرح التثريب ٤/ ١٨٧.

(٣) صحيح البخاري «٣»، صحيح مسلم «١٦٠».

كلا والله! لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصلُ الرحمَ، وتَصدُقُ الحديثَ، وتحملُ الكَلَّ[1]، وتُعين على نوائب الدهر[2]، في أوصافٍ أُخر جميلة عدّدتها من أخلاقه ﷺ، وتصديقاً منها له، وتثبيتاً، وإعانة على الحقّ، فهي أولُ صِدّيقٍ له رضي الله تعالى عنها وأكرمها».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قوله: «**ترجف بوادره**»: هذه إحدى روايات الصحيحين[3]، وفسرها المصنف في حاشية الأصل بقوله: «البوادر هي: اللحم الذي بين العُنُق والمنكب»[4]. وقد جاء في بعض روايات الصحيحين: «يرجف فؤاده»[5].

٢ ـ وسبب هذا الخوف أن النبي ﷺ لم يعهد مثل هذا الأمر من قبل، ولم يسمع به، وقد طال عهد انقطاع العرب عن النبوة والأنبياء.

٣ ـ وقوله: «**قد خشيت على عقلي**»: هذه الرواية ذكرها المؤلف بالمعني، ولفظ رواية الصحيحين: «لقد خشيت على نفسي»[6]، ومعناها خشيت على نفسي من الجنون ومسّ الشياطين. وكان هذا قبل أن يعلم أن الذي جاءه ملَكٌ ووحي من عند الله.

---

(١) الكلّ: الضعيف، والمرد إعانته والإنفاق عليه.

(٢) حوادثه.

(٣) صحيح البخاري «٤٩٥٣»، صحيح مسلم «١٦٠».

(٤) انظر: الفصول ص٥٩، حاشية: ٣.

(٥) صحيح البخاري «٣»، صحيح مسلم «١٦٠».

(٦) صحيح البخاري «٣»، صحيح مسلم «١٦٠».

٤ ـ قوله: «**فهي أول صدّيق له**»: أي أنها أول من آمن به وصدّقه ﷺ، وهذا هو القول الصحيح الذي تقتضيه المرويات الصحيحة؛ أن أول من آمن بالنبي ﷺ على الإطلاق هي زوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

واختلف فيمن آمن بعدها، والذي ذكره ابن إسحاق: أنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم زيد بن حارثة، ثم أبو بكر الصديق رضي الله عنه(١).

ونقل ابن عبد البر عن بعض السلف أن أبا بكر أسلم قبل علي(٢)، والأمر في هذا يسير.

٥ ـ وفي مبادرة هؤلاء الناس إلى الإسلام دلالة على صدق النبي ﷺ، فقد كانوا أقرب الناس إليه وأعرفهم بحاله فبادروا إلى تصديقه.

٦ ـ وفي قول خديجة للنبي ﷺ: «**كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ...**» دليل على أن التحلي بمكارم الأخلاق سبب في وقاية المرء من مصارع السوء ووقوع المكاره(٣).

*** فتور الوحي عنه ﷺ:**

قال المصنف: «ثم مكَثَ رسُولُ الله ﷺ مَا شَاءَ أنْ يَمكُثَ لَا يَرَى شيئاً، وفَتَرَ عنهُ الوحيُ، فاغتمَّ لـذلكَ، وذهبَ مـراراً ليتردّى من رُؤوس الجبَالِ، وذلك مِـن شوْقـه إلى مَا رأى أولَ مرَّةٍ، ومِن حَـلاوةِ ما شاهدَه من وحي الله إليهِ، ثم تبدَّى له المَلَكُ بينَ السَّماءِ والأرضِ على كرسيّ، وثبَّته، وبشَّره بأنه رسُولُ الله حقاً، فلمَّا رآه

---

(١) سيرة ابن إسحاق ص١٤٠.

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير ص٣٨.

(٣) دراسات في السيرة النبوية ص٥٢.

رسُولُ الله ﷺ فَرِقَ منهُ، وذهبَ إلى خديجةَ، وقال: زمّلُوني. دثّرُوني. فأنزَلَ اللهُ عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ١ ـ ٤]».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ مقصود المؤلف بفترة الوحي: أن جبريل بعد مجيئه إلى النبي ﷺ في الغار انقطع عنه مدة من الزمن قبل أن يعاوده المجيء مرة أخرى.

ـ ولعل الحكمة في هذا الانقطاع: حتى يذهب عنه ما أصابه من الخوف والفزع في اللقاء الأول، وحتى يحصل له الشوق إلى لقاء جبريل مرة أخرى.

وفترة الوحي ثابت في حديث عائشة السابق في الصحيحين.

٢ ـ وقد اختلف في مدة الانقطاع على أقوال، ولم تأت رواية حاسمة في المسألة، والذي رجحه الشيخ أبو شهبة[١] والمباركفوري[٢] أنها دامت أياماً، وهو مروي عن ابن عباس[٣]. وقال الدكتور العُمَري: «يبدو أنها لم تدم طويلاً»[٤].

٣ ـ وقوله: «**وذهب مراراً ليتردى من رؤوس الجبال**»: بنى المؤلف هذا على رواية وردت في البخاري من كلام الزهري، وفيها: «وفتر الوحيُ فترة حتى حَزن النبيُّ ﷺ، **فيما بلغنا**، حُزناً غدا منهُ مِراراً كي يتردَّى مِن رءوس شَواهِق الجبَال»[٥].

---

(١) السيرة النبوية لأبي شهبة ١/ ٢٦٤.

(٢) الرحيق المختوم ص٥٨.

(٣) شرح المواهب للزرقاني ١/ ٤٤١.

(٤) السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٢٧.

(٥) صحيح البخاري «٦٩٨٢».

وهذه الرواية مع كونها مخرجـة في البخاري إلا أنها ضعيفة الإسناد منكرة المتن، لأسباب منها:

أولاً: أن إسنادها منقطع، فلم يذكرها البخاري بإسناد متصل، وإنما ذكرها بلاغاً من كلام الزهري، وذلك في قولـه: «فيما بلغنا». ولعل البخاري إنما ذكرها لينبّه على ضعفها وأنه ليس لها إسناد متصل.

ثانياً: أن محاولـة النبي ﷺ قتل نفسه لمجـرد انقطاع الوحي عنـه مـدة هـذا يتنافى مع عصمتـه ﷺ، ويتنافى مع مـا عرف عنـه من رباطة الجأش وقوة النفس. وقد مرّ عليه في مسيرة دعوته شدائد وأهوال آلمته وأحزنته لكنه لم يفكر بمثل هذا قط.

ثالثاً: زعمُ الراوي أنـه ﷺ كان يريد التردّي من فوق رؤوس الجبال زعـمٌ باطلٌ، لأنه مبني على الظن والتخمين، فكيف عَلِمَ الراوي مقصد النبي ﷺ؟

ولِـمَ لا يقال إنه ﷺ كان يصعد رؤوس الجبال بحثاً عن جبريل عليه السلام وليس لقصد التردي وقتل نفسه كما حسب الراوي[1]!!

وأما تعليل المصنف بأن النبي ﷺ كان يفعل ذلك بسبب شوقه لحلاوة الوحي ففيه نظر؛ **أولاً**: لأنه مخالف لتعليل رواية الزهري التي اعتمد عليها، والتي تقول أن ذلك كان بسبب الهم والحزن وليس بسبب الحلاوة والشوق.

وثانياً: فلأن الإنسان إنما يفكر بقتل نفسه بسبب ما قد يصيبه من الهم والحزن وليس بسبب ما يجده من شوق وحلاوة!!

---

(١) أطال العلامة محمد الصادق العرجون في نقد هذه الرواية ومناقشتها سنداً ومتناً في كتابه: محمد رسول الله ﷺ ١/ ٣٨٥.

٤ ـ وقوله: «**ثم تبدَّى له الملَكُ بين السماء والأرض على كرسيّ**»: هذه الرواية ثابتة في الصحيح[١].

*** قيامُه ﷺ بالدَّعوة:**

قال المصنف: «ثم أَمَرَه اللهُ في هذه الآيةِ[٢] أن يُنذرَ قومَه ويدعُوهم إلى الله، فشمَّر ﷺ عن سَاقِ التكليفِ، وقـامَ في طاعةِ الله أتمَّ قيامٍ، يـدعو إلى الله سبحانَه: الكبيرَ والصغيرَ، والحرَّ والعبدَ، والرجالَ والنساءَ، والأسودَ والأحمرَ، فاستجابَ له عِبَادُ الله من كلّ قبيلةٍ. وكان حائِزَ سبْقهم: أبو بكرٍ عبدالله بن عثمان التَّيمي، وآزَرَهُ في دينِ الله، ودعـا معه إلى الله على بصيرةٍ، فاستجـابَ لأبي بكر: عثمانُ بنُ عفان، وطلحةُ، وسعـدٌ بن أبي وقَّاصٍ. وأما عليٌّ فأسلم صغيراً ابنَ ثمانِ سنين، وكذلك أسلمتْ خديجةُ، وزيدُ بن حَارثة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قوله: «**وكان حائز سبقهم أبو بكر**»: تقدم الكلام عن أول الناس إسلاماً قبل قليل.

٢ ـ وقوله: «**وأما عليّ فأسلم صغيراً ابن ثمانِ سنين**»: قلت: رجح الحافظان الذهبي وابن حجر أنه أسلم وعمره عشر سنين[٣].

٣ ـ ثم إن في قـول المصنف: «**وقامَ ﷺ في طاعة الله أتم قيام، يدعو إلى الله: الكبيرَ والصغيرَ ...إلى آخره**»: **قلت**: هذا فيه عموم وإجمال، والتحقيق أن النبي ﷺ

---

(١) صحيح البخاري «٤٩٢٥»، صحيح مسلم «١٦١» من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) يعني بها الآيات الأول من صدر سورة المدثر: يا أيها المدثر قم فأنذر...

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ٥٣٩، فتح الباري ٧/ ٧٢.

بدأ أولاً بالـدعوة سراً، واستمر على هـذه الحال طيلة ثلاث سنوات كما ذكر ابن إسحاق[1] والواقدي[2] وغيرهما.

٤ ـ وإنما اختار ﷺ البدء بالدعوة سراً لما كان يعلمه من تعنّت قريش وشدّة تعصبها لشركها ووثنيتها، فلم يكونوا ليقبلوا بدعوة التوحيد بسهولة ابتداء.

٥ ـ لكن بعـد مرور ثلاث سنوات أمره الله بإظهار دينـه، ونزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[الحجر: ٩٤].

فحينها جَهَرَ النبيُّ ﷺ بدعوته واستعلن بها، فوقع الصدام بينه وبين قريش.

وبعض علماء السيرة يذكر أن الدعوة السرية انتهت بنزول قول الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[الشُّعَرَاءِ: ٢١٤].

*** إسلام وَرَقَة بن نَوْفَل:**

قـال المصنف: «وأسلَمَ القِسّ وَرَقَـة بن نَوْفَلٍ، وصَـدَّق بما وجدَ من وحي الله، وتمنّى أن لو كـان جَذَعاً[3]، وذلك أولَ مـا نَزَل الوحيُ، وجـاء في حديثٍ أن رسُـولَ الله ﷺ قـال: «رأيتُ القِسّ عليـه ثيابٌ بيضٌ»، وفي الصحيحين أنه قال: هذا الناموسُ الـذي جاء موسى بن عِمْران. لما ذهبت خديجـةُ به إليه، فَقَصَّ عليه رسُولُ الله ﷺ ما رأى من أمرِ جبريلَ عليه السلام».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ ورقة بن نوفل هو: ابن أسـد بن عبـد العزى القرشي، ابن عمّ خديجـة

---

(١) بلاغاً بدون إسناد، انظر: سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٧.

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ١٥٦.

(٣) شاباً قوياً.

بنت خويلد زوج النبي ﷺ.

كان قد تنصّر في الجاهلية وتفقه في دينها، وهو الذي ذهبت إليه خديجة برفقة النبي ﷺ بعدما جاءه جبريل في الغار، فثبّته وطمأنه، وقال له: «هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يُخرجك قومُك ...إلى أن قال: وإن يُدركني يومُك أنصرك نصراً مُؤزراً»، كما في الصحيحين[١].

٢ ـ وقد اختلف في إسلام ورقة، والصواب أنه أسلم وآمن كما حققه جمع من أهل العلم، منهم المصنف، والحافظ العراقي[٢]، وابن حجر[٣]، والقسطلاني[٤]، ويشهد لهذا ظاهر رواية الصحيحين التي سقناها.

وأما حديث الترمذي الذي ساقه المصنف: «رأيت القسَّ عليه ثياب بيض»، فإسناده ضعيف[٥]، ويغني عنه حديث الصحيحين المتقدم.

وأيضاً ورد بإسناد صحيح مرفوعاً: «لا تسبوا ورقة بن نوفل فإني قد رأيت له جنة أو جنتين»[٦].

---

(١) صحيح البخاري «٣»، صحيح مسلم «١٦٠».

(٢) التقييد والإيضاح للعراقي ص٣١٢.

(٣) الإصابة لابن حجر ٦/ ٤٧٥.

(٤) إرشاد الساري ١/ ٤٢.

(٥) ضعف إسناده الألباني في ضعيف الترمذي «٢٢٨٨»، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق مسند أحمد «٢٤٣٦٧».

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٦٦، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وصححه العراقي في التقييد والإيضاح ص٣١٢، والألباني في صحيح الجامع، «٧٣٢٠».

٣ ـ وقد ترجم لورقة غير واحد من العلماء في الصحابة، منهم: ابن الأثير[١] وابن حجر[٢].

*** حماية أبي طالب للنبي ﷺ:**

قال المصنف: «ودَخَلَ مَن شَرَحَ اللهُ صدرَه للإسلامِ على نورٍ وبصيرةٍ ومُعاينةٍ، فأخذهُم سفهاءُ أهلِ مكـة بالأذى والعقوبـة، وصَانَ اللهُ رسُولَـه وحمـاه بعمّهِ أبي طالبٍ، لأنه كان شَريفاً مطاعاً فيهم، نبيلاً بيْنهم، لا يتجاسَرونَ على مفاجأته بشيءٍ في أمر محمد ﷺ لما يعلَمونَ من محبَّته له.

وكان من حكمةِ اللهِ بقاؤُه على دِينهم لما في ذلك من المصلحةِ. هذا ورسُولُ الله يدعو إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، لا يصدُّه عن ذلك صَادٌّ، ولا يردُّه عنه رادٌّ، ولا يأخذُه في الله لومةُ لائمٍ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قولـه: «**فأخـذهم سفهاء أهل مكـة بالأذى**»: يشير إلى مـا تعرض لـه المسلمون بمكة من ألوان الأذى والبلاء من قبل أقوامهم بسبب إسلامهم.

وكتب السنّة والسيرة طافحـة بشواهد ذلك، وسيذكر المصنف بعضاً منها في الفصل القادم.

٢ ـ بل حتى من أسلم من ذوي الشرف والمكانة لم يسلموا من أذية أقوامهم، وكان الواحد منهم يُهَدَّدُ ويُقال له: «لنسفهنّ حلمك، ولنضعنّ شرفك»، وإن كان

---

(١) أسد الغابة ٥/ ٤١٦.

(٢) الإصابة لابن حجر ٦/ ٤٧٤.

تاجراً قيل له: «لنكسدنّ تجارتك، ولنهلكنّ مالك»[1]، حتى يصدوه عن دين الله.

٣ ـ وأما النبي ﷺ فلم تجترئ قريش على أذيته جسدياً بسبب حماية عمّه أبي طالب له ووقوفه معه.

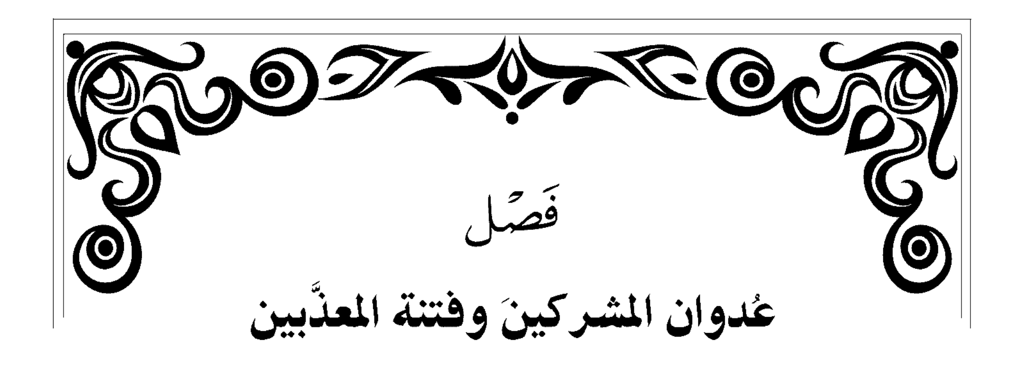
لكن بعد موت أبي طالب في السنة العاشرة من البعثة نالت قريش من النبي ﷺ جسدياً[2] أكثر من مرة، حتى قرروا قتله في النهاية، مما كان سبباً مباشراً لهجرته إلى المدينة كما سيأتي تفصيله.

❒ ❒ ❒

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٧٩.

(٢) انظر على سبيل المثال: حادثة خنق عقبة بن أبي معيط للنبي ﷺ عند الكعبة في صحيح البخاري «٣٨٥٦»، ووضعهم سلا الجزور على ظهره في صحيح مسلم «١٧٩٤».



فَصل

عُدوان المشركينَ وفتنة المعذَّبين

قال المصنف: «ولمَّا اشتدَّ أذى المشركينَ على مَن آمنَ وفتنوا منهم جماعة، حتى إنهم كانوا يصبرونهم(١)، ويلقونهم في الحرّ، ويضعونَ الصخرة العظيمة على صدْر أحدِهم في شدَّة الحرّ، حتى إن أحدهَم إذا أُطلق لا يستطيعُ أن يجلسَ من شدَّةِ الألمِ، فيقولونَ لأحدِهم: اللاتُ إلهك من دونِ الله. فيقول مكرهاً: نعم! وحتى إن الجُعَل(٢) ليمرُّ فيقولونَ: وهذا إلهك من دون الله. فيقول نعم!

ومرّ الخبيثُ عدو الله أبو جهل عمرو بن هشام بسُمَيَّة أم عمَّار وهي تعذَّبُ وزوجُها وابنُها، فطعنَها بحربةٍ في فرجها فقتلها ﵂ وعن ابنها وزوجها.

وكان الصّدّيق رضي الله تعالى عنه إذا مَرَّ بأحدٍ من الموالي يعذَّب يشتريهِ من مواليه ويعتقه، منهم بلالٌ، وأمه حمامة، وعامر بن فُهيرة، وأم عبس، وزنِّيرة، والنهدية، وابنتها، وجارية لبني عدي، كان عمرُ يعذِّبها على الإسلام قبل أن يُسلم، حتى قال له أبوه أبو قحافة: يا بنيّ، أراك تُعتق رقاباً ضعافاً، فلو أعتقتَ قوماً جُلداً يمنعونك. فقال له أبو بكر: إني أريد

---

(١) يحبسونهم.

(٢) الجعل بضم الجيم وفتح العين: دويبة من دواب الأرض تشبه الخنفساء.

ما أريد[1]. فيقال إنه نزلت فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧ ـ ١٨] إلى آخر السورة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ ما ذكره المصنف من ألوان العذاب والبلاء الذي أنزله المشركون بالمؤمنين بمكة له شواهد كثيرة في السنة والسيرة، منها حديث ابن مسعود أنهم: كانوا يلبسونهم أدارع الحديد، ويصهرونهم في الشمس، ويطوفون بهم في شعاب مكة[2].

ومنها حديث ابن عباس: أنهم كانوا يضربون أحدهم، ويجيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدّت ما نزل به من الضرّ[3].

٢ ـ وحادثة استشهاد سمية والدة عمار بن ياسر على يد أبي جهل مخرجة في مصنف ابن أبي شيبة[4] مرسلاً بإسناد صحيح عن مجاهد بن جبر كما قال ابن حجر[5].

وقد ثبت أن النبي ﷺ مرّ بها وبزوجها وابنها وهم يعذبون بمكة، فقال لهم:

---

(١) كذا في الفصول!، وعند ابن هشام ١/ ٢٧٩: «إنما أريد ما أريد لله ﷻ»، وبها تتضح الجملة.

(٢) مسند أحمد «٣٨٣٢»، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٠ وقال الصوياني في الصحيح من أحاديث السيرة ص٧١: «إسناده قابل للتحسين».

(٤) مصنف ابن أبي شيبة «٣٣٨٦٩».

(٥) الإصابة ٨/ ١٩٠.

«صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[1].

٣ ـ وقصة شـراء أبي بكر الصّدّيق للموالي المعذَّبين بمكة وإعتاقهم ذكرها ابن إسحاق في السيرة، ومن طريقه الحاكم في المستدرك وصححه[2].

وقـد ثبت إعتاق أبي بكر لبلال في البخـاري عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يقول: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا يعني بلالاً»[3].

٤ ـ وما كـان يصيب المؤمنين الصادقيـن بمكة من ألوان العذاب والمعاناة فيه دليل على أن المؤمن مبتلى ليطهره الله ويرفع درجاته.

وفي الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»[4].

٥ ـ وما كان ينطق به بعض المؤمنين من ألفاظ الكفر تحت العذاب فيه دليل على أن الإكراه على كلمة الكفر يبيح النطق بها كما في قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ**﴾[النحل: ١٠٦].

٦ ـ وفي شـراء أبي بكر للموالي المعـذبين وإعتاقهم دليل على فضله وكرمه وبعض ما كان يقوم به ﷺ من أعمال جليلة في الإسلام.

*** الهجرة إلى أرض الحَبَشة:**

قـال المصنف: «فلمَّا اشتـدَّ البلاءُ أذِنَ الله سبحانـه لهم في الهجـرةِ إلى أرضِ

---

(١) أخرجـه الحاكم في المستـدرك «٥٦٤٦»، وصححـه الألباني في تعليقـه على فقه السيرة ص١١١.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣١٩، مستدرك الحاكم «٣٩٤٢»، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٣) صحيح البخاري «٣٧٥٤».

(٤) سنن ابن ماجه «٤٠٢٣» وصححه شعيب الأرناؤوط.

الحَبَشةِ[1]، فكـان أولُ من خرجَ فاراً بدينهِ إلى الحَبَشة عثمانُ بنُ عفان ﷺ، ومعه زوجته رقية بنت رسُولِ الله ﷺ، وتبعه الناس.

ثم خرجَ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ وجماعـاتٌ ﷺ وأرضاهم، وكانوا قريبـاً من ثمـانين رجلاً. فانحاز المهاجرون إلى مملكة أَصْحَمَة النجاشي، فآواهم وأكرمهم، فكانوا عنده آمنين».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ أخذ المصنف يتحدث عن هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة، وقد ذكر أهل السير أنها بدأت في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة[2].

٢ ـ وكان سببها أن النبي ﷺ عندما رأى ما كان ينزل بأصحابه من العذاب والفتنة، ورأى أنـه غير قادر على حمـايتهم ومنعم، أشـار عليهم بالخروج إلى بلاد الحبشة، وقـال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشـة، فـإن بها ملكاً لا يُظلم عنـده أحدٌ، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه»[3].

٣ ـ وقد جاء في البخـاري ما يدل على أن هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة كانت مرتين[4]. وأوضح ذلك أهل السير فقالوا: إنهم كانوا في البداية أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وتسمّى هجرة الحبشة الأولى، ثم إنهم رجعوا إلى مكة بعد أن

---

(١) البلد المعروف في إفريقية، ويسمّى اليوم أثيوبية.

(٢) فتح الباري ٧/ ١٨٨.

(٣) سيرة ابن إسحاق ص١٧٤، والبيهقي في السنن ٩/ ٩، وصححه الألباني في الصحيحة «٣١٩٠».

(٤) صحيح البخاري «٣٨٧٢»، وانظر: فتح الباري ٧/ ١٨٩.

بلغتهم أخبار كاذبـة بإسلام قريش، فلمّا رأوا أن الحال لم تتغير هاجروا مرة ثانية، وكانوا في هذه المرة نحواً من ثمانين رجلاً وتسع عشرة امرأة[1].

٤ ـ وأَصْحَمَة المذكور هو: أَصْحَمَة بن أبحر، والنجاشي لقبٌ له، وقد ثبت أنه آمن بالنبي ﷺ، وظل في بلاده حتى مات، فصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب، وكبَّر عليه أربعاً، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة[2].

٥ ـ وفي اختياره ﷺ للحبشة دون غيرها دليل على معرفته بأحوال البلدان والدول وما كان يجري فيها، وما يصلح منها وما لا يصلح.

٦ ـ وقد أثنى النبي ﷺ على الذين هاجروا إلى أرض الحبشة، وقال لهم كما في الحديث الصحيح: «لكم أنتم يا أهل السفينة هجرتان»[3].

وعند ابن سعد بإسناد صحيح كمـا قال ابن حجر أن أسمـاء بنت عُميس قالت: يا رسـول الله! إن رجالاً يفخرون علينا ويزعمون أنا لسنا مـن المهاجرين الأوّلين؟ فقـال ﷺ: «بل لكم هجـرتان، هاجرتم إلى أرض الحبشة، ثم هاجرتم بعد ذلك»[4].

٧ ـ وقد أخذ العلماء من هذه الحادثة وجوب هجرة المسلم من البلد الذي يمنع فيـه من إقامـة شعائر دينـه، من صلاة وصيام ونحوهـا، إن كان قادراً على الهجرة.

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٢٦.

(٢) صحيح البخاري «١٢٤٥»، صحيح مسلم «٩٥١».

(٣) صحيح البخاري «٣٨٧٦»، من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) طبقات ابن سعد ٨/ ٢١٩، فتح الباري ٧/ ٤٨٦.

وهذا الحكم باق إلى يوم القيامـة[1]. لأن الدين هو أغلى مـا يملكه المسلم وما يجب المحافظة عليه.

*** محاولة قريش رد المهاجرين إلى الحبشة:**

قال المصنف: «فلمـا عَلِمَت قريشٌ بـذلك بعثت في إثرهـم عبدَالله بنَ أبي ربيعـة وعمرو بنَ العاص بهدايا وتُحَفٍ من بلادِهم إلى النجاشيّ، ليردَّهم عليهم، فأبى ذلك عليهم وتشفَّعوا إليه بالقُوَّادِ من جُنده، فلم يُجبهم إلى ما طلبوا، فوشَوا إليه: إن هؤلاء يقولُون في عيسى قولاً عظيماً، يقولُون: إنه عبدٌ، فأُحْضر المسلمون إلى مجلسِه، وزعيمُهم جعفرُ بنُ أبي طالب ﷺ، فقال: ما يقولُ هؤلاء إنكم تقولُون في عيسى؟! فتلا عليه جعفرٌ سورةَ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[مريم: ١]، فلما فرغَ أخذ النجاشيُّ عُوداً من الأرض، فقال: ما زاد هذا على ما في التوراة ولا هذا العُود.

ثم قال: اذهبوا فأنتم سيُوم[2] بأرضي، من سبَّكُم غَرِم. وقال لعمرو وعبدالله: والله لو أعطيتموني دَبَراً[3] من ذهب ـ يقول: جبلاً من ذهب ـ ما سلّمتُهم إليكما، ثم أمر فَرُدَّتْ عليهما هداياهما، ورجعا مقبوحَين بشرّ خَيْبة وأسوئِها».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ محاولة قريش استعادة المسلمين من بلاد الحبشة وما جرى من حوار بين جعفر بن أبي طالب والنجاشي أخرجه ابن إسحاق في السيرة بإسناد حسن[4].

---

(١) تفسير القرطبي ٥/ ٣٥٠.

(٢) كلمة حبشية معناها: آمنون.

(٣) كلمة حبشية معناها: الجبل.

(٤) سيرة ابن إسحاق ص٢١٣، ومن طريقه أحمد في المسند «١٤٧٠» بإسناد حسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

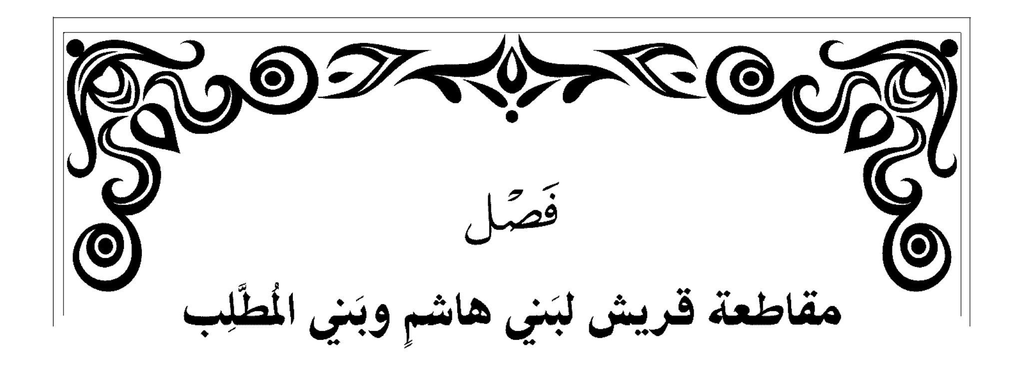
٢ ـ ومن الأحكام التي تؤخذ من هذه الحادثة: جواز استعانة المسلمين بغير المسلمين والاحتماء بهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولهذا نظائر عديدة في حوادث السيرة، كاحتماء النبي ﷺ بعمّه أبي طالب، واحتمائه بالـمُطعم بن عَديّ عندما عاد من رحلة الطائف، واستعانته بعبدالله بن أُريقط في هجرته إلى المدينة.

٣ ـ كما يؤخذ من الحادثة أن دين الإسلام والنصرانية الحقَّة قبل أن يدخلها التحريف لا يختلفان في أصل العقيدة والتوحيد، وأن عيسى بن مريم رسول من عند الله، ليس بإله ولا ابن إله. ولذلك قال النجاشي لجعفر: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت مقدار هذا العود.

٤ ـ وفي جواب جعفر بن أبي طالب للنجاشي دليل على مدى ما كان عليه المسلمون من صراحة في بيان دينهم وعقيدتهم، وتركهم المجاملة والمداهنة رغم ضعفهم وغربتهم، مما كان له الأثر الطيب في نجاتهم.

٥ ـ كما أن في جواب جعفر دليل على رجاحة عقله وبلاغة بيانه وقوة حجته رضي الله عنه، وما ذلك إلا من تأييد الله له وتسديده إياه، حتى يتم نوره وينصر دينه ولو كره الكافرون.





فَصْل

مقاطعة قريش لبَني هاشمٍ وبَني المُطَّلِب

قال المصنف: «ثم أسلَمَ حمزةُ عمُّ رسُولِ الله ﷺ، وجماعةٌ كثيرونَ، وفشَا الإسلامُ. فلما رأتْ قريشٌ ذلك ساءَها، وأجمعوا على أن يتعاقَدُوا على بنى هاشمٍ وبني المطَّلِب ابنَي عبد مناف: ألا يُبايعوهم، ولا يُناكحوهم، ولا يُكلموهم، ولا يُجالسوهم، حتى يُسلِموا إليهم رسُولَ الله ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفةً، وعلّقوها في سقفِ الكعبة.

فانحاز إلى بنو هاشم وبنو المطَّلِب، مؤمنُهم وكافرُهم إلا أبا لهبٍ ـ لعنه الله وولده ـ في شعب أبي طالبٍ، محصورين مضيّقاً عليهم جداً نحواً من ثلاثِ سنين.

ثم سَعَى في نقْض تلكَ الصحيفةِ أقوامٌ من قريشٍ، فكان القائمُ في أمرِ ذلك: هشام بن عمرو بن ربيعة، مشى في ذلك إلى مُطْعِم بن عَديّ وجماعةٍ من قريشٍ، فأجَابُوه إلى ذلك، وأخبرَ رسُولُ الله ﷺ قومَه أن الله قد أرسلَ على تلك الصحيفة الأَرَضَة[1]، فأكلتْ جميعَ ما فيها إلا ذكرَ الله ﷻ، فكان كذلك.

ثم رجع بنو هاشمٍ وبنو المطَّلِب إلى مكة، وحصل الصُلْحُ برغمٍ من أبي جهلٍ؛ عمرو بن هشامٍ. واتصلَ الخبرُ بالذين هُمْ بالحَبَشة: أن قريشاً أسلموا، فقدِمَ مكة

---

(١) الأَرَضَة: دويبة تأكل الخشب.

منهم جماعةٌ، فوجـدوا البلاءَ والشدَّة كما كانا، فاستمروا بمكة إلى أن هاجَروا إلى المدينةِ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ مقاطعة قريش لبني هاشم وبني المطلب أوردتها عامة كتب السيرة، وقد وردت إشارات مختصرة لها في صحيح البخاري كما ذكر الحافظ ابن حجر[1].

٢ ـ وكان ابتـداء هذه المقاطعـة في السنة السابعـة من البعثـة كمـا ذكر ابن حجر[2].

٣ ـ وأما عن أسباب المقاطعة، فيمكن إجمالها في التالي:

أولاً: ما رأتـه قريش من فشو الإسـلام في القبائل، وإسـلام بعض الكبار كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب.

ثانياً: فشـل قريش في إقناع بني هـاشم وبني المطلب في التخلي عن حمايـة النبي ﷺ والوقوف معه.

ثالثاً: فشل قريش في إعادة من هاجر من المسلمين إلى أرض الحبشة.

فأجمعت قريش على منابـذة بني هاشـم وبني المطلب مسلمهم وكافرهـم، كورقة ضغط عليهم حتى يُسلّموا إليهم النبي ﷺ ويتخلوا عن مؤازرته[3].

٤ ـ وقـد أصاب بني هاشم وبني المطلب من جـراء الحصار ضيق شديـد

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٩٣، وانظر: صحيح البخاري «١٥٩٠».

(٢) فتح الباري ٧/ ١٩٢.

(٣) السيرة النبوية لأبي شهبة ١/ ٣٥٩.

ومجاعة عظيمة، فلم يكن يأتيهم طعام إلا خفيــة من بعض المتعاطفين، حتى إنهم أكلوا جلود البهائم وأوراق الشجر.

ولعل مما يصور ذلك ما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: «لقد جعتُ حتى إني وطئت ذات ليلة على شــيء رطْب فوضعتــه في فمي فبلعته، ومــا أدري ما هو إلى الآن»[١].

٥ ـ وقد ذكر كتاب السيــرة أن أبا طالب كان من شدّة خوفه على النبي ﷺ في تلك الأيام يأمر بعض بنيه أن ينام في فراش النبي ﷺ خشية أن يقتله أحد[٢].

٦ ـ وقد استمر هذا الحصار ثلاث سنوات[٣] حتى قام بعض ذوي المروءة والشــرف من قريش ممن كانوا كارهين لهذا الحصار منذ البدايــة، فأجمعوا أمرهم على نقض الصحيفة، وسعوا في ذلك حتى تم مرادهم.

وبذلك أُنهي الحصار وبطل مــا في الصحيفة دون أن تحقق قريش شيئاً من أهدافها المرجوة.

٧ ـ وفي مؤازرة مشركي بني هاشم وبني المطلب للنبي ﷺ ووقوفهم معــه في سنوات الحصار دليل على أن المجتمعات غيــر المسلمة لا تخلوا من أهل الشيم والمروءات الذين يمكن للمسلم الاحتماء بهم والإفادة منهم أيام الشدائد والمحن.

٨ ـ ولم ينس النبي ﷺ معــروف الــذين وقفوا معــه في هــذه الضائقة، ففي

---

(١) الروض الأنف ٣/ ٣٥٤.

(٢) سيرة ابن إسحاق ص١٦٠.

(٣) بهذا جزم موسى بن عقبة، بينمــا قال ابن إسحاق: سنتين أو ثلاث، انظر: فتح الباري ٧/ ١٩٢.

غزوة بدر نهي ﷺ عن قتل أبي البختري ابن هشام وكان مشركاً لما له من مواقف مشرفة في السعي لنقض صحيفة قريش[1].

٩ ـ كذلك عندما قسم النبي ﷺ غنائم خيبر أعطى بني المطلب من الخمس مع بني هاشم، ولم يعط أبناء عمّهم من بني نوفل وبني عبد شمس، وعندما قيل له في ذلك، قال: «إنّا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام»[2].

١٠ ـ ورجوع جماعة من المؤمنين من بلاد الحبشة لما بلغهم إسلام قريش وتبيّنهم بطلان ذلك أورده ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[3].

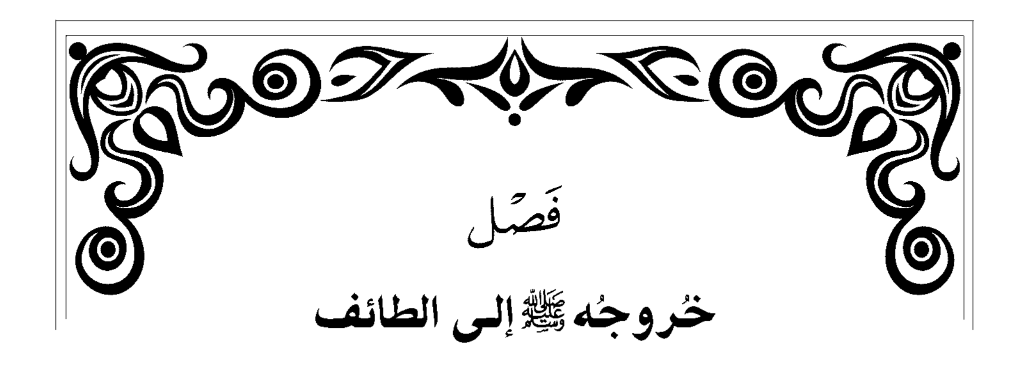
❑ ❑ ❑

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٦٢٩.

(٢) رواه أبو داود في سننه «٢٩٨٠»، بإسناد حسن، وهو في صحيح البخاري «٣١٤٠» بلفظ: «إنما بنو المطلب، وبنو هاشم شيء واحد».

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٤.



فَصْل

خروجه ﷺ إلى الطائف

قال المصنف: «فلما نُقضتِ الصحيفةُ وافق موتَ خديجة رضي الله عنها وموتَ أبي طالبٍ، وكان بينهما ثلاثةُ أيامٍ، فاشتدَّ البلاءُ على رسُولِ الله ﷺ من سُفهاء قومِه، وأقدَموا عليه. فخرجَ رسُولُ الله ﷺ إلى الطائفِ لكي يُؤوه ويَنصُروه على قومه، ويمنعُوه منهم، ودعاهم إلى الله عز وجل، فلم يُجيبوهُ إلى شيءٍ من الذي طلبَ، وآذَوْه أذىً عظيماً، لم ينلْ قومُه منه أكثرَ مما نالوا منه، فرجع عنهم، ودخل مكة في جوار المُطْعِم بن عَديّ بن نَوْفَل بن عبد مَنَاف».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ جزم المصنف هنا بالمدة التي كانت بين وفاة خديجة وأبي طالب مع أنه مجرّد قول قاله بعض أهل العلم، لا يوجد ما يثبته أو يؤكده.

وهناك من قال: إن خديجة توفيت قبل أبي طالب بخمسة وثلاثين يوماً[(١)].

وأما شيخ المغازي ابن إسحاق فلم يحدد شيئاً بالأيام، واكتفى بقوله: «توفيت خديجة وأبا طالب في عام واحد»[(٢)].

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ٦١٤.

(٢) سيرة ابن إسحاق ص٢٤٣.

لأجل هذا كان الأولى بالمصنف عدم الجزم بعدد الأيام بينهما، والله أعلم.

وفي صحيح البخاري عن عروة بن الزبير، قال: «توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين»[1]. أي في العام العاشر من البعثة.

٢ ـ وقد اشتهر عند كتاب السيرة تسمية هذا العام الذي توفيت فيه خديجة وأبو طالب بعام الحزن، وبعضهم ينسب هـذه التسمية إلى النبي ﷺ مع أنه لم يرد في ذلك حديث ثابت[2]، وإن كان عاماً حزيناً بلا شك على النبي ﷺ.

٣ ـ وأما ذهابه ﷺ إلى الطائف فقد ورد من طرق يقوي بعضها بعضاً، كما أن في البخاري بعض الإشارات له[3].

٤ ـ وسبب ذهابه ﷺ إلى هناك هو ما كان يرجوه من إيمان أهل الطائف به وإيوائهم له حتى يبلّغ رسالة ربه، بعد أن أمعنت قريش في مقاومته والصدّ عنه.

٥ ـ وقد أرخ الواقـدي خروج النبي ﷺ في تلك الرحلة في السنـة العاشرة من البعثة، وذكر أنـه كان برفقة مولاه زيـد بن حارثـة، وأنه أقام فيهم عشرة أيام يدعو أهلها للإسلام[4].

٦ ـ ولكنهم كمـا ذكر المصنف لم يستجيبوا لـه، بل سبُّوه ونالوا منه وردوا عليه رداً منكراً، وسلّطوا سفهاءهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين،

---

(١) صحيح البخاري «٣٨٩٦».

(٢) دفاع عن الحديث النبوي ص١٨.

(٣) صحيح البخاري «٣٢٣١»، السيرة النبوية الصحيحة للعُمري ١/ ١٨٦.

(٤) نقله عنه ابن سعد في طبقاته ١/ ١٦٥. وأما ابن إسحاق فلم يؤرخ تاريخ الرحلة، ولم يذكر مدة الإقامة في الطائف، وقال: «خرج إليهم وحده»، كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧.

وألجئوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة القرشيين كي يحتمي به.

وقد كان لأثرياء أهل مكة أملاكاً وبساتين في الطائف وما حولها، يقضون بها شهور الصيف القائظة.

٧ ـ فلما رأى ابنا ربيعة ما لقي النبي ﷺ من أهلِ الطائف تحركت فيهما الرحم والمروءة، وأمرا غلاماً لهما نصرانياً اسمه: عَدَّاس أن يقدم له طبقاً من عنب.

فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: «بسم الله»، فقال عَدَّاس مستغرباً: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد!!

فقال ﷺ: «ومن أيّ البلاد أنت يا عدّاس، وما دينك»؟ فقال: نصراني من أهل نينوى.

فقال ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى»؟

فقال عدَّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟

فقال ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً، وأنا نبي».

فأكب عَدَّاس على رسول الله ﷺ يُقبّل رأسه ويديه وقدميه[1]!!

٩ ـ ومما يدل على شدة ما أصابه ﷺ في الطائف ما ثبت في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أُحد،

---

(١) قصة عداس وردت من مراسيل عديدة كابن إسحاق والزهري وعروة بن الزبير وموسى ابن عقبة أرى أنها يقوي بعضها بعضاً خلافاً للدكتور أكرم العمري الذي ضعفها كما في كتابه السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٨٧. وقد عدّ عداساً في جملة الصحابة غير واحد، منهم: أبو نعيم في معرفة الصحابة ٤/ ٢٢٦٢، وابن الأثير في أسد الغابة ٣/ ٥٠١، وابن حجر في الإصابة ٤/ ٣٨٥.

قال: «لقد لقيت من قـومك ما لقيت، وكان أشدّ مـا لقيت منهم يوم العقبة»[1]، يعني عقبة الطائف.

١٠ ـ ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة حزيناً مهموماً مكلوم الفؤاد، ودخلها في جوار الـمُطعم بن عَديّ.

١١ ـ وفي هذا دليل على جواز استعانة المسلم بغير المسلم والاحتماء به عند الحاجة أو الضرورة، وقد تقدم التنبيه على هذه المسألة مراراً.

*** إسلام الطُّفيلُ بنُ عمرو:**

قال المصنف: «وجَعَلَ يـدعو إلى الله ﷻ فأسلَمَ الطُّفيلُ بنُ عمرو الدَّوْسيّ، ودعـا لـه رسُـولُ الله ﷺ أن يجعلَ الله لـهُ آيـة، فجعـلَ الله في وجهِهِ نوراً، فقـال: يا رسُـولَ الله أخشى أن يقولُوا هـذا مُثْلَةٌ فـدعا لـه، فصار النُّورُ في سَـوْطه، فهو المعروف بذي النُّور. ودعا الطُّفيلُ قومَه إلى الله فأسلَم بعضُهم، وأقامَ في بلادِه، فلما فَتَحَ الله على رسُولِهِ خيبرَ قَدِمَ بهم في نحو من ثمانينَ بيتاً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ كان الطفيل بن عمرو سيّد قومه وشاعرهم، وخلاصة قصة إسلامه: أنه قدم مرَّة مكة في بعض حاجته، فمشى إليه رجالٌ من قريش وحذروه من الاستماع إلى النبي ﷺ. قال الطفيل: فما زالوا بي حتى عزمت ألا أسمع منه شيئاً، وحشوت الكُرسف ـ القطن ـ في أُذُني. قـال: فغدوت يوماً إلى المسجد، وإذا برسول الله ﷺ قائمٌ يصلي عند الكعبة، فأبى الله إلا أن أسمع قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت:

---

(١) صحيح البخاري «٣٢٣١»، والمراد بالعقبة هنا: عقبة عند الطائف كما في دليل الفالحين لابن علان ٥/ ١٠٠.

والله إني لشاعر لبيب، فما يمنعني أن أسمع ما يقول هذا الرجل، فإن كان حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته. ثم إنه جلس إلى النبي ﷺ وسمع منه القرآن فشرح الله صدره للإسلام فأسلم[1].

٢ ـ وفي دعوة الطفيل قومه للإسلام بعد إسلامه دليل على أن أصحاب رسول الله ما كانوا يكتفون بالإسلام ثم يجلسون في بيوتهم فحسب. بل كان الواحد منهم يتحول بدوره داعية للإسلام ومبشراً به، وقد تقدم أن أبا بكر الصديق أسلم على يديه جماعة من كبار الصحابة رضوان الله عليهم.

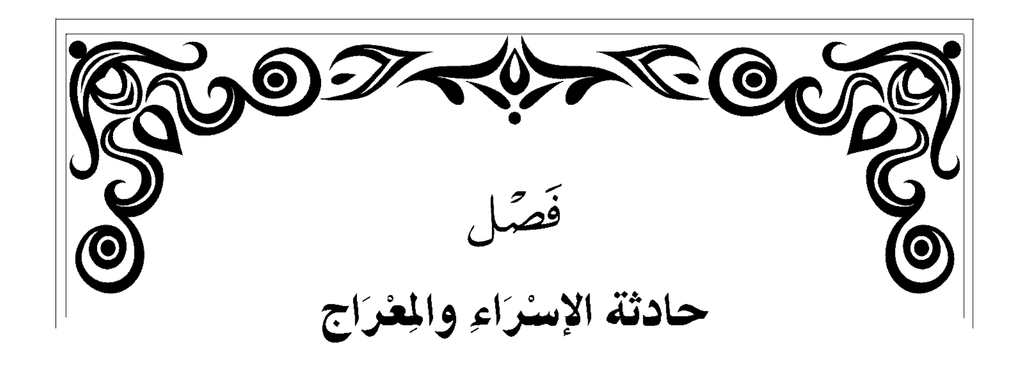
٣ ـ وما ذكره المصنف من دعاء النبي ﷺ للطفيل حتى صار في طرف سوطه نورٌ يسطع فهذا لم يرد إلينا من طريق صحيحة[2].



---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢، وهي رواية مرسلة بدون إسناد، لكن أخرج البخاري في صحيحه «٤٣٩٢» عن أبي هريرة قال: قدم الطفيل بن عمرو على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن دوساً قد عصت وأبت فادع الله عليها، فظن الناس أنه يدعو عليهم، فقال: «اللّهم اهد دوسا وأت بهم».

(٢) ضعف إسناده غير واحد كشعيب الأرناؤوط في تعليقه على سير أعلام النبلاء ١/ ٣٤٤، والدكتور العُمري في سيرته ١/ ١٤٦.



فَصْل

حادثة الإسْرَاءِ والمِعْرَاج

قـال المصنف: «وأُسـري برسُـولِ الله ﷺ بجسدِه على الصحيـح من قولـي الصحابةِ والعلمـاءِ، من المسْجـدِ الحرامِ إلى بيت المقدسِ، راكباً البُرَاقَ في صُحبةِ جبريلَ عليه السلام، فنزل ثَمّ، وأمَّ بالأنبياءِ ببيتِ المقدس فصلَّى بهم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حادثة الإسراء والمعراج من أعظم حوادث السيرة، ومن أعظم المعجزات التي أكرم الله بها نبيّه ﷺ تسلية له وتسرية عنه، بعد كل ما أصابه من عَنَت قريش وأذيّة ثقيف وموت زوجه خديجة وعمّه أبي طالب.

٢ ـ والإسراء معناه: ذهـاب رسول الله ﷺ من المسجـد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وأما المعراج: فهو الصعود برسـول الله ﷺ من بيت المقدس إلى السموات السبع ومـا فوقها، حيث رأى عجائب آيات الله، وملكوت السموات والأرض، كما قـال تعـالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[النجم: ١٧ ـ ١٨].

٣ ـ وقد اختلف في تاريخ وقوع هذه الحادثة على أقوال، والمشهور أنها كانت

قبل الهجرة بسنة كما أفاده الإمام ابن سيد الناس[1].

٤ ـ وقول المصنف: «**وأمَّ بالأنبياءِ ببيتِ المقدس فصلَّى بهم**»: في هذا إشارة إلى عموم رسالته ﷺ، وخلود إمامته، وأن دينه مهيمن على الدين كله صلوات الله وسلامه عليه.

٥ ـ وقوله: «**وأُسرى بجسده على الصحيح**»، هذا هو القول الراجح الذي تقتضيه ظواهر النصوص، وهو قول أكثر العلماء[2].

وذهب قليل من العلماء إلى أن رحلة الإسراء والمعراج كانت رؤيا منامية، وإن كانت رؤيا الأنبياء حقّ وصدق.

واستدل هؤلاء بما جاء في إحدى روايات الصحيحين، من طريق شريك ابن عبدالله بن أبي نمر، عن أنس بن مالك، قال: سمعت أنس بن مالك، يحدّثنا عن ليلة أُسري بالنبي ﷺ من مسجد الكعبة: «جاءه ثلاثة نَفَر، قبل أن يوحى إليه، وهو نائمٌ في مسجد الحرام...»[3].

وأجاب العلماء عن هذا الدليل بأجوبة:

أولاً: أن هذه الرواية محمولة على أن النبي ﷺ كان نائماً عند وصول الملائكة إليه قبل أخذه للرحلة، وليس في الحديث أن الحادثة كلها كانت مناماً[4].

---

(١) عيون الأثر ١/ ١٧٢، وهو الذي رواه موسى بن عقبة عن الزهري وعروة بن الزبير مرسلاً كما في مغازي عروة ص١٢٠.

(٢) الشفا ١/ ١٨٨، وشرح النووي على مسلم ٢/ ٢٠٩، فتح القدير للشوكاني ٣/ ٢٤٦.

(٣) صحيح البخاري «٣٥٧٠»، وصحيح مسلم «٢٦٢».

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٢١٠.

ثانياً: أن ذكر النوم في هـذه الرواية غَلَطٌ تفرَّد بـه شريك بن عبدالله بن أبي نمر وخالف تلامـذة أنس بن مالك الذين لم يذكروهـا، كما أشار إلى ذلك الإمام مسلم في صحيحه[1].

ثالثاً: أن حادثة الإسراء والمعراج لو كانت مناماً لما أنكرتها قريش، وسارعت إلى تكذيبها، والتندر بها، لأن رؤيا المنام أمر غير مستنكر.

*** العروج إلى السموات العلا:**

قال المصنف: «ثم عُرِجَ بـه تلك الليلةِ مِن هناك إلى السَّمـاءِ الدُّنيا، ثم التي تليها، ثم الثالثـة، ثم إلى التي تليها، ثم الخامسة، ثم التي تليها، ثم السابعة. ورأى الأنبياءَ في السموات على منازلهم، ثم عُرِجَ به إلى سِدْرَةِ المُنتهى، ورأى عندها جبريلَ على الصورةِ التي خلقَه الله عليها، وفَرَضَ اللهُ عليه الصلواتِ تلك الليلةِ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ أجمل المصنف الكلام عن معجزة الإسراء والمعراج لأن تفاصيلها تطول، وقد ورد الكثير منها في الصحيحين وغيرهما[2].

٢ ـ وسِدرة المنتهى: شجرة عظيمة في السماء السابعة[3]، سميت بهذا الاسم لأن عِلْم الخلائق ينتهي إليها بمن فيهم الملائكة.

ولم يجاوزها أحـدٌ إلا النبي ﷺ[4]، حيث عُرج به إلى ما بعدها حتى وصل

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٢١٠.

(٢) جامع الأصول «٨٨٦٦».

(٣) فتح الباري ١/ ١٣١.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٢١٤.

إلى مستوى يسمع فيه صَريف الأقلام[1].

٣ ـ وقوله: «**ورأى عندها جبريل على الصورة التي خُلق عليها**»: فقد ذكر العلماء أن النبي ﷺ لم ير جبريل في صورته الحقيقية إلا مرتين، مرة في رحلة المعراج عند سدرة المنتهى، والثانية: عند نزوله من غار حراء عقب فترة الوحي[2].

٤ ـ وفي الحادثة دليل على عِظَم قدر الصلوات الخمس، حيث فرضها الله على نبيّه مباشرة بغير واسطة وهو فوق السماء السابعة في أعلى مكان وصله بشر.

*** خلاف العلماء في رؤية النبي ﷺ ربه:**

قال المصنف: «واختلفَ العلماءُ: هل رأى ربَّه ﷻ أو لا؟ على قولين: فصحَّ عن ابن عباسٍ أنه قال: رأى ربَّه. وجاء في رواية عنه: رآه بفؤاده. وفي الصحيحين: «عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها أنكرت ذلك على قائله[3]. وقالتْ هي وابنُ مسعودٍ: إنما رأى جبريلَ. وروى مسلمٌ في صحيحه[4] من حديث قتادة، عن عبدالله ابن شَقيق، عن أبي ذَرّ أنه قال: «سألتُ رسُولَ الله ﷺ هل رأيتَ ربك؟ قال: نورٌ، أَنَّى أراه!؟، وفي رواية: رأيتُ نُوراً». فهذا الحديث كافٍ في هذه المسألةِ».

الكلام عليه من وجهين:

١ ـ أشار المصنف في هذا الموضع إلى خلاف العلماء في مسألة رؤية النبي ﷺ

---

(١) صحيح البخاري «٣٤٩»، صحيح مسلم «٢٦٣». وصريف الأقلام معناه: صوت جريانها بما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى ووحيه، وما يستنسخونه من اللوح المحفوظ.

(٢) تحفة الأحوذي ٩/ ١١٨.

(٣) صحيح البخاري «٣٢٤٤»، صحيح مسلم «١٧٧».

(٤) صحيح مسلم «١٧٨».

لربه ليلة الإسراء والمعراج، والقول بعدم الرؤية هو الذي رجحه كثير من العلماء كالمصنف، وابن تيميـة[1]، وابن أبي العز[2]، والشنقيطي[3]، وذلك لعـدم ورود دليل صريح في إثبات الرؤيـة، إضافة إلى حديث أبي ذر الذي ذكره المصنف فهو كالنص في المسألة.

٢ ـ وقد تطرق المصنف للمسألة مرة أخرى في آخر الكتاب، وقال: «وما رُوي من إثبات الرؤية بالبَصَر فلا يصحُّ شيءٌ من ذلك لا مرفوعاً بل ولا موقوفاً»[4].

*** إخباره ﷺ قريشاً بالحادثة وتكذيبهم له:**

قـال المصنف: «ولمَّا أصبحَ رسُولُ الله ﷺ في قومِـه أخبرهُم بما أراهُ اللهُ من آياتِه الكُبرى، فاشتدَّ تكذيبُهم له وأذاهُم واستجراؤُهم عليه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ ذكر ابن إسحـاق أن النبي ﷺ غـدا على قريش صبيحـة ليلة الإسـراء فأخبرهم الخبر، فقالوا: هـذا والله المنكر البيّن، إن العير لتطرد شهراً من مكـة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة[5]!!

٢ ـ وفي الصحيحين[6] أن قريشاً لما كـذبت النبي ﷺ سألوه عن صفة بيت

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦/ ٥٠٧.

(٢) شرح الطحاوية ص١٦٣.

(٣) أضواء البيان ٣/ ٩.

(٤) الفصول ص٢٥٥.

(٥) سيرة ابن هشام معلقاً من رواية الحسن البصري ١/ ٣٩٨.

(٦) صحيح البخاري «٤٧١٠»، صحيح مسلم «١٧٠».

المقدس، فجلّاه الله ﷻ لـه، فطفق يصفه لهم وهو ينظر إليـه. زاد أحمد في المسند: فقالوا: «أما النعتُ فوالله لقد أصاب»[(١)].

٣ ـ وفي مسند أحمد بإسناد صحيح[(٢)] أن أناساً ارتدوا كفاراً بعد أن حدثهم النبي ﷺ برحلتـه تلك!! وواضح أنهم كانوا من ضعفـاء العقل والإيمـان، وأما المؤمنون فقد آمنوا وصدقوا.

٤ ـ وقـد سعت قريش إلى أبي بكر ﷺ وقالوا لـه: «إن صاحبك يزعم أنه أسري بـه الليلة إلى بيت المقدس، فقـال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أَوَ تصدّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدّقه فيمـا هو أبعدُ من ذلك أصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي أبو بكر الصديق»[(٣)].

*** عرض رسُولِ الله ﷺ نفسه على القبائِل:**

قال المصنف: «وجعلَ رسُولُ الله ﷺ يَعْرِضُ نفسَه على القبائل أيامَ المواسم، ويقول: مَن رجلٌ يحملُني إلى قومِه فيمنعُني حتى أُبلّغَ رسالةَ ربي؛ فإن قريشاً منعوني أن أُبلّغَ رسالةَ ربي. هذا وعمُّه أبو لهب ـ لعنه الله ـ وراءه يقولُ للناسِ: لا تسمعوا منه فإنه كذّابٌ. فكان أحياءُ العَرَبِ يتحامَوْنه لما يسمعون من قريشٍ فيه: إنه كاذبٌ،

---

(١) مسند أحمد «٢٨١٩»، وصحح إسناده أحمد شاكر وشعيب الأرناؤوط.

(٢) صححه العلامـة أحمد شاكر في تحقيقه للمسنـد «٣٥٤٦». ولم تـذكر الرواية أسماءهم ولا عددهم.

(٣) مستـدرك الحاكم ٣/ ٦٥، وقـال: «صحيح الإسناد»، وصححه الألباني في الصحيحة «٣٠٦».

إنه ساحرٌ، إنــه كاهنٌ، إنه شاعرٌ، أكاذيبُ يقذفونَه بها من تلقاءِ أنفسِهِم، فيُصغي إليهـم مَنْ لا تمييز له من الأحياءِ. وأما الألبَّاءُ[1] إذا سمعوا كلامه وتفهموه شهدوا بأن ما يقولُه حقٌّ وأنهم مفترونَ عليهِ، فيُسْلِمون».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل في المواسم ودعوتهم إلى الإسلام مخرج في أبي داود بإسناد على شرط البخاري كما قال الحافظ الذهبي[٢].

٢ ـ وقول عمّـه أبي لهب: «**لا تسمعوا منـه فإنه كذاب**»، أخرجـه أحمد في المسند بسنـد صحيح، ولفظ روايته عن ربيعة بن عباد الديلي، أنه قال: «رأيت أبا لهب بعكاظ، وهو يتبع رسول الله ﷺ وهو يقول: يا أيها الناس، إن هذا قد غوى، فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم، ورسولُ الله ﷺ يفرّ منه، وهو على أثره، ونحن نتبعه، ونحن غلمان، كأني أنظر إليه أحـول ذو غديرتين أبيض الناس وأجملهم»، وقـال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح[٣].

٣ ـ وقد مكث النبي ﷺ بمكـة عشر سنين وهـو يعرض نفسه على القبائل في المواسم ويتبع منازلهم ويقول: «من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلّغ رسالة ربي وله الجنة»[٤].

٤ ـ وفي عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل أيام المواسم، دليل على أن الداعية

---

(١) العقلاء.

(٢) سنن أبي داود (٤٧٣٤)، تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ٦٤٤.

(٣) مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط «١٦٠٢٠».

(٤) مسند أحمد «١٤٤٥٦»، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

إلى الله يجب عليه استغلال كل مناسبة يجتمع فيها الناس لدعوتهم إلى الله تعالى.

٥ ـ وأنـه لا ينبغي أن يقصر الـداعي دعوتـه على مجالسه ودروسه الخاصة فحسب، بل يَحْسُنُ بـه الذهاب إلى مجالس الناس وأنـديتهم وأماكن تجمعاتهم إن أمكنه ذلك.

❒ ❒ ❒



فَصْل

بدء إِسلام الأنْصار

قال المصنف: «وكان مما صَنَعَ الله لأنصاره من الأوسِ والخزرجِ أنهم كانوا يسمعُون من حُلفائهم من يهودِ المدينةِ أن نَبِيّاً مبعوثٌ في هذا الزمن، ويتوعَّدُونَهم به إذا حارَبُوهم، ويقولون: إنا سنقتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإِرم، وكان الأنصارُ يحجُّون البيتَ، كما كانت العربُ تحجَّه، وأما اليهود فلا. فلما رأى الأنصارُ رسُولَ الله ﷺ يدعو الناسَ إلى الله تعالى، ورأوا أماراتِ الصّدْقِ عليه قالوا: والله هذا الذي توعَّدكم يهودُ به فلا يسبِقُنَّكم إليه».

الكلام عليه من وجهين:

١ ـ ما أورده المصنف من سبب مسارعة الأنصار في دخول الإسلام وأنهم كانوا يجاورون يهود بالمدينة ويسمعون منهم أن نبياً قد أظل زمان خروجه ...إلى آخره هذا ذكره ابن إسحاق في السيرة بإسناد حسن من طريق عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه[1].

---

(١) سيرة ابن إسحاق ص٨٤، وحسَّن إسناده الدكتور أكرم العُمري في السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٢٢، والعلي في صحيح السيرة النبوية ص١٠٥، وصححه الصوياني في الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص١٠٦.

٢ ـ ويضاف إلى هـذا سببان آخران ساعـدا في إسـراع دخـول الأنصار في الإسلام؛ أولهما: أن الأنصار كانوا وقتها يعانون فتنناً كبيرة وحروباً حادة بين الأوس والخزرج، وقد مات بسببها كثيرٌ من أشرافهم وأعيانهم، فكانوا يأملون أن تنتهي هذه الحروب بدخولهم في الإسلام.

يشهد لـذلك قول الأنصار يومها للنبي ﷺ: «إنا قـد تركنا قـومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك»[١].

والسبب الثاني: ما طبع عليه الأوس والخزرج من رقة الطبع ولين الجانب والبعد عن المغالاة في الكبرياء.

فقد كانت أصولهم ترجـع إلى اليمن الذين وصف النبي ﷺ أهلها بقولـه: «أتاكم أهل اليمن، أرق أفئدة وألين قلوباً»[٢].

*** حديث سُويد بن الصَّامت وإسلامُ إياس بن معاذ:**

قال المصنف: «وكان سُويدُ بن الصَّامت أخو بني عَمرو بن عوف بن الأوس قد قَدِمَ مكة، فدعاه رسُولُ الله ﷺ فلم يُبْعد ولم يُجب، ثم انصرفَ إلى المدينةِ، فقُتل في بعض حُروبهم. ثم قَـدِمَ مكة أبو الحَيْسر أنسُ بن رافع في فتيةٍ من قومه من بني عبـد الأشهل، يطلبون الحِلْف، فدعـاهم رسُولُ الله ﷺ إلى الإسـلامِ، فقال إياس ابنُ مُعاذ منهم ـ وكان شـاباً حَدَثاً ـ: يا قومُ، هذا والله خيرٌ مما جئتنا له، فضربه أبو الحَـيْسر وانتهره، فسكـتَ، ثم لم يَتِمّ لهم الحِلْف، فانصرفوا إلى بلادهم إلى المدينةِ،

---

(١) المصدر السابق بالإسناد نفسه.

(٢) صحيح البخاري «٤٣٨٨»، صحيح مسلم «٥٢».

فيقال: إن إياسَ بن معاذٍ مات مسلماً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ تحدث المصنف هنا عن بدايات اتصال أهل المدينة «يثرب» بدعوة النبي ﷺ. وكان من أوائل من لقي النبي ﷺ منهم: سُويد بن الصَّامت الأوسي، كان من أشراف أهل يثرب، فتصدّى له النبي ﷺ حين سمع بمقدمه مكة، ودعاه إلى الإسلام، فاستحسن سُويد كلامه وانصرف إلى المدينة يفكر في الأمر، فلم يلبث أن قتلته الخزرج في بعض حروبهم، فكان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قد قُتِل وهو مُسلم[1].

٢ ـ ولأجل عدم وضوح أمر سُويد فقد اختلف في إسلامه، فأثبته بعضهم وشكّ فيه آخرون[2].

٣ ـ وأما إياس بن معاذ فهو أيضاً من أوائل الأنصار الذين التقوا بالنبي ﷺ ودعاهم للإسلام، وقد جزم غير واحد بإسلامه، وترجموا له في الصحابة، منهم ابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر[3].

٤ ـ وقد أخرج أحمد في المسند بإسناد حسن[4]: «أن قوم إياس بن معاذ عند موته كانوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكُّون

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٢، قال الدكتور العُمري في سيرته ١/ ١٩٥: «إسناده حسن من رواية عاصم بن عمر بن قتادة، ثقة يرويه عن أشياخ من قومه الأنصار».

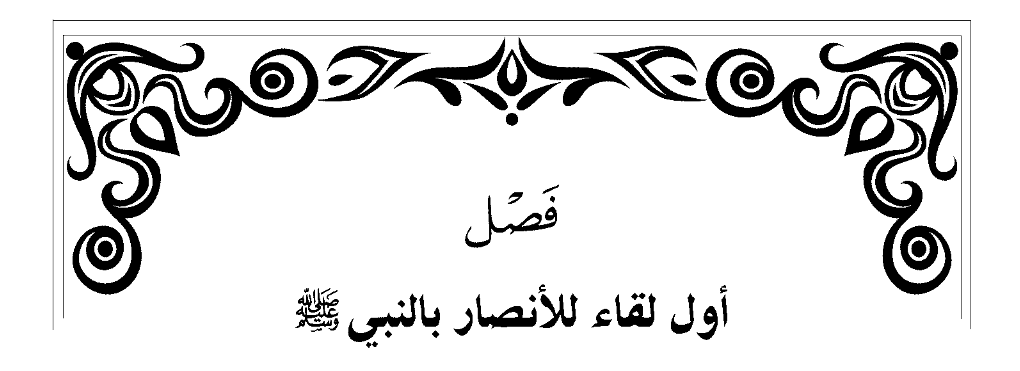
(٢) ينظر الإصابة لابن حجر ٣/ ٢٤٧.

(٣) الاستيعاب ١/ ١٢٦، أسد الغابة ١/ ٣٤١، الإصابة ١/ ٣١٣.

(٤) مسند أحمد «٢٣٦١٩»، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط.

أن قد مات مسلماً». وهذا ظاهر في إسلامه، فقول المصنف: «فيقال إن إياس مات مسلماً» فيه نظر، لأنها صيغة تشعر بالشك في إسلامه!!

❐ ❐ ❐



فَصْل

أول لقاء للأنصار بالنبي ﷺ

قال المصنف: «ثم إنَّ رسُـولَ الله ﷺ لقي عنـد العقبةِ[1] في الموسم ستةَ نفرٍ من الأنصار، كلُّهم من الخـزرجِ، فدعاهم إلى الإسلامِ، فأسلَموا مبادرةً إلى الخير، ثم رجعوا إلى المدينـةِ فدعَوا إلى الإسلام، ففشا الإسلامُ فيها، حتى لم تبـق دارٌ إلا وقد دخلها الإسلامُ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حاصل ما ذكره المصنف: أن الله ﷻ عندما أراد إظهار دينه وإعزاز نبيه خرج رسول الله ﷺ في موسم حـج العام الحادي عشر من البعثـة كما كان يصنعُ كل عام، فبينا هو عنـد جمرة العقبة لقي رهطاً من الخزرج من أهل يثرب أراد الله بهم خيـراً. فقـال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفرٌ من الخـزرج. قـال: أمِنْ مـوالي يهود؟ قالوا: نعم. قـال: أفلا تجلسون أكلّمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه فعرض عليهم الإسلام فأسلموا[2].

---

(١) عقبة منى حيث ترمى جمرة العقبة.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٤ بإسناد حسنه الدكتور أكرم العُمري في سيرته ١/ ١٩٦، والعلي في صحيح السيرة ص١٠٥.

٢ ـ وقد قدمنا قبل قليل الأسباب التي دعت الأنصار إلى المسارعة في دخول الإسلام.

٣ ـ ويستفاد من هـذه الحادثة أن الداعي إلى الله لا ينبغي أن ييأس أو يحبط من صَدّ الناس وإعراضهم عنه، فقد ظلَّ رسول الله ﷺ عشر سنوات يعرض نفسَه على القبائل فلا يجد منهم قبولاً، حتى لقي بعدها أولئك النفر من الخزرج اللذين آمنوا به وصدَّقوه، وترتب على إيمانهم به تحولات عظيمة وكبيرة في مسيرة الدعوة.

*** بيعةُ العَقَبة الأولى:**

قال المصنف: «فلما كان العامُ المقبل، جاء منهم اثنا عَشَر رجلاً فبايعُوا رسُولَ الله ﷺ كبيعةِ النساء، ولم يكن أُمِرَ بالقتال بعدُ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ تسمى هذه البيعة: بيعة العقبة الأولى، وقد حضرها اثنا عشر رجلاً من الأنصار؛ عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، بعضهم ممن لقي النبي في الموسم السابق وآمن به، وكانت في السنة (١٢) من البعثة[(١)].

٢ ـ وإنما قيل لها كبيعة النساء لخلوها عن الجهاد والنصرة، إذ لم يكن النبي ﷺ أُمر وقتها بالقتال.

٣ ـ وقد روى نص هذه البيعة عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه وكان أحد شهودها، فقال: إن النبي ﷺ قال لهم: «تعالوا، بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم

---

(١) السيرة الحلبية ٣/ ٥٢١.

وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارةٌ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه. قال: فبايعنا على ذلك».

هذه رواية الصحيحين[1]، وهي وإن لم تصرح بذكر العقبة الأولى، لكن رواية ابن إسحاق أوضحت ذلك بجلاء[2].

*** بعث مصعب بن عمير معلماً إلى المدينة:**

قال المصنف: «فلمّا انصرفُوا إلى المدينةِ بعثَ معهم رسُولُ الله ﷺ عمرو بنَ أم مكتوم ومصعب بنَ عمير يعلّمان من أسلَمَ منهم القرآنَ، ويدعوان إلى الله ﷻ، فنزلا على أبي أُمامة؛ أسعدِ بنِ زُرارة. وكان مُصْعب بنُ عُمير يؤمُّهم، وقد جمّع بهم يوماً بأربعين نفساً، فأسلَمَ على يديهما بشرٌ كثيرٌ منهم: أُسَيْد بنُ الحُضير وسعدُ ابن مُعاذ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قدوم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم المدينة يعلمان الناس القرآن ثابت في البخاري من حديث البراء بن عازب[3].

٢ ـ وكان أهل المدينة يسمون مصعب بن عمير عندما قدم عليهم «المقرئ»، وقد أسلم على يديه كثيرٌ من الأنصار[4].

---

(١) صحيح البخاري «٣٨٩٢»، صحيح مسلم «١٧٠٩».

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٤٣٣.

(٣) صحيح البخاري «٣٩٢٥».

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٤٣٤.

٣ ـ وقصة صلاة مصعب بن عمير الجُمُعة بالأنصار مخرجة عند أبي داود[١] وابن ماجه[٢] بإسناد حسن، وهي تدل على أن صلاة الجمعة كانت قد شرعت بمكة قبل الهجرة، لكن النبي ﷺ لم يتمكن من أدائها إلا بعد مقدمه المدينة[٣].

٤ ـ وأما أبو أُمامة أسعد بن زرارة فهو: أنصاري خزرجي نجاري، كان من أوائل من أسلم، وقد مات في السنة الأولى من الهجرة أثناء بناء المسجد النبوي[٤].

*** بيعة العَقَبة الثانية:**

قال المصنف: «وكثُر الإسلامُ بالمدينةِ وظَهَرَ، ثم رجعَ مصعبٌ إلى مكة، ووافى الموسمَ ذلك العام خلقٌ كثيرٌ من الأنصارِ من المسلمين والمشركين، وزعيمُ القوم البراءُ بنُ مَعرورٍ ﷺ. فلما كانت ليلة العقبة ـ الثلثُ الأولُ منها ـ تسلَّلَ إلى رسُولِ الله ﷺ ثلاثةٌ وسبعونَ رجلاً وامرأتان، فبايعوا رسُولَ الله ﷺ خُفْية من قومهم، ومن كفارِ مكة، على أن يمنعُوه مما يمنعُون منه نساءَهم وأبناءَهم وأُزُرَهم، وكان أولَ من بايعه ليلتئذٍ البراءُ بنُ مَعرور، وكانت له اليدُ البيضاء، إذ أكّد العَقْدَ وبادرَ إليه.

وحضرَ العبَّاسُ عمُّ رسُولِ الله ﷺ موثّقاً مؤكداً للبيعةِ، مع أنه كان بعدُ

(١) سنن أبي داود «١٠٦٩».

(٢) سنن ابن ماجه «١٠٨٢».

(٣) فتح الباري ٢/ ٣٥٥.

(٤) أسد الغابة ١/ ٢٠٥.

على دينِ قومِـه. واختار رسُولُ الله ﷺ منهم تلك الليلة اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، ومن الأوس ثلاثة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ تسمَّى هـذه البيعة: بيعة العقبة الثانيـة، وخلاصتها: أنه في موسم حجّ السنة (١٣) من البعثـة، وبعد انتشار الإسلام بالمدينة، تلاوم الأنصار فيما بينهم، وقـالوا: «حتى متى نتـرك رسـول الله ﷺ يُطرد في جبال مكـة»! فقـدم منهم إلى موسـم الحج (٧٣) رجـلاً وامرأتان، متخفين مـع قومهم مـن المشركين، فالتقوا بالنبي ﷺ سـراً عنـد جمرة العقبـة الأولى، في أوسـط أيام التشـريق، فبايعـوه على الهجرة إليهم، وعلى الولاء والنصرة لـه، وعلى أن يحموه ممـا يحمون منـه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم[1].

٢ ـ وقد ذكر المصنف أن العبَّاس بن عبد المطلب كان ممن حضر البيعة من أجل أن يستوثق لابن أخيه، وكان يريد أيضاً أن يوضح للأنصار خطورة قرارهم هذا وعِظَم المسئولية التي سيتحملونها بسببه.

٣ ـ وكان من جملة ما قاله العبَّاس ليلتها: «يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب يسمون الأنصار الخزرج، لخزرجها وأوسها ـ: إن محمدا منّا حيثُ قد علمتم، قد منعناه مـن قومنا، فهو في عزّ في بلده، وإنـه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحـاق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له فأنتم وما تحملتم، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد أن يخرج إليكم فمن الآن فـدعوه. فقالوا: قـد سمعنا يا رسول الله

---

(١) ينظر تفاصيل هذه البيعة في سيرة ابن هشام ١/ ٤٣٨.

فخذ لنفسك ولربك ما أحببت»[1].

٤ ـ وفي الحادثـة دليل على فضل أولئك النفر مـن الأنصار الـذين أسلموا وبايعوا النبي ﷺ في العقبة الأولى والثانية وما ترتب على بيعتهم من انتشار الإسلام في المدينة وتمهيد هجرة النبي ﷺ إليها بعد ذلك.

*** الإذن بالهجرة إلى المدينة:**

قال المصنف: «فلما تمَّت هـذه البيعةُ استأذنوا رسُـولَ الله ﷺ أن يَمِيلوا على أَهلِ العقبةِ فلم يأذَن لهم في ذلك، بل أَذِن للمسلمين بعدها من أهلِ مكة في الهجرةِ إلى المدينةِ، فبادرَ الناسُ إلى ذلك، فكـان أولَ من خرجَ إلى المدينةِ من أهلِ مكة أبو سَلَمَة بنُ عبد الأسد، هو وامراتُه أمّ سَلَمَة، فاحتُبست من دونه، ومُنعت سنةً من اللّحاقِ بهِ، وحِيل بينها وبين ولدِها، ثم خرجتْ بعد السنةِ بولدِها إلى المدينةِ، وشيَّعها عثمانُ بنُ أبي طلحـة، ويقال إن أبا سَلَمَة هاجرَ قبل العقبةِ الأخيرةِ، فالله أعلم، ثم خرجَ الناسُ أرسالاً[2] يتبعُ بعضُهم بعضاً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ إنما لم يأذن النبي للأنصار بالقتال وقتها لأنه لم يكن قد شُرِع بعد، لأن الجهاد إنما شُرِع بعد الهجرة على القول الصحيح[3].

---

(١) أخرج خبر بيعـة العقبة الثانيـة أحمد في المسنـد «١٥٧٩٨» بلفظ مطول مـن طريق ابن إسحاق، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط، وأورده الهيثمي في المجمع ٦/ ٤٥، وقال: «رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع».

(٢) أفواجاً وجماعات متقطعة.

(٣) السيرة النبوية لأبي شهبة ١/ ٤٥٥، السيرة النبوية لمهدي رزق الله ص٢٣٦.

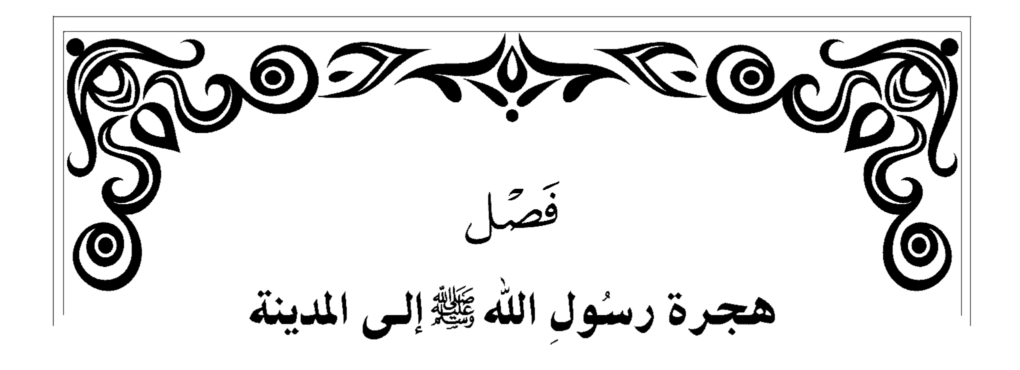
٢ ـ وبناء على ما تم الاتفاق عليه في هذه البيعة فقد أخذ المسلمون بالهجرة إلى المدينـة، فـارين بدينهم، خاصة وقـد أصبحت لهم دارٌ يأمنـون بها، وإخـوان ينصرونهم.

٣ ـ وقوله: «**ويقال إن أبا سَلَمَة هاجر قبل العقبة الأخيرة**»: قلت: هذا هو المشهور؛ أنه هاجر بعد بيعة العقبة الأولى(١).

٤ ـ وفي بيعـة الأنصار رسولَ الله ﷺ سـراً عند العقبة دليل على مشروعية أخذ الحيطة والحذر عند تدبير الأمور.

❐ ❐ ❐

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٠، أسد الغابة ٣/ ٢٩٥.



فَصْل

هجرة رسُولِ الله ﷺ إلى المدينة

قال المصنف: «ولم يبقَ بمكة مِن المسلمينَ إلا رسُولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ وعليٌّ رضي الله تعالى عنهما أقاما بأمره لهما، وإلَّا مَن اعتقله المشركون كُرهاً، وقد أعدَّ أبو بكرٍ رضي الله عنه جَهَازَه وجَهَازَ رسُولِ الله ﷺ، منتظراً متى يأذن الله عز وجل لرسُولِه ﷺ في الخروج».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ لم يهاجر رسول الله ﷺ ابتداء لأنه كان ينتظر الإذن بذلك من الله عز وجل. وأما علي بن أبي طالب فقد أمره النبي بالتخلف بعده كي يردّ الودائع التي كانت عنده للناس[1]. وأما أبو بكر فقد أزمع الهجرة لكن رسول الله ﷺ استبقاه كي يكون رفيقاً له، وقال له: «على رِسْلِكَ يا أبا بكر فإني أرجو أن يؤذن لي»[2].

٢ ـ وفي إيداع المشركين ودائعهم عند النبي ﷺ دليل على ما كان يتمتع به ﷺ من ثقة وصدق وأمانة عند قريش حيث كانوا يتركون أموالهم وودائعهم عنده،

---

(١) سنن البيهقي ٦/ ٢٨٩، من طريق ابن إسحاق، وصحح إسناده الصوياني في الصحيح من أحاديث السيرة ص١٤١.

(٢) صحيح البخاري «٣٩٠٥».

وفي المقابل يكذبونه ويرمونه بالسحر والخداع، وهذا تناقض عجيب.

٣ ـ وفي اختيار النبي ﷺ لأبي بكـر دون غيره كي يكون رفيق هجرته دليل على مدى حبّ النبي ﷺ له وقربه منه وثقته فيه.

*** الاختباء بغار ثور:**

قال المصنف: «فلمَّا كانت ليلةُ هَمَّ المشركونَ بالفتكِ برسُولِ الله ﷺ، وأَرصَدُوا على البابِ أقواماً، إذا خَرَجَ عليهم قتلُوه، فلمَّا خَرَجَ عليهم لم يرهُ منهم أحدٌ.

وقد جاء في حديث أنه «ذَرَّ على رأسِ كلّ واحدٍ منهم تراباً». ثم خَلُص إلى بيت أبي بكر ﷺ، فخرجا من خَوْخَةٍ[١] في دار أبي بكرٍ ليلاً، وقد استأجرا عبدَالله ابن أُرَيْقط، وكـان هـادياً خِرّيتاً[٢]، ماهراً بالدَّلَالـة إلى أرضِ المدينـة، وأمِنَاه على ذلك مع أنـه كان على دينِ قومـه، وسلّما إليـه راحلتيهما، وواعداه غارَ ثَوْرٍ[٣] بعد ثلاثٍ. فلمَّا حصلا في الغار عَمَّى الله على قريشٍ خبرَهما، فلم يدروا أين ذهبا.

وكان عامرُ بنُ فُهيرة يُريح[٤] عليهمـا غنماً لأبي بكرٍ، وكانت أسماءُ أبنةُ أبي بكرٍ تحمل لهما الزادَ إلى الغار، وكان عبـدالله بنُ أبي بكر يتسمَّـعُ ما يُقال بمكة ثم يذهبُ إليهما بذلك فيحتَرِزَان منه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حـاصل مـا ذكـره المصنف أن قـريشاً كانت قـد همّت بقتـل النبي ﷺ

---

(١) الخوخة: باب صغير في ظهر البيت.

(٢) الخرِّيت: الماهر العارف بالطريق.

(٣) غار ثور: يقع في جبل ثور، وهو جبل جنوب مكة، عال يرى من جميع نواحيها المرتفعة.

(٤) يرجع بها ليلاً.

والخلاص منه قبل أن يخرج إلى أنصاره في المدينة، فجاءه جبريل وأعلمه بما دبّرت قريش، وأمره أن يغادر مكة وقال له: «لا تبت هذه الليلة على فراشك»[1].

٢ ـ وقد أُرّخ خروجه ﷺ من مكة بليلة (٢٧) من شهر صفر، سنة: (١٣) من البعثة، حيث توجه هو وأبو بكر إلى غار ثور، وبقيا فيه ثلاث ليالٍ قبل أن يتوجها بعدها إلى المدينة[2].

٣ ـ وقوله: «**وقد جاء في حديث أنه «ذَرَّ على رأس كلّ واحد منهم تراباً»**»: قلت: أخرجه ابن إسحاق بإسناد حسن بالشواهد[3].

وهي معجزة باهرة للنبي ﷺ حيث لم يشعروا به حين وضع التراب على رؤوسهم ومرّ من أمامهم.

٤ ـ وقوله: «**وقد استأجرا عبدَالله بن أُرَيْقط وكان هادياً خِريتاً...**»: هذا مخرج في الصحيح[4]، لكن دون التصريح باسمه، وإنما رجل من بني الدّيل، وقد سماه ابن إسحاق في السيرة[5].

وفيه دليل على جواز استعانة المسلم بغير المسلم عند الحاجة أو الضرورة، وقد تقدمت المسألة بشواهدها مراراً.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٢، وحسنه الصوياني في الصحيح من أحاديث السيرة ص١٤١.

(٢) فتح الباري ٧/ ٢٤٤.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٩١، وقد حسنه بمجموع طرقه وشواهده: العلي في صحيح السيرة النبوية ص١٢١.

(٤) صحيح البخاري «٢٢٦٣».

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٥.

٥ ـ كما يؤخذ من هجرة النبي وأبي بكر سراً، واختبائهما في الغار مشروعية الأخذ بالأسباب من الحيطة والحذر، وأن هذا لا يتنافى مع كمال التوكل على الله ﷻ.

*** خوف أبي بكر على النبي ﷺ:**

قال المصنف: «وجاء المشركونَ في طلبِهما إلى ثَوْرٍ، وما هناك من الأماكنِ، حتى إنهم مرُّوا على بابِ الغارِ، وحاذَت أقدامُهُم رسُولَ الله ﷺ وصاحِبَه، وعمَّى الله عليهم بابَ الغار. ويقال ـ والله أعلم ـ إنَّ العنكبوتَ سدَّت على باب الغارِ، وإن حمامتين عشَّشَتا على بابهِ، وذلك تأويلُ قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٤٠]، وذلك أنَّ أبا بكرٍ رضي الله تعالى عنه لشدَّةِ حِرْصِه بكى حين مرَّ المشركونَ، وقال: يا رسُولَ الله لو أن أحدَهم نظرَ موضعَ قدميه لرآنا. فقال له النبي ﷺ: يا أبا بكرٍ، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قوله: **«وجاء المشركونَ في طلبِهما إلى ثور»**: بيَّنت رواية المسند أن قريشاً إنما استطاعت الوصول إلى فم الغار عن طريق الاستعانة بالقافة الذين كانوا يقصُّون آثار الأقدام(١)، ووصولهم إلى الغار واختبائهما فيه ثلاث أيام

---

(١) مسند أحمد «٣٢٥١»، وسأذكر درجته بعد قليل عند ذكر حادثة نسج العنكبوت.

مخرج في الصحيحين[1].

٢ ـ وقولـه: «**ويقـال إنَّ العنكبـوتَ سـدَّت باب الغار**»: قصـة العنكبوت مخرجة عند أحمد[2] بإسناد حسنه ابن كثير[3] وابن حجر[4].

٣ ـ أما قصة الحمامتين والشجـرة التي نبتت في فم الغار فبرغـم اشتهارهما في كتب السيـرة إلا أن أسانيـدها لا ترتقي إلى درجـة الصحـة، وقد ضعفها غير واحد، كابن كثير[5]، والعُمري[6]، والله أعلم.

٤ ـ وقد استـدل بعض أهل الباطل بحـزن أبي بكر حين اقترب المشركون من الغار على ضعفـه وجزعه وخوفه!! وهذا استدلال باطلٌ لأن حزن أبي بكر لم يكن لأجل نفسه، وإنما كان لأجل سلامة النبي ﷺ أن يصيبه سوء أو مكروه، وهذا أمر ظاهر.

٥ ـ وفي قوله ﷺ لأبي بكر «**لا تحزن إن الله معنا**»: دليل على أن المؤمن يجب عليه التوكل على الله، والثقة بنصره وعونه وتأييده.

*** بَدْء المسيرِ إلى المدينة:**

قـال المصنف: «ولمَّا كان بعـد الثلاثِ أتى ابن أُريقط بالراحلتين فركباهما،

---

(١) صحيح البخاري «٢٢٦٤، ٣٩٢٢»، صحيح مسلم «٢٣٨١».

(٢) مسند أحمد «٣٢٥١».

(٣) حيث قال في البدايـة والنهاية ٤/ ٤٥١: «هذا إسناد حسنٌ، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار».

(٤) فتح الباري ٧/ ٢٣٦.

(٥) البداية والنهاية ٤/ ٤٥٤، حيث قال: «هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه».

(٦) السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٠٨.

وأردفَ أبو بكرٍ عامرَ بن فُهيرة، وسارَ الدَّيلي أمامَهما على راحِلتِه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حاصل ما ذكره المصنف أن النبي ﷺ وأبا بكر ظلّا مختبئين في غار ثور ثلاثـة أيام ريثما يخفّ البحث عنهما. وبعدها جاءهمـا عبدالله بن أريقط، فانطلقوا إلى المدينـة وفي صحبتهم عامرُ بنُ فُهيرة، مولى أبي بكر، كما دل على ذلك روايات الصحيحين المتقدمة ـ.

٢ ـ وكان ابن أريقط مشركاً على دينه قومه كما في رواية الصحيحين المتقدمة، وقد جزم غير واحد من العلماء بأنه لا يُعرف له إسلاماً بعد ذلك إلا الحافظ الذهبي فقد ذكره في جملة الصحابة[1].

٣ ـ وقـد وردت رواية ضعيفة بتحديد انطلاق الركب صوب المدينة بيوم الاثنين، لأربع خلون من شهر ربيع، سنة: ١هـ[2].

*** خَبَرَ سُراقة بن مالِك:**

قال المصنف: «وجَعَلَتْ قريشٌ لمن جاء بواحدٍ من محمد ﷺ وأبي بكرٍ ﷺ مائةً من الإبل، فلمَّا مرُّوا بحي مُدلِـج، بَصُر بهم سُراقة بن مالِك بن جُعشُم، سيّد مُدْلِـج، فركبَ جواده وسارَ في طلبهم، فلمَّا قرُب منهم سمع قراءةَ النبيّ ﷺ، وأبو بكرٍ ﷺ يُكثر الالتفات حَـذَراً على رسُولِ الله ﷺ، وهـو ﷺ لا يلتفتُ. فقال أبو

---

(١) قال السهيلي: «لم نجد من طريق صحيح أنه أسلم بعد ذلك»، وكذا جزم غير واحد بأنه لم يعرف له إسلاماً، انظر: الروض الأنف ٤/ ١٤٥، الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٥.

(٢) ضعفها الدكتور أكرم العُمري في السيرة النبوية الصحيحة له ١/ ٢١١.

بكرٍ: يا رسُولَ الله! هذا سُراقة بن مالِك قد رهقنا[1]. فدعا عليه رسُولُ الله ﷺ فساخَت[2] يدا فرسِه في الأرضِ، فقال: رميتُ، إنَّ الذي أصابني بدعائِكما، فادعُوا الله لي، ولكما عليَّ أن أردَّ الناسَ عنكما، فدعا له رسُولُ الله ﷺ فأُطلِق، وسأل رسُولَ الله ﷺ أن يكتب له كتاباً، فكتب له أبو بكرٍ في أديمٍ، ورجع يقول للناسِ: قد كُفيتم ما ههُنا.

وقد جاء مسْلِماً عامَ حجة الوداع ودفعَ إلى رسُولِ الله ﷺ الكتابَ الذي كتبه له، فوفَّى له رسُول الله ﷺ بما وعدَه وهو لذلك أهلٌ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حادثة سراقة بن مالِك مخرجة في الصحيحين بنحو ما ذكره المصنف، وفي رواية البخاري أن سراقة كرر محاولة الوصول للنبي ﷺ مرتين، وفي كل مرة كانت تسقط فرسه وتسيخ يداها في الأرض[3].

٢ ـ وفي الحادثة معجزه باهرة للنبي ﷺ، ومظهر من مظاهر حفظ الله ورعايته له أثناء هجرته، ونظيره تعمية عيون قريش عنه عندما خرج من بيته، وعندما اختبأ في غار ثور.

٣ ـ ومما اشتهر في كتب السيرة أن النبي ﷺ قال يومها لسراقة: «كيف بك يا سراقة إذا لبستَ سواري كسرى؟»، فلما فُتحت بلاد فارس وأُتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسواريّ كسرى وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما، وقال له:

---

(١) رهقنا: أدركنا واقترب منا.

(٢) ساخت: غاصت ودخلت.

(٣) صحيح البخاري «٣٩٠٦»، صحيح مسلم «٢٠٠٩».

«قل الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن مالك أعرابي من بني مُدلج»[1].

٤ ـ وقد اتفق الصحابة في خلافة عمر بن الخطاب على جعل تاريخ هجرته ﷺ هو مبدأ التاريخ الإسلامي بعد تشاور وتداول، وأوضح العلامة السهيلي سبب اختيارهم لهذا التاريخ، فقال: «لأنه الوقت الذي عزَّ فيه الإسلام، والذي أُمِّر فيه النبي ﷺ، وأَسَّسَ المساجد، وعبدَالله آمنا كما يجب»[2].

وحتى لا يختلف مبدأ تاريخ الهجرة مع مبدأ السنة الهلالية قدَّم الصحابة ميعاد الهجرة شهرين وأياماً، وجعلوا بدء الهجرة من محرَّم تلك السَّنَة.

*** خَبَرَ شَاةِ أُمِّ مَعْبَدٍ:**

قال المصنف: «ومرّ رسُولُ الله ﷺ في مسيرهِ ذلك بخيمةِ أمّ مَعْبَدٍ فقال عندها[3]، ورأتْ من آياتِ نبوَّتهِ في الشاةِ وحلْبها لبناً كثيراً في سَنَةٍ مُجدبةٍ ما بَهَرَ العقولَ ﷺ».

الكلام عليه من وجهين:

١ ـ هذه معجزة باهرة أخرى أكرم الله بها نبيّه ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة، وخلاصتها: أن النبي ﷺ والركب الذي معه مروا في طريق هجرتهم جهة قُديد بخيمة أمرأة يقاله لها: أم معبد، واسمها: عاتكة بنت خالد الخزاعية، وكانت امرأة

---

(١) أخرج هذه الحادثة البيهقي في الدلائل ٦/ ٣٢٥ بإسناد رجاله ثقات، من طريق الحسن البصري، عن عمر بن الخطاب به، لكن رواية الحسن عن عمر منقطعة.

(٢) الروض الأنف ٤/ ٢٥٥.

(٣) أخذ وقتاً للقيلولة.

تسقي وتطعم من يمرّ بها من المسافـرين، فسألها النبي ﷺ إن كان عنـدها لبن أو لحـم يشترونـه، فقـالـت: والله لو كـان عنـدنا شيء مـا أعـوزكم القِرَى[1]، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة هزيلة في جانب الخيمة، فسألها: «هل بهذه الشاة من لبن»؟ فقالت: هي أجهد من ذلك. فقال: «أتأذنين لي في حلبها؟»، فقالت: نعم، إن رأيت بها حَلْباً فَاحْلُبْهَا، فدعا بالشاة فمسح ضرعها وظهرها وسمّى، فدرّت لبنا غزيراً، فحلب للقـوم في إناء وسقاهـم مرة بعـد مرة حتى ارتووا جميعاً، ثم حلب ثالثـة وقال: «ارفعي هذا لأبي معبد»، ثم ركبوا وانصرفوا.

٢ ـ وهذه الحادثة ذكرتها عامة كتب السيرة، وقد صححها الإمام الحاكم في المستـدرك ودافع عنها[2]، وقال ابن كثير: «قصتها مشهورة مروية من طرق يشدّ بعضها بعضا»[3]، وكذا حسنها بمجموع طرقها وشواهدها الصوياني[4]، والعلي[5].

٣ ـ وقـد أكرم الله أمّ معبـد وزوجها فأسلمـا بعـد ذلك، وترجـم لهما غير واحد في الصحابة[6].



(١) أي ما منعنا عنكم إكرام الضيف.

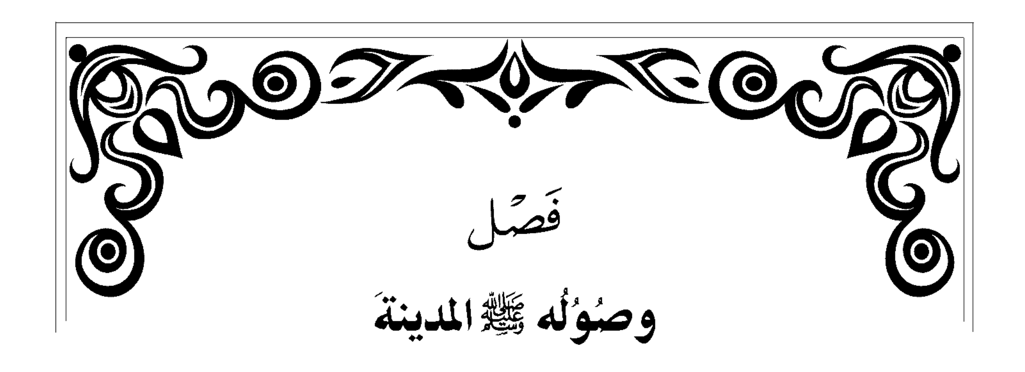
(٢) مستدرك الحاكم ٣/ ٩.

(٣) البداية والنهاية ٤/ ٤٧٢.

(٤) الصحيح من أحاديث السيرة ص١٥٣.

(٥) صحيح السيرة للعلي ص١٢٩.

(٦) أسد الغابة ٧/ ١٨٠، الإصابة في تمييز الصحابة ٨/ ٤٧٧.



فَصْل

وصُولُه ﷺ المدينةَ

قال المصنف: «وقد كان بَلَغَ الأنصارَ مخرجه من مكة وقصدُه إِيَّاهم، فكانوا كـلَّ يومٍ يخرجُون إلى الحَرَّة ينتظرُونـه، فلَمَّا كان يومُ الاثنين الثاني عشـر من ربيـع الأول على رأسِ ثلاث عشرة سنـة من نبوّته ﷺ وافاهم رسُولُ الله ﷺ حين اشتدّ الضّحاء، وكان قد خرجَ الأنصارُ يومئذٍ، فلمَّا طالَ عليهم رجعوا إلى بيوتهم.

وكان أوَّلَ من بَصُر به رجلٌ من اليهود ـ وكان على سطح أُطُمه[1] ـ فنادى بأَعلى صوتـه: يا بني قَيْلَة[2] هـذا جَـدُّكم[3] الـذي تنتظرون! فخرجَ الأنصارُ في سلاحهم، فتلقوه وحَيّوْه بتحية النبوّة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ اختلفت الرواية في تاريخ قدوم النبي ﷺ إلى قباء بالمدينة، فقيل إنه كان في اليوم الثامن من شهر ربيع الأول، وقيـل في اليوم الثاني عشر من الشهر نفسه،

---

(١) الأطم: الحصن.

(٢) بنو قيلة: هـم الأوس والخزرج، وقيلة هي: جـدتهم الكـبرى، كمـا في شـرح المواهب ٢/ ١٤٩.

(٣) حظكم وصاحب دولتكم.

وذكر الخلاف ابن حجر ولم يرجح في المسألة، لكنه اعتمد أن القدوم كان يوم الاثنين[1].

٢ ـ وما أشار له المصنف من خروج الأنصار كل يوم إلى حرَّة المدينة ينتظرون قدومه ﷺ ورؤية اليهودي له ...إلى آخره، هذه رواية مخرجة في البخاري[2].

٣ ـ وقد اشتهر في كتب السيرة أن جواري بني النجار خرجن يومها ينشدن: طلع البدر علينا... من ثنيَّات الوداع... الأبيات المعروفة، وهذه الحادثة لم تصل إلينا من طريق ثابتة[3].

وقد رجح جمع من العلماء كابن القيم[4]، وابن حجر[5]: أن هذا النشيد قيل للنبي ﷺ مرجعه من غزوة تبوك، لأن ثنيَّة الوداع من جهة الشام لا من جهة مكة.

٤ ـ وقد ازدحم الأنصار رجالاً ونساء وصبياناً لرؤية رسول الله ﷺ، وفرحوا بمقدمه فرحاً عظيماً، حتى قال البراء بن عازب رضي الله عنه: «جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء، فرحهم به»[6].

٥ ـ وفي الحادثة صورة من صور شدة محبة الأنصار للنبي ﷺ، وقد بوّب

---

(١) ينظر فتح الباري ٧/ ٢٤٤.

(٢) صحيح البخاري «٣٩٠٦».

(٣) أعلّ إسناد الرواية الحافظان العراقي وابن حجر بالإعضال، كما في المغني للعراقي ص٧٤٩، والفتح لابن حجر ٧/ ٢٦٢.

(٤) زاد المعاد ٣/ ٤٨٢.

(٥) فتح الباري ٧/ ٢٦٢.

(٦) صحيح البخاري «٤٩٤١».

العلماء في كتبهم أبواباً كثيرة في مناقب الأنصار وفضائلهم رضي الله عنهم.

*** في منزل قباء:**

قال المصنف: «ونَزَلَ رسُولُ الله ﷺ بقُباء على كُلثوم بن الهِدْم، وقيل: بل على سعد بن خَيْثَمة، وجاء المسلمونَ يسلِّمون على رسُولِ الله ﷺ، وأكثرُهم لم يره بعدُ، فكان بعضُهم أو أكثرُهم يظنّه أبا بكرٍ؛ لكثرة شيبه، فلمّا اشتدَّ الحرُّ قام أبو بكرٍ بثوب يظلِّل على رسُولِ الله ﷺ فتحقّق الناسُ حينئذٍ رسُولَ الله عليه الصلاة والسلام».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قوله: «**ونزل رسول الله بقباء على كلثوم بن الهدم، وقيل: بل على سعد ابن خيثمة**»: قلت: هكذا أورده ابن إسحاق على الشكّ، وجَمَعَ بينهما بأنه ﷺ كان يبيت ليلاً عند كلثوم بن الهِدم، ويجلس نهاراً عند سعد بن خيثمة، لأنه كان عزباً[١].

٢ ـ وقد كان كلثوم بن الهِدم شيخاً كبيراً عندما نزل النبي ﷺ عنده.

ويقال: إنه أول من مات من الصحابة بعد الهجرة، ولم يدرك شيئاً من المشاهد[٢].

٣ ـ ودار كلثوم بن الهدم كانت في قبلة مسجد قباء، ملاصقة لها، وبقربها دار سعد بن خيثمة، كما أفاده السمهودي[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٩٣، فتح الباري ٧/ ٢٦٠.

(٢) أسد الغابة ٤/ ٤٦٧.

(٣) وفاء الوفا ٣/ ٢٦ ـ ٧١.

٤ ـ وما ذكره المصنف من تسليم الأنصار على رسول الله ﷺ عند مقدمه، وتظليل أبي بكر له بثوبه فقد أخرج مضمونه البخاري في الصحيح[١].

٥ ـ وقد اختلف في مقدار مكثه ﷺ بقباء قبل أن يتوجه إلى المدينة، فالذي في البخاري عن أنس بن مالك: أربعة عشر يوماً[٢]، والمشهور عند أصحاب المغازي: أربعة أيام[٣]، قال ابن حجر: «وقول أنس أولى بالقبول»[٤].

❐ ❐ ❐

(١) صحيح البخاري «٣٩٠٦».

(٢) صحيح البخاري «٤٢٨، ٣٩٣٢».

(٣) عيون الأثر ١/ ٢٢٢.

(٤) فتح الباري ٧/ ٢٤٤.



فَصْل
تأسيسُ مسجدِ قُباء

قال المصنف: «فأقامَ رسُـولُ الله ﷺ بقُباء أياماً، وقيل: أربعـة عشـر يوماً، وأسَّسَ حينئذٍ مسجـدَ قُباء، ثم ركبَ بأَمرِ الله تعـالى فأدركتـهُ الجُمُعة في بني سالمِ ابن عَوف فصلَّاها في المسجدِ الذي في بطن وادي رانونا[1]. ورغبَ إليه أهلُ تلك الدارِ أن ينزل عليهم، فقال: «دعوها فإِنها مأْمورة»، فلم تزل ناقتهُ سائرة به، لا يمرُّ بدارٍ من دُور الأنصار إلا رغِبوا إليه في النُّزول عليهم، فيقول: «دعوها فإِنها مأْمورة». فلمّا جاءت موضعَ مسجدِه اليومَ بركت، ولم ينزل عنها ﷺ حتى نهضتْ وسارتْ قليلاً، ثم التفتتْ ورجعتْ فبركتْ في موضعها الأول، فنزلَ عنها ﷺ، وذلك في دار بني النَّجار، فحَمَل أبو أيوب ؓ رَحْلَ رسُولِ الله ﷺ إلى منزله».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قـدمنا في الفصل السابق أن إقامـة النبي ﷺ بقباء كانت على الأرجـح (١٤) يوماً.

٢ ـ ثم إن المشهور أن النبي ﷺ هو الذي أسس مسجد قباء وصلَّى فيه حين

---

(١) وادي رانوناء: واد صغير بين قباء وبين مسجده ﷺ.

قدم إلى المدينة[١].

لكن ورد في بعض الروايات أن الصحابة كانوا قد بنوه قبل هجرته، فلما قَدِمَ صلَّي بهم فيه[٢].

وظاهر رواية أنس في الصحيح يردّ هذا، ولفظها: «فلبثَ رسولُ الله ﷺ في بني عَمْرِو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأَسَّسَ المسجد الذي أُسِّس على التَّقْوى، وصلَّى فيه»[٣].

٣ ـ وقوله: «**فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن وادي رانونا**»: حاصله: أن النبي ﷺ بعد إقامته في قباء توجه إلى المدينة فأدركته صلاة الجمعة وهو في بطن وادي رانونا فصلاها بأصحابه هناك. ثم اتخذ موضع مصلاه بعد ذلك مسجداً، وسمّي مسجد الجمعة[٤].

٤ ـ وقوله: «**دعوها فإنها مأمورة**»: هذه الرواية ذكرها ابن إسحاق[٥] وغيره، وحسنها بعض العلماء بمجموع طرقها[٦].

٥ ـ وما ذكره المصنف من بروك الناقة عند موضع المسجد ثم سيرها قليلاً ثم التفاتها ورجوعها إلى موضعها الأول فهذه رواية ابن إسحاق في السيرة[٧].

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٤٥.

(٢) شرح الزرقاني على المواهب ٢/ ١٥٤.

(٣) صحيح البخاري «٣٩٠٦».

(٤) بهجة المحافل ١/ ١٥٤.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٤٩٤.

(٦) منهم الدكتور أكرم العُمري في سيرته ١/ ٢١٩.

(٧) سيرة ابن هشام ١/ ٤٩٥.

وأما رواية البخاري فاكتفت بقوله: «ثم ركب راحلته، فسار حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة... فقال: هذا إن شاء الله المنزل»[1].

٦ ـ وما أشار إليه المصنف من نزوله ﷺ عند أبي أيوب مخرج في الصحيحين[2].

٧ ـ وكانت مدة إقامته ﷺ عند أبي أيوب سبعة أشهر حتى بنيت له حجراته[3].

*** بناءُ المسجدِ النَّبويّ:**

قال المصنف: «واشترى رسُولُ الله ﷺ موضعَ المسجد، وكان مِرْبَداً[4] ليتيمين، وبناه مسجداً، فهو مسجده الآن، وبُني لآل رسُولِ الله ﷺ حُجَراً إلى جانبه. وأما عليٌّ ﷺ فأقامَ بمكة ريثما أدَّى عن رسُولِ الله ﷺ الودائعَ التي كانت عنده وغيرَ ذلك، ثم لَحِقَ برسُولِ الله ﷺ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قوله: «**واشترى رسول الله موضع المسجد**»: هذا ثابت في الصحيحين عن أنس بن مالك، ولفظه: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أمر ببناء المسجد، وقال: «يا بني النَّجار ثامنوني بِحائطكم هذا» قالُوا: لا الله لا نطلب ثمنه إلا إلى

(١) صحيح البخاري «٣٩٠٦».

(٢) صحيح البخاري «٣٩١١»، وصحيح مسلم «٢٠٥٣».

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ١٨٣.

(٤) محلاً لتجفيف التمر.

الله، فأبى رسولُ الله أن يقْبله منهما هِبةً حتى ابتاعه منهما»[1].

٢ ـ وقد كان في أرض المسجد عند شرائها قبور قديمة للمشركين وخِرَب ونخل، فأمر ﷺ بالقبور فنبشت، وبالخِرَب فهدمت، وبالنخل فقطع، وجعل في قِبلة المسجد[2].

٣ ـ وقد اشترك ﷺ مع أصحابه في بناء المسجد بيده الشريفة، وكان ينقل معهم الحجارة، وكانوا ينشدون أثناء البناء وهم في سعادة وسرور:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

٤ ـ وفي هذه المشاركة صورة من صور تواضعه الجم ﷺ ومساواة نفسه بأصحابه في تحمّل المسؤوليات عندما يحمل معهم الحجارة ويشاركهم العمل بيده، ولا يكتفي بالتوجيه العام أو المشاركة الرمزية كما يفعل الزعماء عادة.

٥ ـ وفي بدء النبي ﷺ ببناء المسجد بمجرد وصوله إلى المدينة دليل على أهمية دور المسجد في الإسلام ومكانته العظيمة، فالمسجد هو بيت الله، ودار العبادة، ومعهد العلم، وفيه يلتقي المسلمون كل يوم خمس مرات فيتعارفوا ويتآلفوا، وهو محور كل مجتمع إسلامي وعلامته الفارقة.

❐ ❐ ❐

---

(١) صحيح البخاري واللفظ له «٢٧٧٤، ٣٩٠٦»، صحيح مسلم «٥٢٤».

(٢) صحيح البخاري «٤٢٨»، صحيح مسلم «٥٢٤».



فَصْل

وثيقة المعاهدَة مع اليهود

قال المصنف: «وَوَادَعَ رسُـولُ الله ﷺ مَنْ بالمدينةِ مِن اليهودِ، وكتَبَ بذلك كتاباً، وأسلَمَ حَبْرُهم؛ عبدُالله بنُ سلَامَ ﷺ، وكفَر عامتُهُم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقاع، وبنو النَّضِير، وبنو قُرَيْظة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حاصل ما ذكره المصنف أن النبي ﷺ عندما قدم مهاجراً للمدينة قام أولاً بثلاثة أعمال رئيسة؛ **الأول:** بناء المسجد، لأنه ركيزة المجتمع المسلم وروحه وهويته، وهذا تقدم الكلام حوله.

والثاني: مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار، وهذا سوف يأتي الكلام عنه قريباً.

والثالث: أنه كتب بينه وبين اليهود معاهدة خطية، وهو ما أشار إليه المصنف في هذا الموضع.

٢ ـ وقد حرص النبي ﷺ منذ بداية قدومه إلى المدينة على إقامة علاقة سِلْمٍ بينه وبين اليهود القاطنين بالمدينة، وكتب بينه وبينهم معاهدة خطية أشبه ما تكون بالعقد الاجتماعي، أقرهم فيها على دينهم وأمَّنَهم على أنفسهم وأهليهم وأموالهم

شريطة ألا يحاربوه، ولا يعينوا عليه، وأن يتعاون الجميع في الدفاع المشترك عن المدينة.

٣ ـ وقد أورد نص هذه الوثيقة بطولها ابن إسحاق في سيرته[١]، وصححها بمجموع طرقها: العلامة الصادق العرجون[٢]، والدكتور العُمري[٣]، وحسنها الدكتور جاسم العيساوي في رسالة أفردها للحديث عنها[٤]، وأوردها ابن كثير في البداية والنهاية[٥]، ولم يتكلم في سندها أو متنها بما يشعر بضعفها.

٤ ـ وقوله: «**وأسلم حَبرهم عبدالله بن سلام**»: قلت: قصة إسلامه ثابتة في البخاري[٦].

وقد ورد في السنن عنه ﷺ أنه قال: «أول ما قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ انْجَفَل ـ أسرع ـ الناس إليه، فكنتُ فيمن جاءه، فلما تأمَّلْتُ وجهه، عرفتُ أنَّ وجهه ليس بوجه كَذَّاب»[٧].

٥ ـ وقد ذكر بعض الباحثين أن عدد من أسلم من اليهود وشرف بصحبة

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٠١.

(٢) محمد رسول الله، للعرجون ٣/ ١٧٠.

(٣) حيث قال بعد مناقشة مطولة: «إنها وثيقة أصلية غير مزوّرة»، انظر: السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٧٤.

(٤) الوثيقة النبوية للعيساوي ص٦٨.

(٥) البداية والنهاية ٣/ ٢٢٤.

(٦) صحيح البخاري «٣٩٣٨».

(٧) أخرجه الترمذي في السنن «٢٤٨٧»، وقال: حديث حسن صحيح، وصحح إسناده الألباني في الصحيحة «٥٦٩»، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند «٢٣٧٨٤».

النبي ﷺ كانوا (٣٩) رجلاً، جمعهم من الكتب المؤلفة في الصحابة[١].

٦ ـ وما ذكره المصنف عن يهود بني قريظة والنضير وقينقاع فهذه كانت أكبر وأقوى قبائل اليهود في المدينة.

وكانت تعيش إلى جوارها بطون وعشائر يهودية أصغر منها في أماكن متناثرة من المدينة[٢].

٧ ـ وقد اختلف في أصول هذه القبائل، فبعض المؤرخين يقول إنهم كانوا عرباً تهوَّدوا، لكن الأكثر على أنهم كانوا عبرانيين قدموا إلى المدينة من خارج الجزيرة العربية ثم تطبعوا مع مرور الوقت بالثقافة العربية، فأصبحوا يتكلمون العربية ويتسمون بالأسماء العربية[٣].

٨ ـ ولم تكن هذه القبائل اليهودية على وفاق فيما بينها، بل كانت يشوب علاقتهم كثيرٌ من التوتر والاضطراب بل والحروب أحياناً!!.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ**﴾[البقرة: ٨٤ ـ ٨٥].

وكذلك علاقتهم بجيرانهم من الأوس والخزرج كان يشوبها كثيرٌ من

---

(١) السيرة النبوية للندوي ص٢٠٤، نقلاً عن كتاب (الصحابة والتابعون من أهل الكتاب) لمجيب الله الندوي.

(٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص٢٤٥.

(٣) تاريخ العرب القديم ص١٨٦.

الاضطراب، وكانت قائمة على المنافع الشخصية، والمكاسب المادية، ومحاولة الاستحواذ والسيطرة المالية على اقتصاد المدينة[1].

*** مؤاخاته ﷺ بين المُهاجِرينَ والأنْصارِ:**

قال المصنف: «وآخى رسُولُ الله ﷺ بين المُهاجِرينَ والأنصارِ، فكانوا يتوارثُون بهذا الإخاءِ في ابتداءِ الإسلامِ إرثاً مقدَّماً على القرابة. وفَرَضَ الله سبحانه وتعالى إذ ذاك الزكاةَ رفقاً بفقراءِ المُهاجِرينَ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حاصل ما ذكره المصنف أن النبي ﷺ عندما قدم مهاجراً إلى المدينة كان من ضمن ما قام به من الأعمال الأولية أنه آخي بين أصحابه من المهاجرين والأنصار على الحق والمؤاساة، وهذا ثابتٌ في الصحيحين[2].

٢ ـ وكان الهدف من هذه المؤاخاة: تخفيف آلام الغربة، وتأليف قلوب الصحابة بعضهم على بعض، ومواساة بعضهم بعضاً، ومساعدة بعضهم لبعض، حتى يساعد القويُّ الضعيف، والغنيُّ الفقير[3].

٣ ـ وكان الصحابة في بداية الأمر يتوارثون بتلك المؤاخاة بعد الموت دون ذوي الرحم، كما أشار المصنف، ثم نُسخ هذا الحكم بعد غزوة بدر بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال: ٧٥][4].

---

(١) السيرة النبوية للندوي ص١٧٤.

(٢) صحيح البخاري «٢٢٩٢»، صحيح مسلم «٢٥٢٩».

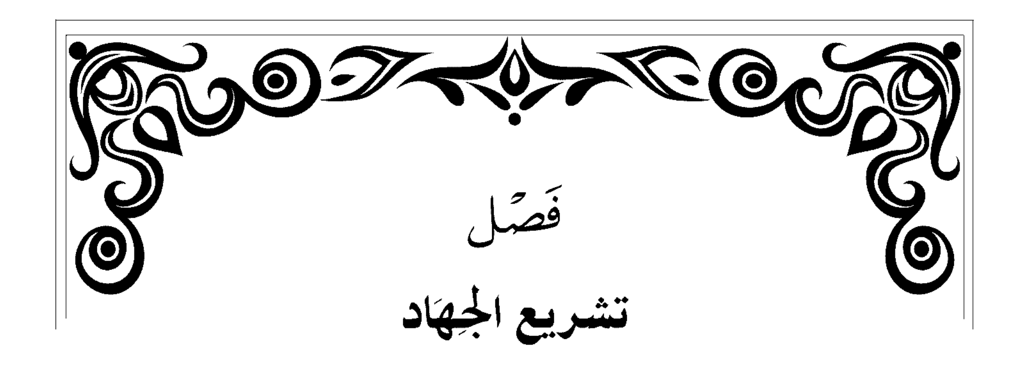
(٣) فتح الباري ٧/ ٢٧١.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٨١، فتح الباري ١٢/ ٣٠.

٤ ـ وأما فرضية الزكاة فالمشهور عند العلماء أنها فُرضت في السنة الثانية من الهجرة، وقيل: إنها فُرضت بمكة إجمالاً من غير تقييد بنصاب أو حول، ثم فُصّلت أحكامها بالمدينة[١].

❑ ❑ ❑

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ١٦٤، الدين الخالص للسبكي ٨/ ١٠٦.



فَصْل

تشريع الجِهَاد

قال المصنف: «ولَمَّا استَقرَّ رسُولُ الله ﷺ بالمدينةِ بين أَظهُر الأنصارِ، وتكفَّلوا بنصرِه ومنعهِ من الأسودِ والأحمرِ، رمتهُم العربُ قاطبةً عن قوسٍ واحدةٍ، وتعرَّضوا لهم من كلِّ جانبٍ. وكان اللهُ سبحانه قد أذن للمسلمينَ في الجهادِ في سورة الحجّ ـ وهي مكيّة ـ في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[الحج: ٣٩]، ثم لَمَّا صاروا في المدينةِ وصارتْ لهم شوكةٌ وعَضُدٌ كتب الله عليهم الجهادَ كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦]».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ ما ذكره المصنف من أن سورة الحج مكيّة هو أحد الأقوال في المسألة، لكن رجح بعض العلماء كابن القيم[1] أن آية الإذن بالقتال خاصة كانت مدنيّة، وهذا هو الصواب، لأن الجهاد لم يكن مأذوناً به في مكة، بل كان الواجب على المسلمين الصبر والصفح والكفّ.

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٣، وقد أطال في الاستدلال له.

٢ ـ ثم لما أصبح للمسلمين بعد الهجرة معقل ودولة ومنعة وشوكة أذن الله لهم بالجهاد أولاً، ثم فرضه عليهم أخيراً.

٣ ـ ثم لا بد من الإشارة إلى أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم إنما هي المسالمة والأمان على القول الراجح، كما دلّ على ذلك عشرات النصوص من القرآن والسنة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[الأنفال: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ⁽٨⁾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

وقوله تعالى في سورة النساء المدنية: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[النساء: ٩٠].

وأما القتال المسلح فإنما يلجأ إليه في حالات محدودة، وبشروط مقررة، كأن يعتدي الكفار على المسلمين، أو يقفوا عقبة في سبيل الدعوة إلى الإسلام، أو يفتنوا من أسلم من الناس، فحينئذ يجب قتالهم دفعاً للعدوان وحماية للدعوة، وفي المسألة خلاف، وهذا أرجح الأقوال والله أعلم(١).



(١) ينظر السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف ص٨٢.



فَصل

غزوة الأبْواء

قال المصنف: «وكـانتْ أولُ غَزَاةٍ غَزَاهـا رسُولُ الله ﷺ غَـزوة الأَبْواءِ[1]، وكانت في صَفَر سنة اثنتين من الهجرة، خرجَ بنفسهِ ﷺ حتى بَلَغَ وَدَّان[2]، فوادعَ بني ضَمْرة بن بكر بن عبد مَناة بن كنانة مع سيّدهم مَجدي بن عمروٍ، ثم كرَّ راجعاً إلى المدينةِ، ولم يلق حَرْباً، وكان استخلف عليها سعد بن عُبادة رضي الله عنه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ هـذا أوان بدء المصنف في الحـديث عن الغزوات والسـرايا والبعوث النبوية[3].

ولكن قبل هـذا لابـد من الإشـارة إلى أن لهذه الغزوات والسـرايا أهـدافاً ساميـة ومقاصـد شريفة، وليست مجـرد حروب توسعيـة، ومن هـذه الأهـداف والمقاصد:

---

(١) الأبواء: قرية تابعة الآن لمحافظة رابغ، شمال مكة المكرمة.

(٢) وَدّان: قرية بالقرب من مستورة، وقد اندثرت اليوم.

(٣) اصطلح أهل السّيَر غالباً على أن: الجيش الذي يخرج فيه النبي ﷺ بنفسه يسمَّى غزوة، حارب أم لم يحارب، وما خرج فيه أحد قادته يسمَّى سريّة، وما افترق من السريّة يسمَّى بعثاً، ينظر شرح المواهب للزرقاني ٣/ ٣٦٢.

أولاً: إشعار القبائل المعادية بأن المسلمين ما عادوا ضعفاء كالسابق، بل أصبحت لهم قوة ومنعة وشوكة يدفعون بها عن أنفسهم.

ثانياً: استخلاص ما استولت عليه قريش من أموال المسلمين وممتلكاتهم بمكة.

ثالثاً: تأديب بعض الأعراب والغزاة الذين كانوا يغيرون على المدينة بين الحين والآخر، كما في غزوة بدر الأولى وغزوة ذي قَرَد، أو يستعدون لذلك، كما في غزوة الـمُريسيع.

٢ ـ وأما عن هذه الغزوة المسماة بغزوة الأبواء ويقال لها وَدّان، فكان سبب خروج المسلمين فيها اعتراض قافلة تجارية لقريش، لكنها كانت قد سبقتهم وأفلتت منهم.

٣ ـ وفي هذه الغزوة صالح النبي ﷺ بني ضمْرة وعقد بينه وبينهم اتفاقية سلام، ثم كرّ راجعاً للمدينة.

٤ ـ وقد أورد تفاصيل هذه الغزوة ابن إسحاق لكن دون إسناد[(١)].

*** بَعْث حمزةَ بنِ عبد المُطّلِب وبعث عُبيدة بنِ الحارث:**

قال المصنف: «**ثم بَعَثَ عمَّه حمزة ﷺ في ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم أنصاريٌّ إلى سِيفِ البحر[(٢)]، فالتقى بأبي جهل بن هشام ورَكْبٍ معه زُهَاء ثلاثمائةٍ، فحالَ بينهم مَجْدي بن عمرو المتقدّم؛ لأنه كان موادعاً للفريقين.**

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٧، فتح الباري ٧/ ٢٧٩.

(٢) سِيف البحر: ساحل البحر وهو طريق قريش إلى الشام.

وبَعَثَ عُبيدةَ بنَ الحارث بن المطلب في ربيع الآخر في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين أيضاً إلى ماءٍ بالحجاز بأسفل ثنية المَـرَة، فلَقُوا جمعاً عظيماً من قريشٍ عليهم: عكرمـة بنُ أبي جهلٍ، وقيل: بل كـان عليهم مِكْرَز بن حفص، فلم يكن بينهم قتالٌ، إلا أن سعـد بن أبي وقاص رَشَـقَ المشركيـن يومئذٍ بسهمٍ، فكان أولَ سهمٍ رُمي بـه في سبيل الله. وفرّ يومئـذ من الكفار إلى المسلميـن المقدادُ بنُ عمرو الكندي، وعُتبةُ بنُ غَزْوان رضي الله عنهما. فكان هذان البعثان أولَ رايةٍ عقدها رسُولُ الله ﷺ، ولكن اختُلف في أيها كان أول، وقيل: إنهما كانا في السنةِ الأولى من الهجرة. وهو قول ابن جَرير الطبري[1]، والله تعالى أعلم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ كان الهدف من هـذه البعوث كما قدمنا: تهديـد قوافل قريش التجارية لإفهامها بضـرورة تغييـر مـوقفها المتعنت تجـاه المسلميـن، واستخـلاص بعض ما استولت عليه من أموال المسلمين بمكة بعد أن طردتهم منها.

٢ ـ وقد أورد تفاصيل هذين البعثين ابن إسحاق وغيره لكن دون إسناد[2].

٣ ـ وفي بعث عُبيدة: فضيلة لسعـد بن أبي وقاص رضي الله عنه حيث إنـه أول من رمى بسهم في سبيل الله.

❒ ❒ ❒

---

(١) حيث ذكر ذلك في أحداث السنة الأولى من الهجرة، انظر: تاريخ الطبري ٢/ ٤٠٤.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٥٩٥.



فَصّل

غزوة بُوَاط[١] والعُشَيْرة[٢] وبَدْر الأُولى

قال المصنف: «ثم غزا رسُولُ الله ﷺ غزوة بُوَاط، فخرجَ بنفسه ﷺ في ربيع الآخر من السنة الثانية، واستعملَ على المدينةِ السَّائبَ بن عثمان بن مظعون، فسار حتى بلغ بُواطَ من ناحية رَضْوَى، ثم رجعَ ولم يلقَ حرباً.

ثم كانت بعدها غـزوة العُشَيْرة، ويقـال بالسّين المهملة، ويقـال العُشَيْراء. خرجَ بنفسه ﷺ في أثناء جُمَاد الأُولى حتى بلغَها، وهي مكانٌ ببطن ينبع، وأقام هناك بقية الشهر وليالِيَ من جُمَادى الآخرة، وصالَـحَ بني مُدْلِج، ثم رجع ولم يلق كيداً، وقد كان استخلف على المدينـة أبا سَلَمَة بنَ عبـد الأسد. وفي صحيـح مسلم من حديث أبي إسحـاق السبيعي، قال: قلتُ لزيـد بن أَرقم: كم غزا رسُولُ الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة غزوة، أولها العُشيرة أو العُشيراء.

ثم خرجَ بعدها بنحو من عشرة أيام إلى بَدْرٍ الأُولى، وذلك أن كُرْزَ بن جابر الفِهْري، أغار على سَرْحِ المدينة[٣]، فطلبه، فبلغَ وادياً يقال له سَفَوان في ناحية بَدْرٍ،

---

(١) بُواط: واد غرب المدينة، على قرابة «٥٥» كيلاً.

(٢) العشيرة: مكان ناحية ينبع، بينه وبين المدينة «١٨٥» كيلاً.

(٣) السرح: الإبل والغنم.

ففاته كُرْز فرجع، وقد كان استخلف على المدينة زيد بن حارثة رضي الله عنه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ أورد ابن إسحاق تفاصيل غزوتي بُواط والعُشيرة بدون إسناد[١]، لكن البخاري بوب في الصحيح، وقال: «باب غزوة العُشيرة أو العُسيرة» ثم نقل عن ابن إسحاق قوله: «أول ما غزا النبي ﷺ: الأبْواء، ثم بُوَاط، ثم العُشَيْرة»[٢].

٢ ـ وحديث زيد بن أرقم في أول غزوات النبي ﷺ عزاه المصنف لمسلم[٣]، وهو مخرج أيضاً في البخاري بنحوه[٤].

٣ ـ وقد تقدم توجيه المصنف لحديث زيد في أول الغزوات، وأن مقصوده: ما حضره زيدٌ بنفسه مع النبي ﷺ لا أنها أول الغزوات مطلقاً.

وكذلك ما ذكره زيد بن أرقم من عدد الغزوات فقد خولف فيه، حيث أثبت جمهور العلماء للنبي ﷺ (٢٧) غزوة[٥]، ويحتمل أن زيداً تكلم بحسب علمه وخفيت عليه بعض الغزوات[٦]، على أن الحافظ ابن حجر دافع عما قاله زيد بن أرقم، وأوضح أن سبب الاختلاف يرجع إلى طريقة عدّ الغزوات، فبعض العلماء يجعل مثلاً غزوة الأحزاب وبني قريظة واحدة لقربهما من بعض، وبعضهم يجعلهما اثنتين،

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٩٨.

(٢) صحيح البخاري، قبيل «٣٩٤٩».

(٣) صحيح مسلم «١٢٥٤».

(٤) صحيح البخاري «٣٩٤٩».

(٥) شرح المواهب للزرقاني ٢/ ٢٢٠.

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٣١.

وبعضهم يجعل غزوة حنين والطائف واحدة، وبعضهم يجعلهما اثنتين... وهكذا[1].

٤ ـ وغزوة بدر الأولى ذكرها ابن إسحاق والواقدي وابن سعد جميعاً بدون إسناد[2].

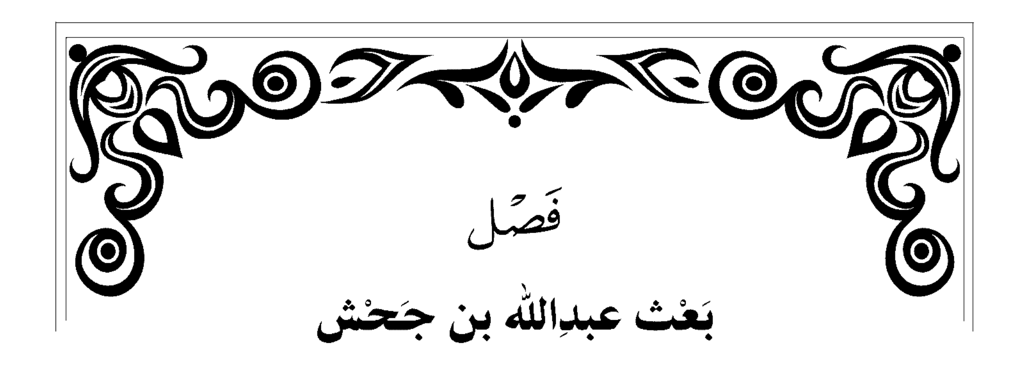
٥ ـ وقد أسلم كُرز فيما بعد كما ذكر الحافظ ابن حجر[3].

❐ ❐ ❐

(١) فتح الباري ٧/ ٢٨١.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٦٠١، والمغازي للواقدي ١/ ١٢، طبقات ابن سعد ٢/ ٦.

(٣) فتح الباري ٨/ ١٠.



فَصلٌ

بَعْث عبدِالله بن جَحْش

قـال المصنف: «ثم بَعَثَ رسُـولُ الله ﷺ عبدَالله جَحْش بن رِئاب الأسديّ وثمانية من المهاجِرينَ، وكَتَبَ له كتاباً، وأَمَرَه ألا ينظُر فيه حتى يسيرَ يومينِ، ثم ينظُر فيه، ولا يُكره أحداً من أصحابه، فَفعلَ.

ولما فتح الكتاب وجد فيه: «إذا نظرتَ في كتابي هذا فامضِ حتى تنزِلَ نَخْلَة ـ بين مكة والطائف ـ وترصُـد بها قريشاً، وتَعْلَمَ لنا من أخبارهـم»، فقال: سمعاً وطاعةً، وأخبَرَ أصحابَه بذلك، وبأنَّه لَا يستكرهُهُم، فمن أحبَّ الشهادة فلينهض، ومن كرِه الموتَ فليرجعْ، وأما أنا فناهضٌ، فنهضوا كلُّهم.

فلما كان في أثناء الطريق أضلّ سعـدُ بنُ أبي وقّاص وعتبةُ بنُ غزوانَ بعيراً لهما كانا يعتقبانِهِ فتخلَّفا في طلبهِ، وتقدَّم عبدُالله بن جَحْشٍ حتى نزل بنَخلَة، فمرَّت به عيرٌ لقريشٍ تحملُ زبيباً وأَدَماً وتجـارة، فيها عمرُو بن الحضرميّ وعثمانُ ونوفلُ ابنا عبدالله بن المُغيرة، والحَكَمُ بنُ كيْسان مولى بني المُغيرة.

فتشاورَ المسلمون وقـالوا: نحنُ في آخـرِ يومٍ من رجبٍ الشهر الحرام، فإن قاتلناهُـم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهُـم الليلة دخلُوا الحرم، ثم اتفقوا على مُلاقاتهم، فرمى أحدُهم عمرَو بن الحضرميّ فقتلَه، وأسروا عثمانَ والحَكَمَ، وأفلتَ

نوفلٌ. ثم قدمُوا بالعير والأسيرين قد عزلوا من ذلك الخمس. فكانت أولُ غنيمةٍ في الإسلام، وأولُ خُـمُسٍ في الإسلام، وأولُ قتيلٍ في الإسلام، وأولُ أسيرٍ في الإسلام.

إلَّا أن رسُـولَ الله ﷺ أنكرَ عليهم مـا فعلوه، وقـد كانوا ﭫ مجتهدين فيما صَنَعوا.

واشتدَّ تعنُّتُ قريشٍ وإنكارُهم ذلك، وقالوا: محمدٌ قد أحلَّ الشهرَ الحرامَ، فأنزلَ الله ﻷ في ذلك ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾[البقرة: ٢١٧]، يقول سبحانـه: هذا الـذي وَقَعَ وإن كان خطأً، لأن القتالَ في الشهرِ الحـرامِ كبيرٌ عنـد الله، إلَّا أن مـا أنتُم عليه أيها المشركـونَ من الصَّـدّ عن سبيلِ الله والكفرِ به وبالمسجدِ الحرام، وإخراجِ محمدٍ وأصحابِه الذين هم أهلُ المسجدِ الحرامِ في الحقيقةِ أكبرُ عند الله من القتالِ في الشهرِ الحرامِ.

ثم إن رسُولَ الله ﷺ قَبِلَ الخُـمُسَ من تلك الغنيمة، وأخذ الفِدَاءَ من ذينك الأسِيرينِ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ سرية عبـدالله بن جحش أوردهـا ابن إسحاق في السيرة(١)، وقال ابن حجر: «حديث مرسل، أخرجه ابن إسحاق في المغازي، وإسناده قوي، وله شاهد موصول بإسناد حسن»(٢).

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٦٠١.

(٢) موافقة الخُبر الخبر لابن حجر ١/ ٣٨٤، وكذا قال بنحوه في تغليق التعليق ٢/ ٧٦.

٢ ـ وقد وقعت هذه الحادثة قبل غزوة بدر بشهرين[١].

٣ ـ وفي هـذه السريـة تتجلى دقـة ومهارة النبي ﷺ العسكريـة في جوانب عدة، منها: أمره للسريـة بالذهاب إلى نخلة وهي مكان بعيـد، وذلك لأن قريشاً كانت تجتهد في إخفاء أخبار قوافلها عن أهل المدينة، فغلبهم النبي ﷺ على حذرهم وأراد أخذ أخبارهم من أقرب مكان من مكة.

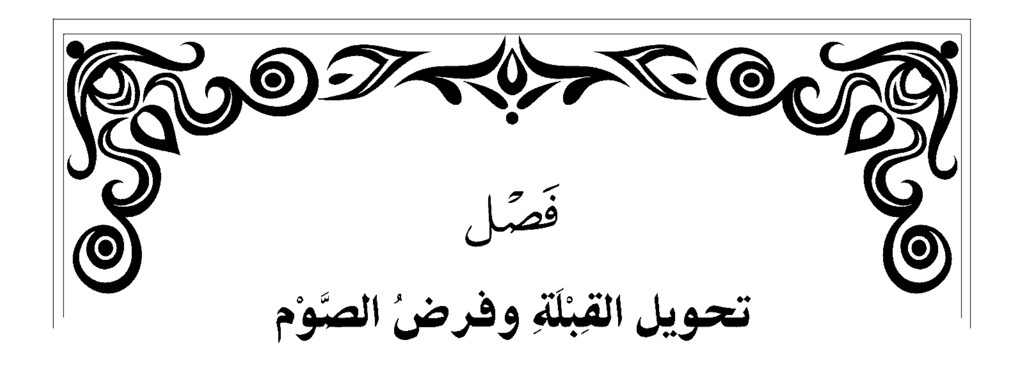
٤ ـ ومنها: عدم إخباره ﷺ السرية بمقصده من إرسالهم ووجهتهم إلا بعد يومين من مغادرتهم المدينة حذراً من إشاعة الخبر، فربما نقله أحد المنافقين أو اليهود إلى قريش، فتترصدهم في ذاك المكان النائي عن المدينة، وهم قِلَّة فيقتلونهم[٢].

❐ ❐ ❐

---

(١) تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ١/ ١٣٠.

(٢) السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ١١٩.



فَصۡل

تحويل القِبْلَةِ وفرضُ الصَّوْم

قال المصنف: «وفي شعبانَ مِن هذه السنةِ[1] حُوّلت القِبْلةُ من بيت المقدسِ إلى الكعبةِ، وذلك على رأسِ ستـة عشرَ شهراً من مقدَمِهِ المدينة. وقيل سبعة عشرَ شهراً، وهما في الصحيحين[2]. وفُرض صَوم رمضان، وفُرضت لأجله زكاة الفطر قُبيله بيوم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حاصل الأمر أن النبي ﷺ كان بمكة يستقبل الكعبة[3]، فلما هاجر إلى المدينة أمره الله ﷻ باستقبال بين المقدس تأليفاً لليهود، فاستقبلها ستة عشر شهراً أو سبعة عشر. وكان عليه الصلاة والسلام يحبّ أن يستقبل الكعبة، فكان ينظر إلى السماء ويدعو الله ويبتهل حتى نزل قوله تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾[البقرة: ١٤٤] فتحـوّل

---

(١) السنة الثانية للهجرة.

(٢) صحيح البخاري «٤٠»، صحيح مسلم «٥٢٥».

(٣) ورجح ابن عبد البر أن النبي كان بمكة يستقبل بيت المقدس والكعبة جميعاً، فلما هاجر استمر على استقبال بيت المقدس حتى نُسخ ذلك. التمهيد ٨/ ٥٤.

إلى الكعبة، وأعلم الناس بذلك[1].

٢ ـ وكان اليهود قد فرحوا باستقبال النبي ﷺ بيت المقدس بادئ الأمر فلمّا تحوّل إلى الكعبة غضبوا وأرجفوا وأنكروا واتهموا النبي ﷺ بالتناقض والتردد، فنزل الرد الحاسم عليهم في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ١٤٢].

٣ ـ وقد اختلفت الرواية في المسجد الذي كان فيه النبي ﷺ حين نزول الأمر بالتحويل، فقيل إنه كان في مسجد بني سَلَمَة يصلّي الظهر، فأُمر بالتحويل بعد أن صلّى الركعتين الأوليين، فاستدار بمن معه صوب الكعبة، فسمّي مسجد القبلتين، قال الواقدي: «هذا الثبت عندنا»[2]، وقيل: إنه كان في مسجده بالمدينة، وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذا الاختلاف ولم يرجح في المسألة[3]، لعله لعدم ورود شيءٍ مؤكد يُركن إليه.

٤ ـ وقوله: «**وفُرض صوم رمضان**»: قلت: هذا متفق عليه أن صيام رمضان فُرض في السنة الثانية من الهجرة النبوية، وكذا فُرضت زكاة الفطر.

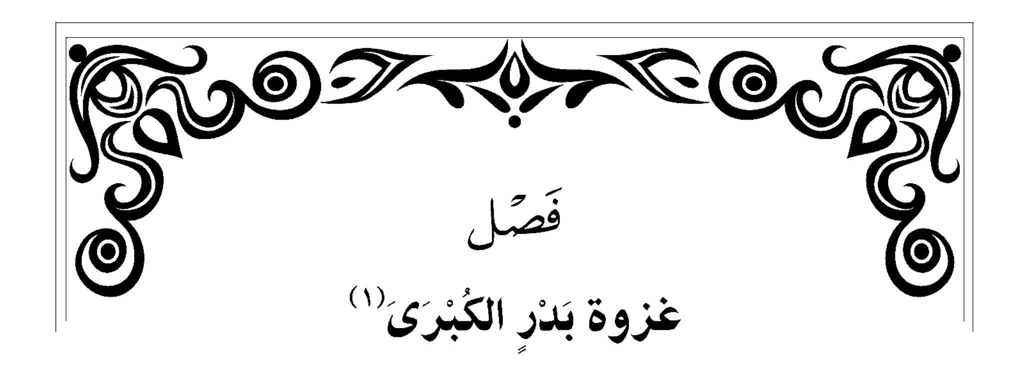
❐ ❐ ❐

---

(١) فتح الباري ١/ ٥٠٢.

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ١٨٦.

(٣) فتح الباري ١/ ٥٠٣.



فَصْل

غزوة بَدْرٍ الكُبْرَىَ[1]

قـال المصنف: «نذكر فيه ملخص وقعـة بدرٍ الثانيـة، وهي الوقعةُ العظيمةُ التي فرَّق الله فيها بين الحقِ والباطلِ وأعزّ الإسلامَ، ودَمَغَ الكفرَ وأهلَهُ.

وذلك أنه لَمَّا كان في رمضانَ من هذه السنة الثانية بلغَ رسُولَ الله ﷺ أن عِيراً مقبلةٌ من الشامِ صُحبة أبي سفيان، صخْرِ بنِ حربٍ، في ثلاثين أو أربعين رجلاً من قريش وهي عِيرٌ عظيمةٌ، تحمل أموالاً جزيلة لقريشٍ، فَنَدَبَ ﷺ الناسَ للخروجِ إليها، وأَمَرَ من كان ظهرُه[2] حاضراً بالنهوضِ، ولم يحتفل لها احتفالاً كثيراً، إلَّا أنه خرجَ في ثلاثمائة وبضعة عشرَ رجلاً، لثمانٍ خلونَ مِنْ رمضانَ، واستخلفَ على المدينةِ وعلى الصلاةِ ابنَ أمّ مَكتومٍ، فلما كان بالرَّوحاءِ[3] ردّ أَبا لُبَابَة بنَ عبد المنذر واستعملَهُ على المدينةِ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ معركة بدر من أشهر المعارك في السيرة النبوية الزكية، وقد أوجز المصنف

(١) بدر: بلدة كبيرة عامرة اليوم، بين مكة والمدينة، على بعد ١٥٠ كيلاً من المدينة، من جهة الجنوب الغربي.

(٢) الظهر: الدابة التي يُركب عليها من الإبل أو الخيل.

(٣) الروحاء: محطة على الطريق بين المدينة وبدر، على مسافة (٧٤) كيلاً من المدينة.

الكلام فيها، ونحن نوجز الشرح تبعاً له ونعلّق على أهم ما جاء في كلامه.

٢ ـ وقد سمّيت هذه الغزوة ببدر نسبة للموضع الذي وقعت فيه، ويقال لها غزوة بدر الكبرى أو الثانية لأنه تقدم معنا أن هناك غزوة يقال لها غزوة بدر الأولى، وسيأتينا أن هناك غزوة وقعت بعد غزوة أحد بسنةٍ تسمّى غزوة بدر الثالثة أو الموعد. وإذن فهناك ثلاث غزوات ارتبطت بقرية بدر؛ وهي غزوة بدر الأولى وغزوة بدر الثانية وغزوة بدر الثالثة.

٣ ـ وتسمّى هذه الغزوة أيضاً بيوم الفرقان، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[الأنفال: ٤١].

سمّيت بهذا الاسم لأنها فرَّقت بين أهل الحق وأهل الباطل بنصر المؤمنين.

٤ ـ وكانت غزوة بدر الثانية هي أول معركة حقيقية تقع بين المسلمين وبين مشركي قريش بعد أن سبقتها مناوشات عدة بين الطرفين.

٥ ـ وقد اتفق علماء السيرة على تأريخ هذه الغزوة بيوم الجمعة، السابع عشر من رمضان، سنة اثنتين من الهجرة النبوية[(١)].

٦ ـ وقد وردت إشارات عديدة في القرآن الكريم لهذه الغزوة المباركة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[آل عمران: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ

(١) حكى اتفاقهم الحافظ ابن حجر، إلا أنه أشار إلى خلاف في تاريخ اليوم، فالجمهور على أنه كان في ١٧ وقيل ١٢، وجمع بينهما بأن الثاني عشر كان ابتداء الخروج من المدينة والسابع عشر كان يوم الوقعة، انظر: التلخيص الحبير ٤/ ٢٤٠، حديث: ١٨٢٦.

﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

كما أخرج صاحبا الصحيحين أخباراً متفرقة عنها[١].

٧ـ وغزوة بدر هي من أفضل الغزوات النبوية، وأهلها من أفضل الصحابة، كما جاء في حديث الصحيحين: «لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[٢].

ولذلك أكثر العلماء عندما يتكلمون عن مراتب الصحابة في الفضيلة يقولون: أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم بقيّة العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل بيعة الرضوان، ثم سائر الصحابة[٣].

٨ ـ وقد كان سبب هذه الغزوة هو الاستيلاء على قافلة قريش التجارية القادمة من بلاد الشام وما فيها من أموال ومتاع مقابل ما استولت عليه قريش من أموال المسلمين ومتاعهم بمكة بعدما اضطرتهم لمغادرتها والخروج منها.

وأيضاً كان يقصد من هذه الغزوة إضعاف قريش لتوقف عدوانها على المسلمين واضطهادها للداخلين فيه، فقد كانت تستخدم هذه الأموال وغيرها في سبيل تحقيق ذلك[٤].

---

(١) ينظر صحيح البخاري: باب قصة غزوة بدر ٥/ ٧٢، صحيح مسلم: باب غزوة بدر ٣/ ١٤٠٣.

(٢) صحيح البخاري «٣٠٠٧»، صحيح مسلم «٢٤٩٤».

(٣) العقيدة السفارينية ص٨٧ وشرحها لوامع الأنوار البهية ٢/ ٣٦١.

(٤) دراسات في السيرة النبوية ص٨٣.

* تحسُّس أَخبار العير:

قال المصنف: «ولم يكن معه مِن الخيلِ سوَى فرسِ الزُّبير، وفرسِ المقدادِ بنِ الأسودِ، ومـنَ الإبلِ سبعونَ بعيراً، يعتقب[1] الرجـلان والثلاثةُ فأكثرُ على البعيرِ الواحدِ. فرسُولُ الله ﷺ وعليٌّ ومَرْثَد بنُ أبي مَرْثَدٍ الغَنوي يعتقبون بعيراً.

وسارَ ﷺ فلما قَرُبَ من الصفراء[2] بَعَثَ بَسْبَسَ بنَ عمرٍو الجهني وعَديَّ ابن أبي الزَّغباء الجهنيّ إلى بدرٍ يتحسَّسَانِ أخبارَ العيرِ.

وأما أبو سفيان فإنه بلغَه مخرجُ رسُولِ الله ﷺ وقصدُهُ إيَّاه، فاستأجر ضَمْضَمَ ابن عمرو الغفاريَّ إلى مكة مستصرخاً لقريشٍ بالنفيرِ إلى عيرِهم ليمنعوه من محمد وأصحابه. وبلغَ الصريخُ أهلَ مكة، فنهضوا مسرعين، وأوعبوا[3] في الخروج، ولم يتخلَّف من أشرافهم أحدٌ سِوَى أبي لهبٍ، فإنه عوَّض عنه رجلاً كان له عليه دين.

وخرجوا من ديارهم كما قال الله ﷻ: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال: ٤٧]. وأقبلوا في تحمّلٍ وحَنَقٍ عظيمٍ على رسُولِ الله ﷺ وأصحابِه. فجمعهم الله على غيـر ميعادٍ؛ لمـا أراد في ذلك من الحكمـةِ كمـا قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ في قلة أعـداد إبل المسلمين وخيلهم دليل على مـا كانوا عليه وقتها من

(١) يتعاقب عليها.

(٢) الصفراء: واد وقرية بين المدينة وبدر، وتسمى القرية اليوم: الواسطة.

(٣) خرجوا كلهم.

ضيق ذات اليد وقلة الموارد المادية.

٢ ـ وفي اشتراك النبي ﷺ مع بعض أصحابه في اعتقاب بعير واحد دليل على تواضعه ومساواة نفسه بأصحابه في الشدَّة والعُسر، في المنشط والمكره، وقد كان بإمكانه وهو القائد أن يصطفي لنفسه أجود فرس أو أجود بعير يركبه وحده.

٣ ـ كما أن في إرسال النبي بعض أصحابه إلى بدر يتحسسون الأخبار دليل على جواز الاستعانة بالعيون والجواسيس في الجهاد لكشف تحركات الأعداء ومعرفة خططهم ومواضع قوتهم وضعفهم.

*** خروج قريش ومشاورة النبي ﷺ أصحابه في القتال:**

قال المصنف: «ولمَّا بَلَغَ رسُولَ الله ﷺ خروجُ قريشٍ استشار أصحابَه، فتكلَّم كثيرٌ من المهاجرين فأحسنوا، ثم استشارهم وهو يريدُ الأنصار، فبادر سعدُ بنُ معاذ رضي الله تعالى عنه فقال: يا رسُولَ الله! كأنك تُعَرِّض بنا، فو الله يا رسُولَ الله، لو استعرضتَ بنا البحرَ لـخُضناه معك، فَسِرْ بنا على بركةِ الله، فَسُرَّ ﷺ بذلك وقال: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين».

ثم رحل رسُولُ الله ﷺ فنزَلَ قريباً من بدر، فلمَّا أمسى بَعَثَ علياً وسعداً والزبير إلى ماء بدر يلتمسون الخبرَ، فقدموا بعبدين لقريشٍ، ورسُولُ الله ﷺ قائمٌ يُصَلّي، فسألهما أصحابُه لمن أنتما؟ فقالا: نحنُ سُقاةٌ لقريشٍ، فكره ذلك أصحابُ رسُولِ الله ﷺ وودُّوا أن لو كانا لعير أبي سفيان، وأنه منهم قريبٌ ليفوزوا به، لأنه أخفُّ مؤونة من قتال النفير من قريشٍ؛ لشدَّة بأسهم واستعدادهم لذلك، فجعلوا يضربونهما، فإذا آذاهما الضربُ قالا: نحنُ لأبي سفيان، فإذا سكتوا عنهما قالا: نحنُ لقريشٍ، فلما انصرفَ رسُولُ الله ﷺ من صلاته قال: «والذي نفسي بيده إنكم

لتضربونهما إذا صدقا وتتركونهما إذا كذبا». ثم قال لهما: «أخبراني أين قريش؟» قالا: وراء هـذا الكثيب. قال: «كم القوم؟» قـالا: لا عِلْمَ لنا. فقال: «كم ينحرون كل يوم؟» فقالا: يوماً عشراً ويوماً تسعاً، فقال ﷺ: «القومُ ما بين التسعمائة إلى الألف».

وأما بَسْبَسُ وعـديّ فإنهما وردَا ماء بدرٍ فسمعا جاريةً تقول لصاحبتها: ألا تقضيني ديني؟ فقالت الأخرى: إنما تقدُم العيرُ غداً أو بعد غدٍ فأعمل لهم وأقضيك، فصدَّقها مَجْـدي بنُ عمرو. فـانطلقا مقبلين لما سمعـا، ويعقبهما أبو سفيان، فقال لَمجْدي بن عمرو: هل أحسستَ أحداً من أصحابِ محمد؟ فقال: لا إلا أن راكبين نزلا عنـد تلك الأكمة، فانطلق أبو سفيان إلى مكانهما وأخذ من بعر بعيرهما ففتَّه فوجد فيه النوى، فقال: والله هذه علائِفُ يثرب، فعدل بالعيرِ إلى طريق الساحل، فنجا، وبَعَثَ إلى قريشٍ يُعلمهم أنه قد نجا هو والعير ويأمرهم أن يرجعوا».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ دلت مشاورة النبي ﷺ لأصحابه عندما بلغه خروج قريش لقتاله على التزامه ﷺ بمبـدأ الشورى في كل ما لم يرد فيـه نص ملزم من الكتاب أو السنـة، وعدم تفرده بالرأي، وفي حوادث السيرة شواهد كثيرة على ذلك.

٢ ـ وإنمـا كان النبي ﷺ ينتظر رأي الأنصار في خـوض هذه المعركة دون المهاجرين فلأنهم كانوا أولاً أغلب الحاضرين، ولأنهم كانوا قد بايعوا النبي سابقاً على حمايته داخل حدود المدينة فحسب، فلم يكن ﷺ ليجبرهم على خوض معركة خارجها دون أن يكون لهم رأي في ذلك.

٣ ـ وخبر مشاورة النبي ﷺ لأصحابه وانتظاره رأي الأنصار أخرجه مسلم

في صحيحه ضمن سياق مطول[1].

٤ ـ كما أن في تقـدير النبي ﷺ لأعـداد جيش المشركين عـن طريق معرفـة ما يأكلونـه من الإبل كلَّ يوم دليل على براعتـه ومهارته ﷺ وحَدَسِهِ الصائب في الاستدلال والاستنتاج إلى جانب ما أكرمه الله من النبوة والرسالة[2].

*** مشورة الحُـبابِ بن المنذر:**

قال المصنف: «وبَلَغَ ذلك قريشاً، فأبى أبو جهلٍ، وقال: والله لا نرجع حتى نَرِد مـاء بـدر، ونُقيم عليـه ثلاثاً، ونشـرب الخمرَ، وتضرب على رؤوسنا القِيَانُ، فتهابنا العربُ أبداً. فبادر رسُولُ الله ﷺ قريشاً إلى ماءِ بدر، ونزل على أدنى ماء هناك، فقال له الحـُبَابُ بنُ المُنذر بن عمرو: يا رسُولَ الله! هذا المنزل الذي نزلته أمرك الله به؟ أو منزلٌ نزلته للحربِ والمكيدةِ. فقال: «بل منزلٌ نزلته للحربِ والمكيدةِ». فقال: ليس هـذا بمنزل، فانهض بنا حتى نأتي أدنى مـاءٍ من مياه القومِ فننزله، ونغوّر[3] ما ورائنا من القُلُبِ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه، فنشربُ ولا يشربون. فاستحسن رسُولُ الله ﷺ منه ذلك. وحال الله بين قريشٍ وبين الماء بمطرٍ عظيمٍ أرسله، وكان نِقمة على الكفار ونِعمة على المسلمين، مهَّد لهم الأرضَ ولبَّدها، وبُني لرسُولِ الله ﷺ عريشٌ[4] يكون فيه».

---

(١) صحيح مسلم «١٧٧٩».

(٢) الخبر ساقه ابن إسحاق بـدون إسناد (سيرة ابن هشـام ١/ ٦١٧)، لكن أخرجه أحمد «٩٤٨» بنحوه ضمن حديث طويل وصحح إسناده أحمد شاكر وشعيب الأرناؤوط.

(٣) بالغين المعجمة: ندفنها ونطمسها، وفي بعض المصادر: بالعين المهملة ومعناه: نفسدها من العَوَر.

(٤) العريش: خيمة تكون مقراً للقيادة.

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قول أبي جهل: «**لا نرجع حتى نرد بدراً ...إلى آخره**» ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[١].

٢ ـ ومشورة الـحُباب بن المنذر وردت من طرق كثيرة ضعيفة، لكنها تتقوى بمجموعها وترتقي لدرجة الحسن لغيره كما قال الباحث أحمد با وزير[٢].

وفيها دلالـة على التزامه عليـه الصلاة والسلام بالأخذ بمبدأ الشورى فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا قبل قليل عندما شاور النبي الأنصار في خوض المعركة، وفي السيرة نظائر كثيرة لها.

٣ ـ ونزول المطر وجعله نعمة ورحمة للمؤمنين أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[الأنفال: ١١].

٤ ـ وقوله: «**وبُني لرسول الله عريش يكون فيه**»: حَسِبَ بعض كتاب السيرة من هذا أن النبي ﷺ لم يقاتل في المعركة!

وليس كذلك، فقـد ثبت عن علي بن أبي طالب أنـه قـال: «لقـد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدو، وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً»[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٦١٨، ومن طريقه الطبري في تاريخه ٢/ ٤٣٨.

(٢) مرويات غزوة بدر ص١٦٤.

(٣) مسند أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر «٦٥٤».

ويُجمع بين الأمرين بالحمل على اختلاف الأوقات، فتارة كان عليه الصلاة والسلام يشارك فعلياً في ساحة القتال، وتارة يكون في العريش يدير أمور المعركة.

*** إصرار أَبي جهل على القتال:**

قال المصنف: «ومشى ﷺ في موضعِ المعركة، وجعل يُرِيهم مَصَارعَ رؤُوسِ القومِ واحداً واحـداً، ويقول: «هـذا مصرعُ فلانٍ غـداً إن شـاء الله، وهذا مصرعُ فلانٍ، وهـذا مصرعُ فلان». قـال عبدالله بن مسعود: فوالذي بعثهُ بالحقّ ما أخطأ واحدٌ منهم موضعَهُ الذي أشار إليه رسُولُ الله ﷺ.

وبات رسُولُ الله ﷺ تلك الليلة يُصلّي إلى جَذْم شجرة[1] هناك، وكانت ليلة الجمعة السابع عشرَ مـن رمضان، فلمّا أصبح وأقبلت قريشٌ في كتائبها، قال ﷺ: «اللهم هذه قريشٌ قد أقبلت في فخرها وخُيلائها، تُحادَّك وتُحادَّ رسُولَك».

ورام حَكِيم بن حِزام وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريشٍ فلا يكونُ قتالٌ، فأَبى ذلك أبو جهل، وتقاول هـو وعتبـة، وأَمَرَ أبو جهلٍ أخـا عمرو بن الحضرمي أن يطلب دمَ أخيه عمرو، فكشفَ عن إِسته وصرخ: واعمراه! واعمراه! فحمي القومُ ونَشِبَتْ الحربُ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ تحديده ﷺ ليلة المعركة مصارع رؤوس قريش مخرج في صحيح مسلم بنحوه[2]. وفيه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ حيث أخبر بأمر مستقبل غيبي ووقع كما أخبر به.

---

(١) أصل شجرة.

(٢) صحيح مسلم «١٧٧٩»، من حديث أنس بن مالك.

٢ ـ وقوله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت في فخرها وخيلائها ...إلى آخره»: ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[١].

٣ ـ ومحاولة عتبة بن ربيعة الرجوع بالجيش وإصرار أبي جهل على القتال مخرج في مسند الإمام أحمد بإسناد صحيح ضمن سياق طويل[٢].

٤ ـ وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره أن النبي ﷺ بات ليلة المعركة وهو يصلّي ويبتهل إلى الله تعالى ويهتف به ويتضرع له بالدعاء والنصر، ويقول: «أللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»[٣]. وفي هذا دلالة على أهمية الدعاء والتضرع إلى الله بعد الأخذ بالأسباب الواجبة.

*** تعديل الصفوفِ واشتدادُ القتال:**

قال المصنف: «وعدَّل رسُولُ الله ﷺ الصفوفَ، ثم رجعَ إلى العَريشِ هو وأبو بكر وحده، وقام سعدُ بنُ معاذٍ وقومٌ من الأنصار على بابِ العَريشِ يحمون رسُولَ الله ﷺ.

وخرجَ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، ثلاثتُهم جميعاً يطلبون البِرَازَ، فخرج إليهم من المسلمينَ ثلاثةٌ من الأنصار، وهم: عوفٌ ومعوّذٌ ابنا عفراء، وعبدُالله بنُ رواحة، فقالوا لهم: من أنتم؟ فقالوا: من الأنصارِ، فقالوا:

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٦٢١، وأشار الذهبي إلى ضعفه بقوله في تاريخ الإسلام ١/ ٦٦: «فيما زعموا».

(٢) صححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند «٩٤٨».

(٣) صحيح مسلم «١٧٩٣».

أكفاءٌ كرامٌ، وإنما نريدُ بني عمّنا.

فبرزَ لهم عليٌّ وعبيدة بن الحـارث وحمزة ﷺ، فقَتَلَ عليٌّ الوليدَ، وقَتَلَ حمزةُ عتبـة، وقيل: شيبة، واختلف عُبيـدة وقِرْنُه بضربتين، فأجهد كل منهمـا صاحبَهُ، فَكَرَّ حمزةُ وعليٌّ فتمَّما عليـه، واحتملا عُبيدة وقـد قُطِعَتْ رجلُهُ، فلم يزل طَمِثاً[1] حتى مات بالصَّفراء ﷺ.

ثم حَمِيَ الوطيسُ، واشتـدَّ القتالُ، ونزلَ النَّصرُ، واجتهد رسُـولُ الله ﷺ في الدُّعاء، وابتهلَ ابتهالاً شديداً، حتى جعل رداؤه يسقُط عن منكبيهِ، وجعل أبو بكرٍ يُصلحه عليـه، ويقول: يا رسُولَ الله! بعض مناشـدَتك ربك[2]، فإنـه منجزٌ لك ما وعدك.

ورسُولُ الله ﷺ يقول: «اللهم إن تَهلِك هـذه العصابة لا تعبد في الأرضِ»، فـذلك قولـه تعـالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال: ٩]، ثم أَغْفَى رسُـولُ الله ﷺ إغفاءةً، ثم رفعَ رأسه وهو يقول: «أَبشرْ يا أبا بكرٍ، هذا جبريلُ على ثناياه النقعُ»».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ مبارزة عليّ وحمزة وعبيدة ﷺ لعتبة وشيبـة والوليد مخرجة في سنن أبي داود بإسناد صحيح[3]. وفيـه دليل على جواز المبارزة خلافاً لمن أنكرها، وشرط

---

(١) ينزف دماً.

(٢) هكذا في نسخ الفصول المطبوعة، والذي في الصحيح: «كفاك مناشدتك ربك». صحيح مسلم «١٧٦٣».

(٣) صححـه الألباني في صحيح أبي داود «٢٦٦٥»، وشعيب الأرناؤوط في تحقيقـه لسنن أبي داود.

الثوري وأحمد وإسحاق للجواز إذن أمير الجيش[1].

٢ ـ وقول أبي بكر: «**كفاك يا رسول الله مناشدتك ربك**»، وقوله ﷺ: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**»، ومشاركة الملائكة في القتال، كلُّه مخرج في صحيح مسلم ضمن سياق طويل[2].

٣ ـ وقد جاء في القرآن الكريم أن الله ﷻ أمدّ المؤمنين بألف من الملائكة، ثم جعلهم ثلاثة آلاف، ثم خمسة آلاف[3].

٤ ـ وعن حكمة مشاركة الملائكة في القتال بهذا العدد مع أن جبريل وحده قادرٌ على إهلاك المشركين جميعاً بأمر الله، فقد أوضحه العلامة السُّبكي بقوله: «وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله تعالى في عباده. والله تعالى هو فاعل الجميع والله أعلم»[4].

والظاهر أن مشاركة الملائكة كانت محدودة جداً، وبقوة تتناسب مع قدرة البشر، وأغلبها كان من باب التأييد المعنوي، وأما الجهد الأكبر فإنما كان على عاتق المسلمين كما هي سنة الله ﷻ في الكون.

*** نكوص الشيطانِ ونزولُ الملائكةِ للقتال:**

قال المصنف: «وكان الشيطانُ قد تبدَّى لقريشٍ في صورة سُراقة بن مالك

---

(١) شرح المواهب للزرقاني ٢/ ٢٧٧.

(٢) صحيح مسلم «١٧٦٣».

(٣) ينظر: [سورة الأنفال: ٩]، و[سورة آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٦].

(٤) فتح الباري ٧/ ٣١٣.

ابن جُعشم زعيم مُدْلِج، فأجارهم، وزيَّن لهم الذهابَ إلى ما هم فيه؛ وذلك أنهم خَشُوا بني مُدْلِج أن يخلُفُوهم في أهاليهم وأموالهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وذلك أنه رأى الملائكة حين نزلت للقتال، ورأى ما لا قِبَلَ له به ففرَّ، وقاتلتِ الملائكة كما أمرها الله، وكان الرجلُ من المسلمين يطلبُ قِرْنه، فإذا به قد سَقَطَ أمامه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ تبدّي الشيطان في صورة سراقة بن مالِك وتزيينه الحرب لقريش ذكره ابن إسحاق في السيرة بإسناد صحيح من مرسل عروة بن الزبير(١).

٢ ـ وقوله: «**إن قريشاً خشوا بني مُدلج أن يخلُفوهم في أهاليهم**»: سببه ما كان بينهم وبين مُدلج من الحرب، فخشيت قريش أن تأتيهم من خلفهم، فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالِك المدلجي ووعدهم بألا يصيبهم من بني مُدلج مكروه.

٣ ـ وقوله: «**وكان الرجل يطلب قِرْنه، فإذا به قد سقط أمامه**»: يشير بهذا إلى ما أخرجه مسلم عن ابن عباس: «بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يشتدُّ في أَثَر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسَّوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أَقْدِم حيزوم(٢)، فَنَظَرَ إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٦١٢.

(٢) اسم فرس الملك.

أنفه، وشُقَّ وجهه، كضربة السَّوط فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاريُّ، فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صَدَقت، ذلك من مَدَد السماء الثالثة»»[١].

*** نزول نصر الله على رسوله وعلى المؤمنين:**

قـال المصنف: «ومَنَحَ الله المسلمين أكتافَ المشركينَ، وتبعهم المسلمون في آثارهم، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين، وأخذوا غنائمهم. فكان من جملة من قُتِل من المشركين ممن سمّى رسُـولُ الله ﷺ موضعَه بالأمسِ: أبو جهل، وهو أبو الحَكَم عمرو بن هشام لعنه الله، قتلهُ معاذ بنُ عمرو بن الجموح، ومعوّذ بن عَفراء، وتمَّم عليه عبدُالله مسعود. وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وأميَّة بنَ خَلَف، فأمر بهم رسُولُ الله ﷺ فسُحبوا إلى القليب، ثم وقَفَ عليهم ليلاً، فبكَّتهم وقرَّعهم، وقال: «بئس عشيرةُ النبيّ كنتم لنبيّكم، كذَّبتموني وصـدَّقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناسُ». ثم أقام رسُولُ الله ﷺ بالعَرْصَة[٢] ثلاثاً، وأنزل الله تعالى في وقعةِ بدر سورة الأنفال».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ ما ذكره المصنف من عدد قتلى وأسرى المشركين في بدر مخرج في صحيح الإمام مسلم[٣]، وقصة مقتل أبي جهل مخرجة في الصحيحين[٤].

---

(١) صحيح مسلم «١٧٦٣»، ضمن سياق مطول.

(٢) العَرْصَة: الموضع الواسع الذي ليس فيه بناء.

(٣) صحيح مسلم «١٧٦٣»، ضمن سياق مطول.

(٤) صحيح البخاري «٣١٤١، ٣٩٦٢»، صحيح مسلم «١٧٥٢».

٢ ـ ومقتل عتبة وشيبة ابني ربيعة وأمية بنَ خَلَف مخرج عند مسلم[١]، وتقدم الكلام عن قصة مقتلهم في المبارزة وبيان من أخرجه ودرجته قبل قليل.

٣ ـ وأمر النبي ﷺ بإلقاء قتلى رؤوس قريش في قليب بدر مخرج في الصحيحين[٢].

٤ ـ وقوله ﷺ لأهل القليب: «**بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس...**»: ذكره ابن إسحاق مرسلاً، فقال: حدثني بعض أهل العلم[٣]. وفي الصحيحين واللفظ لمسلم؛ أن النبي ﷺ: تَرَكَ قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهُم فقام عليهم فناداهُم، فقال: «يا أبا جهل بن هشام يا أميَّة بن خَلَف يا عُتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربُّكم حقّا؟ فإنّي قد وجدت ما وعدني ربي حقّاً، فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلّم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نَفْس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لِمَا أقول منهُم»[٤].

٦ ـ وقد استدل بعض أهل العلم بخطاب النبيّ لأهل القليب على سماع الموتى، وأجيب بأنها حادثة مخصوصة بالنبي ﷺ حيث أحياهم الله وأسمعهم كلام نبيه معجزة له، كما ثبت في صحيح البخاري من قول قتادة: «أحياهُم الله حتى أسْمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندماً»[٥]، وهذه مسألة طويلة الذيول ولا يتسع المقام للتوسع فيها.

---

(١) صحيح مسلم «١٧٩٤».

(٢) صحيح البخاري «٣٩٧٦»، صحيح مسلم «٢٨٧٥».

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٦٣٩.

(٤) صحيح البخاري «٣٩٧٦»، صحيح مسلم «٢٨٧٥».

(٥) صحيح البخاري «٣٩٧٦».

* قسمة الغنائم وقتل النَّضْر بن الحارث وابن أبي مُعَيْط:

قال المصنف: «فلما كان رسُولُ الله ﷺ بالصَّفراء قَسَم المغانمَ كما أمره الله تعالى، وأمر بالنَّضْر بن الحارث فضُربت عنقُه صبراً، وذلك لكثرة فساده وأذاه رسُولَ الله ﷺ. ولـمَّا نزل عِرْق الظُّبية[1] أمر بعُقبة بن أبي مُعَيْط فضُربت عنقه أيضاً صبراً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ أمره ﷺ بقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ذكره ابن إسحاق بدون إسناد[2]، وجزم به الذهبي في تاريخه[3]، وقد ثبت أمره ﷺ بقتل عقبة في سنن أبي داود أيضاً[4].

٢ ـ وقد علَّق المصنف في تاريخه على مقتل النَّضر وعقبة بن أبي معيط فقال: «كان هذان الرجلان من شرّ عباد الله، وأكثرهم كفراً، وعناداً، وبغياً، وحسَداً، وهجاءً للإسلام وأهله، لعنهما الله وقد فَعَل»[5].

٣ ـ وقد استدل العلماء بهذه الحادثة على جواز قتل الأسير الحربي الكافر إذا رأى ولي الأمر المصلحة في قتله[6]، خاصة إذا كان ممن يعرفون بالنكاية بالمسلمين.

---

(١) موضع يعرف اليوم بـ «طرف الظبية»، وهو قبل الروحاء بثلاثة أكيال مما يلي المدينة.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٦٤٤.

(٣) تاريخ الإسلام ١/ ٣٦.

(٤) سنن أبي داود «٢٦٨٦»، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للسنن.

(٥) البداية والنهاية ٥/ ١٨٩.

(٦) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٥/ ٢٠٤، فتح الباري ٤/ ٦٢.

* قبول الفداءِ من الأسرى والرجوعُ إلى المدينة:

قال المصنف: «ثم إن رسُولَ الله ﷺ استشارَ أصحابَه في الأسارى: ماذا يصنعُ بهم؟ فأشار عمرُ بنُ الخطاب ﵁ بأن يُقتلوا، وأشار أبو بكرٍ ﵁ بالفِدَاء، وَهَوِيَ رسُولُ الله ﷺ ما قال أبو بكرٍ، فحلَّل لهم ذلك، وعاتبَ الله في ذلك بعضَ المعاتبة في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الآيات [الأنفال: ٦٧]. وقد روى مسلم في صحيحه عن ابن عبَّاس ﵄ حديثاً طويلاً فيه بيان هذا كله[(١)].

ورجعَ رسُولُ الله ﷺ إلى المدينـةِ مؤيداً مظفراً منصوراً، قد أعلى الله كلمته، ومكَّن له، وأعزّ نصره، فأسلم حينئذ بشرٌ كثيرٌ من أهلِ المدينةِ، ومن ثم دَخَلَ عبدُالله ابنُ أُبيّ بن سَلُول وجماعته من المنافقين في الدين تَقِيَّة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ في قبوله ﷺ الفداء من أسرى بدر دليل على عظم رحمته وشدة شفقته في تعامله مع أعدائه المهزومين الذين حاربوه وحرصوا على قتله.

٢ ـ وقد ذكر جمع من أهل العلم أن النبي ﷺ أمر المسلمين يوم بدر أن يكرموا الأسرى، فكانوا يقـدمونهم على أنفسهم عنـد الغداء[(٢)]، والقرآن الكـريم يشهد لهذا في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسان: ٨].

٣ ـ وثبت أن بعض أسـرى بـدر ممن لم يكن لهم مـال يفدون بـه أنفسهم،

---

(١) صحيح مسلم «١٧٦٣».

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٩٧، تفسير ابن كثير ٨/ ٢٨٨.

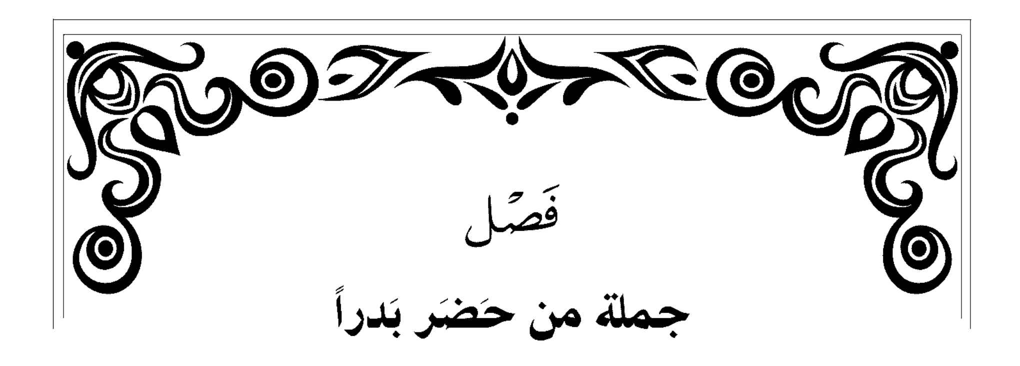
فجعل رسـول الله ﷺ فداءهم أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابـة[1]، مما يدل على إعلاء الإسلام لقيمة العلم.

٤ ـ وأما ما نزل من عتاب الله ﷻ لنبيه بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، فالمقصود بـه أن جيش الإسـلام ليس له أن يأسر حتى يثخن في الأرض بأن يثقل جيش العدو بالجراح، ولا تكون له قدرة على مواصلة القتال[2].

❐ ❐ ❐

(١) أخرجه أحمد في مسنده «٢٢١٦»، وصحح إسناده أحمد شاكر، وحسنه شعيب الأرناؤوط في تحقيقهما للمسند.

(٢) خاتم النبيين لأبي زهرة ٢/ ٥٢٣.



فَصل

جملة من حضَر بَدراً

قال المصنف: «جملةُ من حضَر بدراً من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً. وأمـا المشركون فكانت عِدَّتهم كما قال ﷺ ما بين التسعمائة إلى الألف. وقُتِل من المسلمين يومئذٍ أربعة عشرَ رجلاً. وقُتِل من المشركين سبعون، وقيل: أقلّ، وأُسِرَ منهم مثلُ ذلك. وفرغَ رسُولُ الله ﷺ من شأن بدرٍ والأسرى في شوال».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ نبَّه الحافظ ابن حجر إلى أن المسلمين الذين شاركوا في القتال الفعلي في بدر إنما كانوا ثلاثمائـة وخمسة أو ستـة فحسب، لأن بعضهم عُدّ من أهل بدر ولم يشارك في القتال لأسباب مختلفة، إما لكون النبي ﷺ ردّه أثناء الطريق واستخلفه على المدينة كأبي لبابة، وآخر انكسرت قدمه فردّه إلى المدينة ...وهكذا[١].

٢ ـ وقولـه: «**وقُتل من المشركين سبعون، وأُسر منهم مثل ذلك**»: هذا هو الحق كما قال الحافظ ابن حجر[٢]. ولعله جزم به لثبوته في أحاديث عدة، كحديث ابن عباس قال: «فقتلوا يومئذٍ سبعين، وأسروا سبعين»[٣].

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٩٢.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٣٠٧.

(٣) صحيح مسلم «١٧٦٣».

٣ ـ وقوله: «**وقُتل من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً**»: قلت: هذا متفق عليه بين علماء السيرة.

* * *

فصل

غزوة بني سُلَيْم

قال المصنف: «ثم نهضَ بنفسه الكريمة ﷺ بعد فراغِه بسبعة أيام لغزو بني سُلَيْم، فمكث ثلاثاً ثم رجعَ ولم يلق حرباً، وقد كان استعمل على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطة، وقيل ابن أمّ مكتوم».

❒ ❒ ❒



فَصْل

غزوة السَّوِيق

قال المصنف: «ولمَّا رجع أبو سفيان إلى مكة وأوقع الله في أصحابه ببدر بأسَه، نـذر أبو سفيان ألَّا يمسّ رأسـه بماءٍ حتى يغزو رسُـولَ الله ﷺ، فخـرجَ في مائتي راكـبٍ، فنزلَ طرف العُرَيْض[1]، وبات ليلة واحـدة في بني النَّضير عند سلَّام بن مِشْكَم، فسقاه وبَطَنَ له من خبر الناس، ثم أصبح في أصحابه، وأمر فقطَّع أصواراً[2] من النخل، وقَتَلَ رجلاً من الأنصار وحليفاً له ثم كرّ راجعاً. ونذر به رسُولُ الله ﷺ فخرج في طلبِـه والمسلمون، فبلغ قَرْقَـرة الكُدْر[3]، وفاته أبو سفيان والمشركون، وألقـوا شيئاً كثيراً من أزوادهم، من السَّويق، فسمّيت غزوة السويق، وكانت في ذي الحجـة من السنة الثانيـة للهجرة، ثم رجع ﷺ إلى المدينة، وقد كان استخلف عليها أبا لُبابة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ غزوة بني سُليم ذكرها ابن إسحـاق في السيرة بـدون إسناد[4]. وكان

---

(١) العُريض: واد بالمدينة.

(٢) صغار النخل المجتمعة.

(٣) فضاء واسع، بين الصويدرة والحناكية، على طريق القصيم.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣.

سببها أن النبي ﷺ بلغه أن جمعاً من بني سُليم يستعدون لغزو المدينة فخرج إليهم، لكنهم كانوا قد تفرقوا[1].

٢ ـ وغزوة السويق ذكرها ابن إسحاق في السيرة بإسناد صحيح مرسل[2].

٣ ـ وكان مقصود أبي سفيان بغزوه المدينة هو نوع من الانتقام وحفظ ماء الوجه بعد الذي حصل لقريشٍ ببدر.

٤ ـ وفي إيواء سلّام بن مِشْكم لأبي سفيان واستبطانه الأخبار له مظهرٌ من مظاهر خيانة اليهود وغدرهم وعدم التزامهم بوثيقة المعاهدة التي كانت بينهم وبين النبي ﷺ، والتي من ضمن بنودها ألا يعينوا عليه أحداً.

* * *

فصل

غزوة ذي أَمَرَ

قال المصنف: «ثم أقام ﷺ بقية ذي الحجة، ثم غزا نجداً يريد غطفان، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان ﷺ، فأقام بنجد صفراً من السنة الثانية كله، ثم رجع ولم يلق حرباً».

❒ ❒ ❒

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٧٢.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤.



فَصْل

غزوة بُحْرَان

قال المصنف «ثم خَرَجَ ﷺ في ربيع الآخر يريد قريشاً، واستخلف ابن أم مكتوم فبلغ بُحْرَان[1] معدِناً في الحجاز، ثم رَجَعَ ولم يلق حرباً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ كانت غزوة ذي أَمَر في محرم السنة الثالثة من الهجرة، وقد ذكرها ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[2].

٢ ـ وسببها أن النبي ﷺ كان قد بلغه أن جمعاً كبيراً من غطفان كانوا يستعدون لغزو المدينة فخرج إليهم في جيش تعداده أربعمائة وخمسون مقاتلاً، فلما بلغ غطفان ذلك فروا وتفرقوا في رؤوس الجبال[3].

٣ ـ وغزوة بُحْرَان كانت في السنة الثالثة للهجرة، وقد ذكرها ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[4].



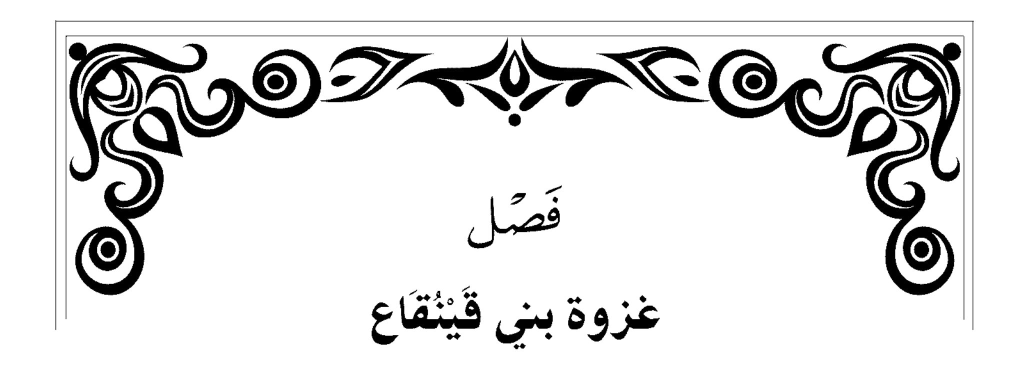
---

(١) بُحْران: جبل شرق مدينة رابغ، على مسافة (٩٠) كيلاً.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٦.

(٣) المغازي للواقدي ١/ ١٩٤.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٦.



فَصْل

غزوة بني قَيْنُقَاع

قال المصنف: «ونَقَضَ بنو قينُقاع ـ أحد طوائف اليهود بالمدينة ـ العهدَ وكانوا تجاراً وصاغة، وكانوا نحو السبعمائـةِ مقاتلٍ، فخرجَ رسُـوُل الله ﷺ لـحصارِهم، واستخلفَ على المدينةِ بشيرَ بنَ عبد المنذر، فحاصرهم ﷺ خمسَ عشرة ليلة، ونزلوا على حُكمه ﷺ، فشفَع فيهم عبدُالله بن أُبي بن سلول، لأنهم كانوا حلفاءَ الخزرج، وهو سيّد الخزرج، فشفَّعه فيهم بعـد ما ألحَّ على رسُولِ الله ﷺ، وكانوا في طرفِ المدينة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ أصـل غـزوة بني قينقاع ثابتٌ في الصحيحيـن دون تفاصيل، ولفظه: «وأجلى رسول الله ﷺ يهود المدينة كلهم: بني قينقاع، وهم رهط عبدالله بن سلَام، ويهود بني حارثـة، وكل يهود المدينـة»[1]، وقـد فصَّلها ابن إسحـاق وغيره مـن كتاب السيرة[2].

٢ ـ واتفق المؤرخـون على أن هـذه الغزوة وقعت بعـد بدر، وحددها أكثر

(١) صحيح البخاري، «٤٠٢٨»، صحيح مسلم «١٧٦٦».

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٤٦ بإسناد صحيح مرسل.

أهل العلم بيوم السبت، للنصف من شهر شوال من السنة الثانية من الهجرة[1].

٣ ـ وأما عن سبب هذه الغزوة فقد ذكر أن النبي ﷺ عندما انتصر في بدر حرك هذا ضغائن اليهود، وأخذ وبالأخص يهود بني قينقاع يظهرون العداوة تجاه المسلمين، مع أنهم كانت بينهم وبين المسلمين معاهدة مسالمة، فحذَّرهم النبي ﷺ عاقبة البغي ونكث العهد، لكنهم قالوا: يا محمد لا يغرنَّك ما لقيت من قومك ببدر، فإنهم لا عِلْمَ لهم بالحرب، وإنك إن قاتلتنا لتعلمنَّ أننا نحن الناس[2]!!

وقد روي أيضاً أنهم تحرشوا بامرأة مسلمة وكشفوا عن سوأتها في سوقهم، فلما قام أحد المسلمين لنجدتها قتلوه[3].

٤ ـ وقد كانت غزوة بني قينقاع تمثل أول مواجهة عسكرية للنبي ﷺ مع يهود المدينة.

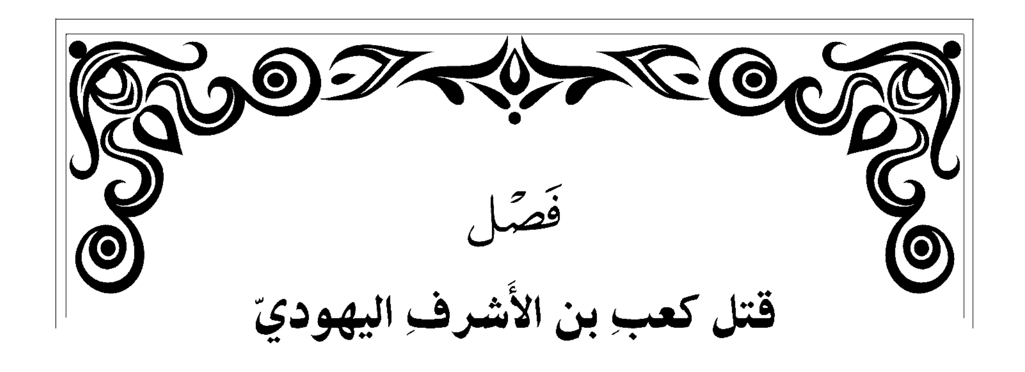
❐ ❐ ❐

---

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٧٩، شرح المواهب للزرقاني ٢/ ٣٤٨.

(٢) سنن أبي داود «٣٠٠١»، وحسن إسناده ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٣٢.

(٣) حادثة تحرش بني قينقاع بالمرأة المسلمة ذكرها ابن هشام في السيرة ٢/ ٤٧ فقال: وذكر عبدالله بن جعفر بن المسور بن مخرمة، عن أبي عون به، وضعف إسنادها الألباني بسبب التعليق والإرسال، ينظر دفاع عن الحديث النبوي ص٢٦.



فَصْل

قتل كعبِ بن الأَشرفِ اليهوديّ

قال المصنف: «وأما كعب بن الأشرف اليهودي، فإنه كان رجلاً من طيء، وكانت أمُّـه من بني النَّضير، وكـان يُؤذي رسُـولَ الله ﷺ والمؤمنين، ويشبّبُ في أشعاره بنساء المؤمنين[1]، وذهب بعد وقعة بدر إلى مكة وألَّب على رسُولِ الله ﷺ وعلى المؤمنين، فنـدبَ رسُـولُ الله ﷺ المسلميـن إلى قتله، فقـال: «من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟»، فانتدبَ رجالٌ من الأنصارِ ثم من الأوس، فـذهبوا إليه واستنزلوه من أُطُمِـه[2] ليلاً، وتقـدَّموا إليـه بكلامٍ مُوهم للتعريض برسُولِ الله ﷺ، فاطمأنَّ إليهم، فلما استمكنوا منه قتلوه لعنه الله، ثم أصبحَ اليهودُ يتكلَّمون في قتله، فأَذِنَ ﷺ في قتل اليهود».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قصة مقتل كعب بن الأشرف جاءت مفصلة مطولة في الصحيحين[3].

٢ ـ وقد بين المؤلف أسباب قتله بما يغني عن إعادته، وقال الإمام المازري:

---

(١) يشبب: يتغزل ويذكر المحاسن.

(٢) الأطم: الحصن.

(٣) صحيح البخاري «٤٠٣٧»، صحيح مسلم «١٨٠١».

«إنَّما قُتل كعب على هذه الصّفة لأنـه نقض عهد النبي ﷺ وهجـاه وسبّه وعاهده أن لا يُعين عليـه أحداً، وجـاءه مع أهل الحرب مُعيناً عليه، وقد أشكل قتله على هذه الصفة على بعضهم ولم يعرف هذا الوجه، والجواب ما قلناه»[١].

٣ ـ وكان حادثة قتله قبل غزوة أحد، في ربيع الأول من السنة الثالثة[٢].

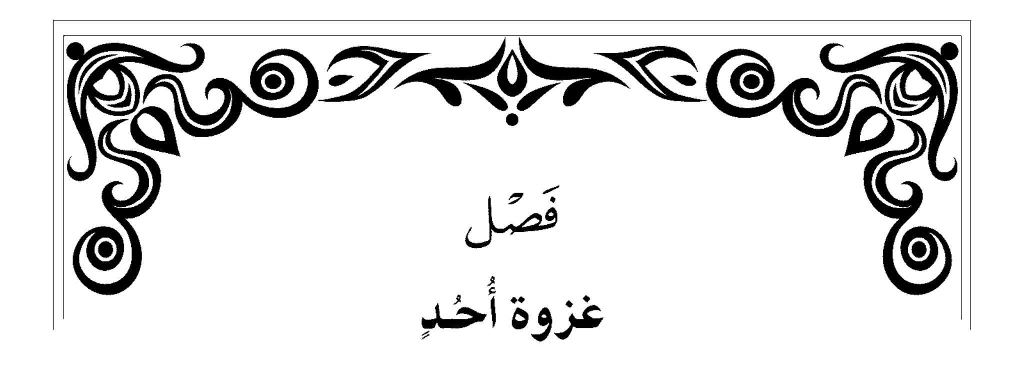
٤ ـ وقولـه: «**فأذن رسـول الله ﷺ في قتـل اليهود**»: المقصود بهم المحاربين وناقضي العهود منهم، من أمثال كعب بن الأشرف، بدليل أن النبي ﷺ لم يتعرض لبقية يهود إلا بعد نقضهم العهد كما سيأتي في حوادث السيرة.

❒ ❒ ❒

---

(١) المعلم للمازري ٣/ ٤١.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٢٤.



فَصل
غزوة أُحُدٍ

قال المصنف: «وهي وقعةٌ امتحنَ اللهُ ﷻ فيها عبادَهُ المؤمنينَ واختبرهُم، وميّزَ فيها بين المؤمنينَ والمنافقينَ. وذلك أن قريشاً حين قَتَلَ الله سَرَاتَهم[1] ببدر، وأصيبوا بمصيبةٍ لم تكن لهم في حسابٍ، ورأَسَ فيهم أبو سفيان بن حرب لعدم وجود أكابرهم، شرع يجمّع قريشاً ويؤلّب على رسُولِ الله ﷺ وعلى المسلمينَ، فجمّع قريباً مِن ثلاثةِ آلافٍ من قريشٍ والحلفاء والأحابيش[2].

وجاؤوا بنسائهم لئلّا يفرُّوا، ثم أقبلَ بهم نحو المدينةِ، فنزلَ قريباً من جبل أُحد بمكان يقال له: عَيْنَيْنِ[3]، وذلك في شوال من السنةِ الثالثة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ اتفق علماء السيرة على وقوع هذه الغزوة في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة[4]، واختلفوا في تحديد اليوم، والأشهر أنه: يوم السبت

---

(١) أشرافهم.

(٢) الأحابيش: أحياء عربية بجانب مكة كانت متحالفة مع قريش، سموا بهذا الاسم لتحبشهم وهو التجمع.

(٣) عينان: جبل بالمدينة، قريباً من جبل أحد، والذي سمي بعد المعركة بجبل الرماة.

(٤) قال ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٤٦: «باتفاق الجمهور، وشذَّ من قال سنة أربع».

للنصف من شوال[1].

٢ ـ وقد كان لهذه الغزوة أسبابٌ عديدة، من أهمها كما أشار المصنف: أن قريشاً أرادت الثأر لقتلاها ببدر، وردُّ اعتبارها وهيبتها أمام العرب، وقد استعانت على تجهيز الجيش بأموال العير التي نجت يوم بدر.

٣ ـ وما ذكره المصنف من عدد جيش قريش هو المتفق عليه بين عامة أهل السير، وقد رواه البيهقي عن الزهري مرسلاً بإسناد صحيح[2].

٤ ـ وقوله: «**ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لعدم وجود أكابرهم**»: قلت: كان أبو سفيان بن حرب من زعماء الدرجة الثانية في قريش، وكان مسؤولاً عن شؤون تجارة قريش الخارجية، لكن بعد مقتل كثير من كبارهم يوم بدر آلت إليه زعامة مكة ورئاستها، وقد كان من أشد الناس عداء للإسلام وتصدياً له حتى إسلامه يوم فتح مكة.

*** مشاورته ﷺ أصحابه في الخروج لقريش أو المكث في المدينة:**

قال المصنف: «واستشارَ رسُولُ الله ﷺ أصحابَه: أيخرجُ إليهم أم يمكثُ في المدينةِ؟ فبادَرَ جماعةٌ من فضلاءِ الصحابةِ ممَّن فاتهُ الخروجُ يومَ بدرٍ إلى الإشارةِ بالخروجِ إليهم، وألـحُّوا عليه ﷺ في ذلك.

وأشار عبدُالله بنُ أُبي بنُ سلول بالمُقام بالمدينةِ، وتابعهُ على ذلك بعضُ الصحابةِ، فألَحَّ أولئك على رسُولِ الله ﷺ، فنهضَ ودخلَ بيته ولبِس لأمَتَه[3]،

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة للعُمري ٢/ ٣٧٨.

(٢) دلائل النبوة ٣/ ٢٢٠، وإسناده صحيح عن الزهري.

(٣) اللأمة: لباس الحرب.

وخرجَ عليهم، وقـد انثنى عزمُ أولئك فقالوا: يا رسُولَ الله! إن أحببتَ أن تمكثَ في المدينةِ فافعل. فقال: «ما ينبغي لنبيّ إذا لبِس لأمَتَه أن يَضَعَها حتى يُقاتل»، وذلك يومُ الجمعة، واستخلفَ على المدينةِ ابنَ أم مكتُوم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ مشاورتـه ﷺ أصحابه في الخروج لملاقاة جيش قريش أم التحصن في المدينة ذكرها ابن إسحاق[١] في السيرة، وعلقها البخاري في الصحيح[٢]، وأخرجها أحمد في المسند بإسناد صححه ابن حجر[٣].

٢ ـ وقـد كان رأي عبدالله بن أبي بن سلول ـ رأس المنافقين ـ موافقاً لرأي النبي ﷺ، لكنـه لسبب وهـدف مختلف، فقـد كان يريـد عدم المشاركة في القتال دون أن يحس بـه أحد، وهذا إنما يتحقق لـه إذا كانت المعركة داخل أزقـة المدينة وليس خارجها.

٣ ـ وفي الحادثـة دليل على الأخذ بمبدأ الشورى فيما لم يرد فيه نص شرعي ملزم، وتقدم لذلك نظائر عدة.

٤ ـ وفيـه أيضاً دلالـة على ضـرورة حـزم القائـد وترك التـردد في الرأي، «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل».

٥ ـ واستخلافـه ﷺ ابن أم مكتـوم على المدينـة ذكره ابن إسحـاق بـدون إسناد[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٣.

(٢) صحيح البخاري ٩/ ١١٢.

(٣) مسند أحمد «١٤٧٨٧»، تغليق التعليق ٥/ ٣٣٢.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٤.

* رجوع عبدالله بن أُبيّ ومن معه أثناء الطريق:

قال المصنف: «وخَرَجَ إلى أُحدٍ في ألفٍ، فلما كان ببعضِ الطريقِ انخزلَ عبدُالله بنُ أُبيّ في نحو ثلاثمائةٍ إلى المدينةِ، واستقلَّ رسُولُ الله ﷺ بمن بقيَ معهُ حتى نزلَ شِعْبَ أُحدٍ، فجعلَ ظهرَهُ إلى أُحدٍ، ونهى الناسَ عن القتالِ حتى يأمرهُم.

فلما أصبحَ تعبَّأَ ﷺ للقتالِ في أصحابِهِ، وكان فيهم خمسونَ فارساً، واستعملَ على الرُّماةِ ـ وكانوا خمسين ـ عبدَالله بن جُبير الأوسيّ، وأمرهُ وأصحابهُ أن لا يتغيَّروا من مكانِهم، وأن يحفظوا ظهورَ المسلمينَ أن يُؤتوا من قِبَلِهِم. وظاهر ﷺ يومئذ بين درعين».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قوله: «**وخرج إلى أُحد في ألف**»: قلت: هذا هو عدد جيش المسلمين عند خروجه من المدينة، هكذا ذكره ابن إسحاق[١]، وهو المشهور عن أهل المغازي كما قال البيهقي[٢].

٢ ـ وخبر رجوع ابن سلول بثلث الجيش ذكره ابن إسحاق وموسى بن عقبة بدون إسناد[٣]، وأصله في البخاري بلفظ: «لمَّا خَرَج النبي ﷺ إلى أُحد، رجع نَاسٌ ممَّن خَرَج معه»[٤]، قال ابن حجر: «هُم عبدالله بن أبيّ بن سلول ومن تبعه»[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٣.

(٢) دلائل النبوة ٣/ ٢٢٠.

(٣) ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٦٤، دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٠٦.

(٤) صحيح البخاري «٤٠٥٠».

(٥) فتح الباري ١/ ٣٠٤.

٣ ـ وأمره ﷺ للرُّمـاة ألا يغيّروا مكانهم ثبت مضمونـه في الصحيح، وفيه أنه قال لهم: «إن رأيتمونا تخطَّفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»[1].

٤ ـ وقوله «**وظاهر بين درعين**» أي لبس درعاً فوق درع. والدرع: قَمِيص مصنوع من حلقات من الحدِيد المتشابك، يُلبس وقاية من السِّلَاح.

٥ ـ ومظاهرتـه ﷺ بين درعين صح فيها أحـاديث، منها حديث الزبير بن العوام عند الترمذي، وحسنه الألباني[2]. وفيه دليل على أن التوكل على الله لا يعني ترك مراعاة الأسباب.

*** تنظيمه ﷺ للجيش واستعراضه للشباب:**

قـال المصنف: «وأعطى اللواء[3] مصعـبَ بن عُميـر، وجعـلَ على إحدى المجنبتين الزُّبيرَ بن العوَّام، وعلى المجنبة الأُخرى المُنذر بن عمرو.

واستعرض الشبابَ يومئذٍ، فأجاز بعضَهم وردّ آخرينَ، وتعبأت قريشٌ أيضاً وهم في ثلاثةِ آلافٍ كما ذكرنا، فيهم مائتا فارسٍ، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليـد، وعلى الميسرة عكرمـة بن أبي جهل، وكان شعار أصحابِ رسُولِ الله ﷺ يومئذٍ: أمِتْ أمِتْ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ في تقسيمه ﷺ للجيش إلى ميمنـة وميسرة، وترتيبه للصفوف، وجعله

---

(١) صحيح البخاري «٣٠٣٩».

(٢) سنن الترمذي «١٦٩٢»، صحيح وضعيف سنن الترمذي ٤/ ١٩٢.

(٣) اللواء: العَلَم وهو دون الراية.

بعض الرماة فوق الجبل، وتوزيعه للأدوار والمهام بين الصحابة دليل على ما كان يتمتع به ﷺ من مهارة حربية وبراعة عسكرية فائقة.

٢ ـ وقوله: «**واستعرض الشباب يومئذ، فأجاز بعضهم وردّ آخرين**»: قلت: قَبِلَ منهم اثنين، وردَّ نحو العشرة[١]، وفي الصحيحين أن عبدالله بن عمر ممن رُدَّ يومها[٢].

٣ ـ وفي رده ﷺ لغير البالغين يوم أحد دليل على رحمته ﷺ وشفقته بالأطفال حتى وإن كانت حرباً عادلة، لا كما يفعله تجَّار الحروب اليوم الذين لا يتوانون عن استغلال الأطفال في حروبهم الدامية والزج بهم في أتونها!!

٤ ـ وقول المصنف: «**وكان شعارهم يومئذ أَمِتْ أَمِتْ**» بالتكرار، المراد بالشعار: ما يُجعل في الحرب علامة بين أفراد الجيش من الكلمات، حتى يعرف بها الرجل رفيقه، وهذا الشعار ذكره كتاب السيرة بدون إسناد[٣].

*** مخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ:**

قال المصنف: «وكانت الدولةُ أولَ النهارِ للمسلمينَ على الكفارِ، فانهزموا راجعينَ حتى وصلُوا إلى نسائهم، فلما رأى ذلك أصحابُ عبدِالله بنِ جُبير قالوا:

---

(١) عيون الأثر ٢/ ١٣.

(٢) صحيح البخاري «٤٠٩٧»، صحيح مسلم «١٨٦٨».

(٣) ينظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٦٨، جوامع السيرة ص١٦٠، ووهم د. مهدي زرق الله في كتابه السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٣٦٧ فعزاه إلى مسند أحمد وأبي داود والحاكم وغيرهم، وهذا خطأ فإن المصادر المحال إليها تتحدث عن غزوة أخرى ليست بغزوة أحد!!

يا قومُ، الغنيمة الغنيمة. فذكَّرهم عبدُالله بن جُبير تقديمَ[1] رسُولِ الله ﷺ إليه في ذلك، فظنوا أن ليس للمشركينَ رجعة، وأنهم لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، فذهبوا في طلبِ الغنيمة.

وكرَّ الفرسانُ من المشركينَ فوجدوا تلك الفُرجة قد خلت من الرُّماة فجازوها وتمكنوا، وأقبل آخرُهم، فكان ما أرادَ اللهُ تعالى كونُه، فاستشهد من أكرمهم الله بالشَّهادةِ من المؤمنين، فقُتِل جماعة من أفاضل الصحابة، وتولّى أكثرُهم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حاصل هذا أن معركة أحد مرّت بثلاث مراحل؛ ففي بداية المعركة حقق المسلمون نصراً كبيراً ضد المشركين، حتى إن المشركين ولّوا هاربين، وأخذ المسلمون في جمع غنائمهم.

لكن بعد أن تخلَّى أكثر الرماة عن أماكنهم وخالفوا وصيّة رسول الله ﷺ لهم، تمكن المشركون من الالتفاف عليهم من خلفهم، وإحداث نكسة للمسلمين أدت إلى اضطراب أمرهم وقتل كثير منهم.

وفي المرحلة الأخيرة أخذ المسلمون يستعيدون السيطرة مرة أخرى ويقاتلون ببسالة، حتى حال اقتراب الليل بين الفريقين دون أن يحقق أحدهما نصراً حاسماً على الآخر.

وقد خاف المشركون أن ينقلب الأمر ضدهم، ويحقق المسلمون نصراً قوياً فكفُّوا عن القتال وانصرفوا.

---

(١) يقصد بالتقديم: ما أخذه النبي ﷺ من العهد عليهم ألا يبرحوا مكانهم.

٢ ـ وقصة عبدالله بن جبير مع الرماة وهزيمة المشركين في أول المعركة ثم استشهاد سبعين من المسلمين كله ثابت ومخرج في الصحيح[(١)].

٣ ـ وقوله: «**وقُتل جماعة من أفاضل الصحابة**»: سيأتي تسمية بعضهم في كلام المصنف.

٤ ـ وقوله: «**وتولّى أكثرهم**»: قلت: سببه: ما بلغهم من إشاعة مقتل النبي ﷺ. ثم إن تعبير المصنف هذا فيه نظر، لأن الذين فرّوا وتولوا حقيقة من المعركة كانوا قلّة، وأما أكثرهم فقد اضطرب أمرهم وجلسوا حيارى قد أصابهم الذهول لا يدرون ما يصنعون.

وقد أوضح المسألة الحافظُ ابنُ حجر فقال: «الواقع أن الصحابة صاروا ثلاث فرق (بعد الهزيمة)؛ فرقة استمروا في الهزيمة إلى قرب المدينة، فما رجعوا حتى انفض القتال، وهم قليل... وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبي ﷺ قُتِل فصار غاية الواحد منهم أن يذبّ عن نفسه... **وهم أكثر الصحابة**، وفرقة ثبتت مع النبي ﷺ، ثم تراجع إليه القسم الثاني شيئاً فشيئاً لما عرفوا أنه حي»[(٢)].

٥ ـ ثم إن الصواب أن المشركين لم يحققوا نصراً بالمعنى العسكري في هذه المعركة، فهم لم يغنموا شيئاً، ولم يحتلّوا أرضاً، ولم يأسروا مسلماً، ولم يقتلوا القائد، وكل ما استطاعوا صنعه هو الثأر لقتلاهم ببدر مع قتل من **قُتل** منهم يومها!!

*** إصابته ﷺ في المعركة وإشاعة مقتله:**

قال المصنف: «وخَلَصَ المشركونَ إلى رسُولِ الله ﷺ فجُرحَ في وجههِ الكريمِ،

---

(١) صحيح البخاري «٣٠٣٩، ٤٠٤٣».

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٦٢ باختصار.

وكُسرت رَبَاعيته[1] اليمنى السُّفلى بحَجَرٍ، وهُشِمَت البيضة[2] على رأسه المقدَّس، وقُتل مصعب بن عمير ﷺ بين يديه، ونشبت حلقتان من حِلَق المغْفر[3] في وجهه ﷺ، فانتزعهما أبو عُبيدة بن الجرَّاح ﷺ، وعضَّ عليهما حتى سقطت ثنيّتاه، وترَّسَ أبو دُجانة سِمَاك بن خَرَشَة عليه ﷺ بظهره، والنبلُ يقعُ فيه، وهو لا يتحرك ﷺ، ورمى سعدُ بنُ أبي وقاص ﷺ يومئذٍ رمياً مسَّدداً مُنْكئاً، فقال له رسُولُ الله ﷺ: «ارم فداكَ أَبي وأُمي»، وأُصيبت يومئذ عينُ قتادة بن النعمان الظفريّ، فأتى رسُولَ الله ﷺ فردَّها عليه الصلاة والسلام بيده الكريمة، فكانت أصحَّ عينيه وأحسنَها.

وصرخَ الشيطانُ ـ لعنه الله ـ بأعلى صوته: إن محمداً قد قُتل، ووقعَ ذلك في قلوبِ كثير من المسلمينَ، وتولَّى أكثرُهم، وكان أمر الله».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ ما ذكره المصنف هنا هو بعضٌ مما قدمه صحابة رسول الله ﷺ من تضحيات عظيمة وبطولات خالدة في المعركة، وثمة مواقف أخرى تركناها اختصاراً.

٢ ـ وجرحُ وجه النبي ﷺ، وكسرُ رباعيته، وهشْمُ البيضة فوق رأسه الشريف، كلُّه مخرج في الصحيحين[4]. والمراد بكسر ثنيته: ذهاب قطعة منها،

---

(١) الرباعية: السنّ بين الثنية والناب، وهما اثنان في الأعلى، واثنان في الأسفل.

(٢) البيضة: الخوذة التي يلبسها الفارس على رأسه.

(٣) حلقات تنسج من الدروع على قدر الرَّأْس تلبس تَحت القلنسوة.

(٤) صحيح البخاري «٢٩١١»، صحيح مسلم «١٧٩٠».

وليس قلعها من أصلها كما نبّه عليه الحافظ ابن حجر[1].

٣ ـ وقوله: «**ونشبت حلقتان من حِلَق المغفر في وجهه ﷺ، فانتزعها أبو عبيدة بن الجراح**»: أخرجه أبو داود الطيالسي من حديث عائشة رضي الله عنها بإسناد ضعيف[2].

٤ ـ وتتريس أبي دجانة عليه ﷺ من النبل ذكره ابن إسحاق بدون إسناد[3].

وردّه ﷺ عين قتادة بن النعمان إلى مكانها بعد أن قلعت ذكره ابن إسحاق من مرسل عاصم بن عمر بن قتادة[4].

٥ ـ وتفدية النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص بأبويه يوم أحد مخرج في الصحيحين[5].

٦ ـ وصرخة الشيطان بأن «محمداً قد قُتل» مخرج في مسند أحمد بإسناد صحيح[6].

٧ ـ وفي لبسه ﷺ للخوذة والمغفر في المعركة دليل على مشروعية الأخذ بالأسباب المادية وأنه لا يتنافى مع كمال التوكل على الله تعالى.

٨ ـ كما دلت الحادثة على فضل أصحاب رسول الله ﷺ وما بذلوه من

---

(١) فتح الباري ٧/ ٣٦٦.

(٢) مسند أبي داود الطيالسي «٦»، وفي سنده إسحاق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٢.

(٤) المصدر السابق ٢/ ٨٢.

(٥) صحيح البخاري «٤٠٥٥»، صحيح مسلم «٢٤١٢».

(٦) صحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند «٢٦٠٩».

تضحيات جسيمة في سبيل حمايته ﷺ وإعلاء كلمة الإسلام.

٩ ـ كذلك يؤخذ من الحادثة خطورة نشر الإشاعات والأراجيف ووجوب الحذر منها، كما ظهر ذلك في الإشاعـة التي أطلقها إبليس لعنه الله بأن «محمداً قد قُتل» حتى أصيب المسلمين بالذهول والفزع الشديد.

١٠ ـ كما دلت الحادثة على شؤم المعاصي وأثرها السيئ ليس على أصحابها فحسب، بل وعلى من حـولهم أيضاً، فإن المعاصي تصيب الطالح والصالح جميعاً في الدنيا، كما أصيب المسلمون يوم أحد بسبب مخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ.

١١ ـ ومـع كل مـا فعله المشركـون برسـول الله ﷺ يوم أحـد فإنـه لم يدع عليهم، بل لقـد طمع في هـدايتهم وإسلامهم، وقـال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[١].

*** محاولة أُبيّ بن خَلَف قتل رسول الله ﷺ:**

قـال المصنف: **«وأقبلَ رسُولُ الله ﷺ نحـو المسلمينَ، فكان أولَ من عرَفـه تحت المِغْفَر كعبُ بن مالك ﷺ، فصاح بأعلى صوته: يا معشرَ المسلمين، أبشروا، هذا رسُولُ الله ﷺ! فأشار إليه ﷺ أن اسكت.**

واجتمعَ إليه المسلمونَ، ونهضوا معهُ إلى الشِّعب الذي نزل فيه، فلما أسندوا في الجبل، أدركـه أُبيّ بن خَلَفٍ على جـواد، زعم الخبيثُ أنـه يقتلُ رسُولَ الله ﷺ، فلمّا اقتربَ تناولَ رسُولُ الله ﷺ الحربة من يد الحارث بن الصّمة فطعنه بها، فجاءت في تَرْقُوته، ويَكِرُّ عدوّ الله منهزماً، فقال له المشركونَ: والله ما بك من بأسٍ، فقال:

---

(١) أخرجـه ابن حبان في صحيحـه «٩٧٣»، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقـه لصحيح ابن حبان.

والله لو كان مـا بي بأهلِ ذي المجازِ[1] لماتُوا أجمعونَ، إنه قال لي: إنه قاتلي، ولم يزل به ذلك حتى مات بِسَرِف[2] مرجِعَه إلى مكة لعنه الله».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قـول المصنف أن أول من عـرف رسول الله ﷺ تحت المغفر كعـب بن مالك أخرجه الطبراني بإسناد رجاله ثقات[3].

٢ ـ وحادثة طعن رسول الله ﷺ لأُبي بن خلَف مخرجة عند ابن سعد بإسناد قوي مرسل[4].

٣ ـ ولقـد كان لخبر حياة النبي ﷺ بعـد إشاعـة مقتله أثراً عظيمـاً في رفع معنويات الصحابة وعودتهم مرة أخرى للقتال والالتفاف حوله.

*** استشهاد سبعين من أصحاب النبي ﷺ:**

قال المصنف: «وأرادَ ﷺ أن يعلوَ صخرةً هناك، فلم يستطع لما به ﷺ، ولأنه ظاهرَ يومئذٍ بين درعين، فجلس طلحةُ تحته حتى صَعِدها، وحانت الصلاةُ، فصلّى جالساً، ثم مـال المشركون إلى رحـالهم، ثم استقبلوا طريق مكـة منصرفينَ إليها، وكان هذا كله يومَ السبت.

واستُشهد يومئذٍ من المسلمين نحو السبعين، منهم: حمزةُ عمُّ رسُولِ الله ﷺ قتله وحشيٌ مولى بني نوفـل، وعبدالله بن جَحْش، ومصعب بن عمير، فدفنهم في

---

(١) من أسواق العرب المشهورة في الجاهلية، كان قريباً من عرفة.

(٢) واد شمال مكة على طريق المدينة، على بعد (١٢) كيلاً.

(٣) معجم الطبراني الأوسط «١١٠٤»، وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ١١٢: رجاله ثقات.

(٤) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٥ من مراسيل سعيد بن المسيب، ومراسيله قوية.

دمائهم وكلومهم، ولم يُصَلّ عليهم يومئذٍ.

وفرّ يومئذ من المسلمينَ جماعةٌ من الأعيان، منهم عثمانُ بنُ عفان ﵁، وقد نصَّ الله سبحانه على العفو عنهم، فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾[آل عمران: ١٥٥]. وقُتل يومئذٍ من المشركينَ اثنانِ وعشرونَ.

وقد ذكر سبحانهُ هذه الوقعة في سورةِ آلِ عمرانَ حيث يقولُ: ﴿ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[آل عمران: ١٢١]، الآيات».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ جلوسه ﷺ فوق ظهر طلحة بن عبيدالله حتى صعد الصخرة مخرج عند الترمذي بإسناد حسن، وفيه أن النبي ﷺ قال بعدها: أوجب طلحة[١]، أي وجبت له الجنة.

٢ ـ وقوله: «**واستُشهد يومئذٍ من المسلمين نحو السبعين**»: أخرجه البخاري في الصحيح[٢].

٣ ـ وقصة قتل وحشي بن حرب لحمزة ﵁ مخرجة في صحيح البخاري، وفيها أن جُبير بن مُطعم قال له: «إن قتلت حمزة بعمّي فأنت حرٌّ»[٣].

---

(١) سنن الترمذي «١٦٩٢»، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٤/ ١٩٢.

(٢) صحيح البخاري «٣٩٨٦»، «٤٠٧٨».

(٣) صحيح البخاري «٤٠٧٢».

٤ ـ وترك النبي ﷺ الصلاة على شهداء أحد وترك تغسيلهم ثابت في صحيح البخاري[1].

قال الإمام الشافعي: «جاءت الأخبار كأنها عيان من وجوه متواترة أن النبي ﷺ لم يصلّ على قتلى أحد»[2].

٥ ـ وقد دل ترك النبي ﷺ الصلاة على شهداء أحد ودفنهم في دمائهم على أن شهيد المعركة في حرب الكفار لا يصلّى عليه ولا يغسل، وهو قول جمهور العلماء[3].

٦ ـ وقوله: «**وقُتل يومئذ من المشركين اثنان وعشرون**»: هذا قول ابن إسحاق، وقال موسى بن عقبة: كانوا ستة عشر رجلاً، وكلا القولين بدون إسناد[4].

❒ ❒ ❒

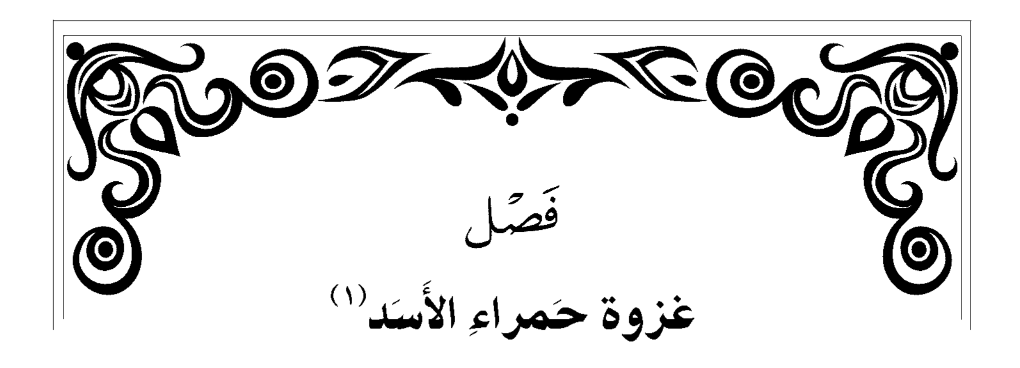
---

(١) صحيح البخاري «١٣٤٣».

(٢) فتح الباري ٣/ ٢١٠.

(٣) المجموع للنووي ٥/ ٢٦٤.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢٩، دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٨٠.



فَصل

غزوة حَمراءِ الأَسَد[1]

قـال المصنف: «ولَّما أصبـحَ يومُ الأحـدِ، ندبَ رسُـولُ الله ﷺ المسلمينَ إلى النهوضِ في طلبِ العدوّ، إرهاباً لهم، وهذه غزوة حَمراء الأَسَد، وأَمَرَ ألَّا يخرجَ معهُ إلَّا من حَضَر أُحـداً، فلم يَخرج إلَّا من شَهِدَ أُحـداً، سوى جابرِ بنِ عبـدِالله، فإنه كان أبوه استخلفهُ في مهماته، فقُتِل أبوه يومَ أُحدٍ، فاستأذنَ رسُولَ الله ﷺ في الخروجِ إلى حَمراء الأَسَد، فأذن لهُ.

فنَهضَ المسلمونَ كما أمرهم ﷺ، وهم مُثقلونَ بالجراحِ، حتى بلغَ حَمراءَ الأَسَد، وهي على ثمانيـة أميال مِن المدينـةِ، فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٧٢]».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ غـزوة حمراء الأسد ليست غـزوة مستقلة وإنمـا هي تابعة لغزوة أُحد وفصلاً من فصولها.

٢ ـ وحاصل هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ صباح الغد من معركة أُحد كان قد خشي أن يفكر المشركون بالكرَّة مرة أخرى فيهاجموا المدينة ليتمموا ما حققوه

---

(١) حمراء الأسد: جبل أحمر جنوب المدينة على مسافة (٢٠) كيلاً على طريق مكة.

من غلبة، فأراد ﷺ أن يبادرهم بالغزو والمطاردة حتى يأمن رجوعهم وعودتهم.

٣ ـ وقد وردت إشارة إلى هذه الغزوة في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما أصاب رسـول الله ﷺ ما أصاب يوم أحـد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: «من يذهب في إثرهم» فانتدب منهم سبعون رجلاً»[1].

٤ ـ وفي خروجه ﷺ إلى هذه الغزوة مظهر عظيم من مظاهر الشجاعة وتحمل المشاق في سبيل الله وعدم الاستسلام لأي شكل من أشكال الضعف والهزيمة.

٥ ـ وفي استجابة الصحابة لنداء النبي ﷺ وخروجهم وهم مثقلون بالجراح دليل على فضلهم وقوة إيمانهم وتفانيهم في طاعة الله ورسله ﷺ.

*** عزم قريش على مهاجمة المدينة ورجوعهم عن ذلك:**

قال المصنف: «ومرَّ مَعْبَدُ بنُ أبي مَعْبَد الخُزاعي على رسُولِ الله ﷺ وأصحابِه فأجـازَه حتى بَلَغَ أبا سفيان والمشـركينَ بالرَّوحـاء، فأخبرهـم أن رسُـولَ الله ﷺ وأصحابَه قد خرجوا في طلبِهم، ففتَّ ذلك في أعضادِ قريشٍ، وكانوا أرادوا الرجوعَ إلى المدينة فثناها ذلك واستمروا راجعين إلى مكة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ خبر معبد الخزاعي ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[2].

٢ ـ كذلك ذكر ابن إسحاق بدون إسناد أن النبي ﷺ كان قد أقام في حمراء الأسد ثلاثة أيام؛ الاثنين والثلاثاء والأربعاء[3].

---

(١) صحيح البخاري «٤٠٧٧».

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٢.

٣ ـ ولا شك أن غزوة حمراء الأسد قد حققت أهدافها المرسومة حيث أوقع الله ﷻ الرعب في قلوب المشركين فعدلوا عن غزو المدينة وانصرفوا إلى مكة، كما أنها أظهرت المسلمين بمظهر القوة والقدرة على القتال بعدما أصابهم في أحد مما أخاف الأعراب خارج المدينة، والمنافقين واليهود داخلها.

❒ ❒ ❒



فَصْل

بَعْث الرَّجيع[1]

قال المصنف: «ثم بَعَثَ ﷺ بعد أُحدٍ بَعْثَ الرَّجيع، وذلك في صَفَر من السنةِ الرابعةِ، وذلك أنه ﷺ بَعَثَ إلى عَضَل والقَارَّة بسؤالهم رسُولَ الله ﷺ ذلك حين قدموا عليه وذكروا أن فيهم إسلاماً.

فبَعَثَ ستة نفرٍ في قول ابن إسحاق[2]، وقال البخاري في صحيحه كانوا عشرة[3]. وقال أبو القاسم السهيلي: وهذا هو الصحيح[4]. وأَمَّرَ عليهم مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَوي رضي الله عنه. ومنهم خُبَيب بن عَديّ، فذهبوا معهم.

فلما كانوا بالرَّجيع، وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بالهَدْأَة[5] غدروا بهم، واستصرخوا عليهم هُذيلاً، فجاؤوا فأحاطوا بهم فقتلوا عامتهم، واستُأسر منهم خُبَيبُ بن عَديّ ورجلٌ آخر وهو زيد بن الدَّثِنَّة فذهبوا بهما فباعوهما بمكة؛ وذلك

(١) الرجيع: ماء يقع شمال مكة على مسافة سبعين كيلاً، سميت به الحادثة لوقوعها بالقرب منه.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٦٩.

(٣) صحيح البخاري «٣٠٤٥».

(٤) الروض الأنف ٦/ ١٨٤.

(٥) موضع بين مكة وعسفان.

بسبب ما كانا قتلا من كفار قريش من يوم بدرٍ.

فأمـا خُبَيب ﷺ فمكث عنـدهم مسجوناً، ثم أجمعوا لقتله فخرجوا به إلى التنعيم[1] ليصلبوه، فاستأذنَهم أن يُصلّي ركعتين فأذنوا له: فصلاهما، ثم قال: والله لولا أن تقولوا أن ما بي جَزَعٌ لزدت، ثم قال:

ولســتُ أُبــالي حــينَ أُقتــلُ مُســلماً   على أي جنْــبٍ كــان لله مصـــــرعي

وذلـــك في ذاتِ الإلـــهِ وإن يَشَـــأْ   يُبَارِكْ على أوصالِ شِلْــوٍ مُـمَـــزَّعِ

وقد قال له أبو سفيان: أيسرُّك أن محمداً عندنا تُضربُ عنقُه، وأنك في أهلِك؟ فقالَ: والله مـا يسُرني أني في أهلي وأن محمداً في مكانـه الذي هو فيـه تُصيبه شوكة تُؤذيه.

ثم وكلوا به من يحرسه، فجـاء عمرو بن أمية فاحتمله بخدعة ليلاً فذهب به فدفنه. وأما زيد بن الدَّثِنة ﷺ فابتاعه صفوانُ بنُ أمية فقتله بأبيه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ ذكر المصنف أن حادثة الرجيع كانت في صفر سنة أربع من الهجرة، بينما ذكر غيره أنها كانت في أواخر سنة ثلاث[2]، فالله أعلم.

٢ ـ وحاصل الحادثـة أن وفداً من عرب عَضَل والقارَّة كانوا قد جاءوا إلى النبي ﷺ وأخبروه أنهم يرغبون في الـدخول في الإسلام، وأنهم بحاجة أن يرسل معهم من يعلّمهم أمـور الدين وشرائع الإســلام، فأرسـل النبي معهم نفراً مـن

---

(١) مكان معروف بمكة، وهو أدنى الحلّ.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٦٩، فتح الباري ٧/ ٣٨٠.

أصحابه فغدروا بهم في الطريق.

٣ ـ وقد ساق الحادثة بطولها الإمـام البخاري في الصحيح[١]، لكن روايته تقول إن النبي ﷺ أرسل هؤلاء «سريّة عيناً»، أي عيوناً يأتوه بأخبار قريش.

وربما يجمـع بين الروايتين بأن النبي ﷺ أراد بعثهم عيوناً فوافق مجيئ النفر في طلب من يفقههم فبعثهم لذلك.

٤ ـ وفي الحادثـة دليل على سنيّة الصلاة عنـد القتل، حيث فعلها خبيب في حياة النبي ﷺ ولم ينكرها[٢]. وقد بوَّب عليه البخاري بقوله: باب «من ركع ركعتين عند القتل»[٣].

٥ ـ وفي جواب خُبيب بن عَديّ[٤] لأبي سفيان دليل على عظيم محبة الصحابة للنبي ﷺ وعظم تضحيتهم من أجله.

❐ ❐ ❐

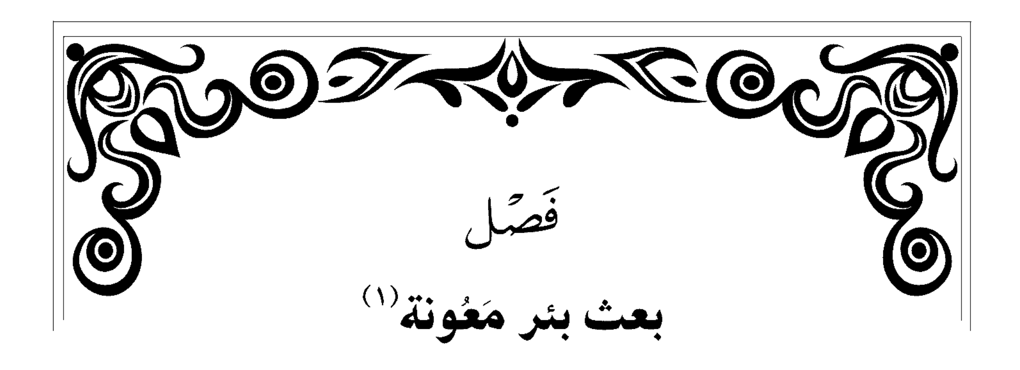
---

(١) صحيح البخاري «٣٠٤٥».

(٢) إرشاد الساري ٦/ ٣١٤.

(٣) صحيح البخاري قبل حديث «٣٠٤٥».

(٤) وقيل إن القائل: زيد بن الدّثنّة كما في جوامع السيرة لابن حزم ١/ ١٧٨.



فَصل

بعث بئر مَعُونة[1]

قال المصنف: «وفي صَفَرَ هـذا بَعَثَ إلى بئرِ مَعُونـة أيضاً، وذلك أن أبا بَراء عامر بن مـالك المدعو مُلاعب الأسنـة، قَدِمَ على رسُـولِ الله ﷺ المدينة فدعاه إلى الإسلامِ فلم يُسلم ولم يُبعد. فقال: يا رسُولَ الله! لو بعثتَ أصحابَك إلى أهلِ نجدٍ يـدعونهم إلى دينكَ لرجـوتُ أن يجيبوهم، فقـال: «إني أخافُ عليهم أهلَ نجدٍ»، فقال أبو بَراء: أنا جارٌ لهم.

فبَعَثَ ﷺ فيمـا قالـه ابن إسحـاق: أربعيـن رجـلاً مـن الصحابة[2]، وفي الصحيحين: سبعيـن رجلاً[3]، وهـذا هو الصحيح. وأمَّر عليهم المُنذر بن عمرو رضي الله عنهم أجمعين، وكانوا من فُضلاءِ المسلمينَ وسـادتِهم وقرائِهم، فنهضُوا فنزلُوا بئرَ مَعُونة، ثم بعثوا منها حرام بن مِلْحَان أخا أم سُليم بكتاب رسُولِ الله ﷺ إلى عـدوّ الله عامرِ بن الطُّفيل، فلم ينظُر فيـه، وأمر به فقتله رجلٌ، ضربـه بحربة، فلمَّا خرج الدمُ، قـال: فزتُ وربّ الكعبـةِ. واستنفرَ عـدوُّ الله عامرٌ: بني عامرٍ إلى

---

(١) بئر معونة موضع في نجد على بعد (١٦٠) كيلاً عن المدينة.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٨٤.

(٣) صحيح البخاري «٤٠٨٤»، صحيح مسلم «٦٧٧».

قتال الباقين، فلم يجيبوهُ، لأجـل جوار أبي بَراء، فاستنفر بني سُليم فأجابته عُصيةُ ورِعْـلٌ وذكـوانَ، فأحـاطوا بأصحـابِ رسُـولِ الله ﷺ، فقـاتلوا حتى قُتلوا عـن آخرهم ﵃، إلا كعب بن زيـد من بني النجار فإنه ارتُثَّ[1] من بين القتلى. وكان عمرو بن أميـة الضمريّ والمُنذر بن محمـد بن عقبة في سَرحِ المسلمين، فرأيا الطيرَ تحومُ على موضعِ الوقعـة، فنزل المُنذر بن محمـد هذا فقاتل المشركين حتى قُتل مع أصحابه، وأُسر عمرو بن أميـة، فلما أخبر أنـه من مُضَر جَزَّ عامرٌ ناصيتـه وأعتقه فيما زعم عن رقبة كانت على أمّه.

ورجع عمرو بن أُمية، فلمَّا كان بالقرقرة من صَدر قناة نزلَ في ظلّ، ويجيء رجلانِ من بني كلاب، وقيل من بني سُليم فنزلا معه فيه، فلما ناما فتك بهما عمرٌو وهو يرى أنه قـد أصاب ثأراً من أصحابِـه، وإذا معهما عهْد من رسُـولِ الله ﷺ لم يشعر به.

فلما قَدِمَ أخبرَ رسُـولَ الله ﷺ بمـا فعل، قال: «لقد قتلتَ قتيلين لأدينَّهما». وكان هذا سببُ غزوة بني النَّضير هذا الصحيح».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حادثة بئر معونة مخرجـة في الصحيحين مع زيادات ونقص عن سياق المصنف[2].

٢ ـ وقد كان بين هذه المأساة وبين مأساة الرجيع السابقة أيامٌ قليلة[3].

---

(١) حمل من المعركة جريحاً وبه رمق.

(٢) انظر: جميع ألفاظ الصحيحين في جامع الأصول «٦٠٨٧».

(٣) فتح الباري ٧/ ٣٨٠.

٣ ـ وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ ظلَّ يقنتُ شهراً يدعو على تلك القبائل التي غدرت بالقرّاء، وكان يلعنهم ويقول كما في لفظ مسلم: «اللهم العن لحيانَ ورِعْلاً وذكْوان، وعُصيَّةَ عَصَت الله ورسوله، قال: ثم بلغَنَا: أنه ترك ذلك لما أنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]»[١].

٤ ـ وقد دلت الحادثة على استحباب القنوت في الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة أو بليّة أو ضرر ظاهر والعياذ بالله، هذا قول جمهور العلماء[٢].

٥ ـ كما دلت على جواز لعن الكافرين عموماً، وأما الكافر المعيّن فالجمهور على المنع لهذه الحادثة[٣].

٦ ـ كذلك دلت على عظم ما كان يقدّمه أصحابُ رسول الله ﷺ من تضحيات في سبيل نشر الدعوة إلى الله ﷻ.

٧ ـ ثم إن الله ﷻ سلّط على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه فأهلكه[٤]!!

٨ ـ كما أن في الحادثتين الماضيتين دليل على ما كانت تفيض به قلوب المشركين من حقد وضغينة وغدر تجاه المسلمين.

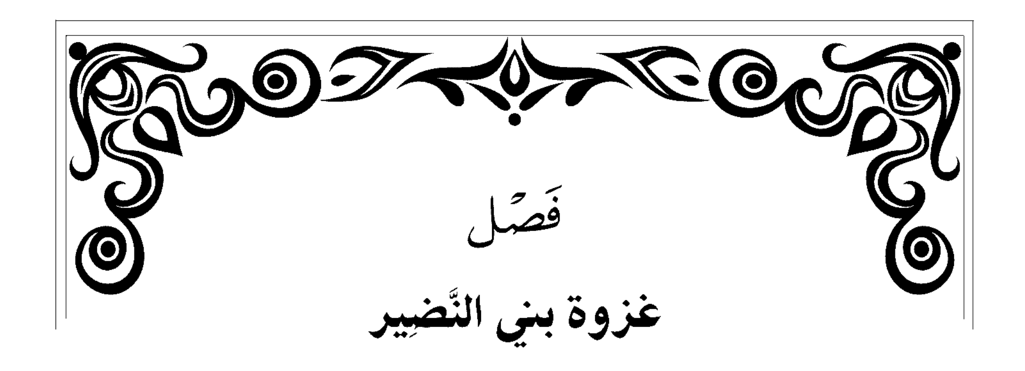


(١) صحيح مسلم «٦٧٥».

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ١٠٠٨.

(٣) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام ٤/ ٥٠٨.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٦٩.



فَصل

غزوة بني النَّضِير

قال المصنف: «ونهَضَ رسُولُ الله ﷺ بنفسهِ الكريمةِ إلى بني النَّضير ليستعينَ على ذَينِك القتيلين لما بينه وبينهم من الحِلْف، فقالوا: نعم. وجلَسَ ﷺ هو وأبو بكرٍ وعمرُ وعليٌّ وطائفةٌ من أصحابه ﷺ تحت جدارٍ لهم، فاجتمعوا فيما بينهم، وقالوا: مَن رجلٌ يُلقي بهذه الرحا[1] على محمدٍ فيقتله؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاشٍ لعنه الله. وأعلمَ اللهُ رسُولَه بما همُّوا به، فنهضَ ﷺ من وقته مِن بين أصحابه، فلم يتناه دون المدينة، وجاء من أخبر أنَّه رآه ﷺ داخلاً في حِيطان المدينة.

فقام أبو بكرٍ ومن معه فاتبعوه. فأخبرهم بما أعلَمه الله مِن أمر يهود، وندبَ الناسَ إلى قتالِهم، فخرجَ، فحاصرهم ستَّ ليالٍ، فتحصَّنوا في آطامهم. فأمر ﷺ بقطعِ نخيلِهم وإحراقها، فسألوا رسُولَ الله أن يُجليهم ويحقِن دماءَهم على أن لهم ما حملت إبلُهم غيرَ السلاح فأجابهم إلى ذلك.

فتحمَّل أكابرُهم كحُييّ بن أخطَب، وسلَّامِ بن أبي الحـُقيق بأهليهم وأموالهم إلى خيبر فدانت لهم، وذهبت طائفةٌ منهم إلى الشام. وفي هذه الغزوة أنزلَ الله سبحانه

---

(١) الرحا: حجران مستديران ثقيلان يطحن بهما الحبوب.

سورة الحشْرِ، وقد كان عبدُالله بن عبَّاس ﷺ يسميها سورة بني النَّضير[1].

وقنت رسـول الله ﷺ شهراً يـدعو على الـذين قتلوا القراء؛ أصحـاب بئر معونة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حادثـة بني النضير أورد البخاري ومسلم في الصحيحين أجزاء مفرقة منها، منها: حديث ابن عمر قال: «حاربت النضير، وقريظة، فأجلى بني النضير، وأقر قريظة ومنّ عليهم، حتى حاربت قريظة...»[2]، ومنها حديث ابن عمر قال: «حرَّق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقَطَع...»[3].

٢ ـ والمشهور عنـد أهل المغازي والسير أن هذه الغزوة كانت بعد أُحد في السنة الرابعة من الهجرة[4].

٣ ـ وأما عـن سبب الغزوة فقـد ذكر المصنف أنها كانت بسبب محاولة بني النضير الغـدر برسول الله ﷺ وقتله عندما جاءهم ليستعين بهم على دية الرجلين الذين قتلهما أحد أصحابه خطأً.

وهذا السبب ذكره ابن إسحاق بإسناد مرسل[5]، وذكره البخاري في صحيحه مما يدل على قبوله له وذلك في قوله: «باب حديث بني النضير، ومخرج رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري «٤٠٢٩».

(٢) صحيح البخاري «٤٠٢٨»، صحيح مسلم «١٧٦٦».

(٣) صحيح البخاري «٤٠٣١»، صحيح مسلم «١٧٤٦».

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ١٩٠، طبقات ابن سعد ٢/ ٤٣.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ١٩٠.

إليهم في دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ»[1].

وقد ذكر أهل المغازي لهذه الغزوة أسباباً أخرى، منها: الدس والتحريض، حيث حضّ بنو النضير قريشاً على قتال رسول الله ﷺ، ومنها: إعانتهم لأبي سفيان ابن حرب عندما أغار على أطراف المدينـة بعد بدر فيما عرف بـ «غزوة السويق»، وإمداده بالمعلومات التي يحتاجها عن المسلمين.

فاجتمعت هذه الأسباب كلها فقرر النبي ﷺ وضع حدّ لممارساتهم الإجرامية، وحصارهم وطردهم من المدينة[2].

٤ ـ وأمره ﷺ بتحريق نخل بني النضير وقطعه ثابت في الصحيحين، وقد أنزل بسببه قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[الحشر: ٥][3].

٥ ـ وقـد أراد ﷺ بقطع وتحريق نخيلهم التضييق عليهم حتى يستسلموا، وفيه من الفقه: جواز تحريق شجر العدو وحصونهم إذا ترتبت عليه مصلحة شرعية من النكاية به وإضعافه وهزيمته[4].

٦ ـ وقد كانت مدة الحصار ستّ ليال كما في السيرة لابن إسحاق[5].

٧ ـ وقد ذكر الحافظُ ابنُ حجر أن: «أرض بني النضير كانت مما أفاء الله على

---

(١) صحيح البخاري قبل «٤٠٢٨».

(٢) ينظر السيرة النبوية لمهدي رزق الله ص٤٠٢.

(٣) صحيح البخاري «٢٣٢٦»، صحيح مسلم «١٧٣٦».

(٤) عمدة القاري ١٢/ ١٦٢.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ١٩١، وقوى الرواية أكرم العُمري في السيرة الصحيحة ١/ ٣٠٨.

رسوله وكانت له خالصة، لكنه آثر بها المهاجرين وأمرهم أن يعيدوا إلى الأنصار ما كانوا واسوهم به لما قدموا عليهم المدينة ولا شيء لهم، فاستغنى الفريقان جميعاً بذلك»[1].

٨ ـ وقنوته ﷺ شهراً يدعو على الذين غدروا بالقراء في بئر معونة مخرج في الصحيحين[2].

٩ ـ والمراد أنه كان يدعو عليهم في كل صلاة إذا قال «سمع الله لمن حمده» في الركعة الأخيرة، وفيه دليل على استحباب القنوت عند النوازل والمصائب[3].

*** غزوة ذاتِ الرّقاعِ:**

قال المصنف: «ثم غزا ﷺ غزوةَ ذاتِ الرّقاع، وهي غزوة نجد، فخرج في جمادى الأولى من هذه السنة الرابعة، يريد محارب وبني ثعلبة بن سعد بن غطفان.

واستعملَ على المدينة أبا ذرٍ الغفاري، فسارَ حتى بَلَغَ نخلاً[4]، فلقي جمعاً من غطفان فتوقفوا، ولم يكن بينهم قتالٌ، إلا أنه صلَّى يومئذ صلاة الخوفِ ـ فيما ذكره ابن إسحاق[5] وغيرُه من أهلِ السّيَر».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ المشهور أن هذه الغزوة سمّيت بذات الرّقاع لأن الصحابة كانوا يلفُّون

---

(١) فتح الباري ٦/ ٢٢٧.

(٢) صحيح البخاري «٤٠٨٨»، صحيح مسلم «٣٠٣١».

(٣) زاد المعاد ١/ ٢٩٤.

(٤) نخل: واد تقع فيه بلدة الحناكية اليوم شرق المدينة، على مسافة مائة كيل منها.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٠٦.

فيها على أرجلهم الخرق بعـد أن تنقبت خفافُهم وأقدامُهم، كما صرح بذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه[1].

٢ ـ وبعضهم يسمّيها غزوة نجـد لأنها كانت قِبَل نجـد، وبعضهم يسميها غزوة بني محارب وبني ثعلبة، وهي أسماء القبائل المقصودة بالغزوة.

٣ ـ وقد اختلف في تاريخ هـذه الغزوة اختلافاً كثيراً أشار المصنف لبعضه في الأصل، والمشهور عند أهل السير كما قال ابن سيد الناس[2] أنها كانت في السنة الرابعة بعد غزوة بني النضير.

لكـن رجـح البخـاري وابن حجـر أنها كانت بعـد خيبر، لأدلـة منها: أن أبا مـوسى الأشعري كان قـد حضر هـذه الغزوة وهو إنما قدم على النبي ﷺ بعد خيبر[3].

٤ ـ وكان سبب هـذه الغزوة أن النبي ﷺ كان قـد بلغه أن قبائل من نجـد تجمع الجموع لغزو المدينة فخرج إليهم ﷺ.

ولا يبعد أنه أراد أيضاً الاقتصاص من تلك القبائل التي غدرت بالقراء في بئر معونة.

٥ ـ وكمـا صرَّح المصنف فهذه الغـزوة لم يحصل فيها قتـال، وإنما تقارب الفريقان وخاف بعضهم بعضاً، حتى إن المسلمين صلوا فيها صلاة الخوف.

---

(١) صحيح البخاري «٤١٢٨»، صحيح مسلم «١٨١٦».

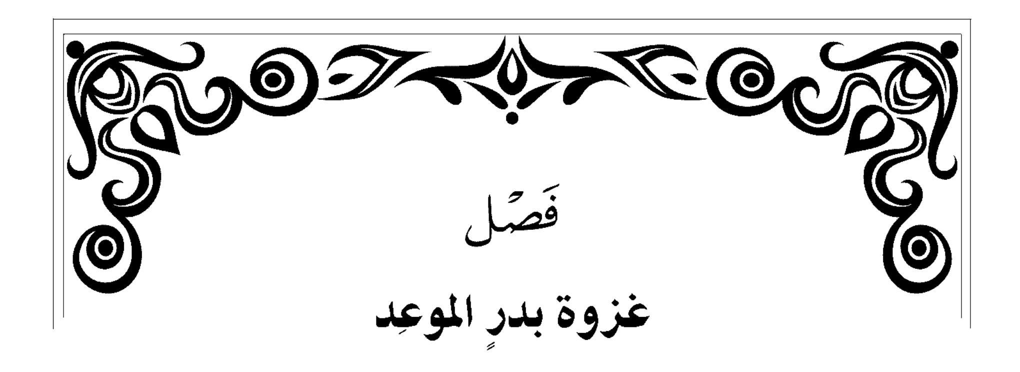
(٢) عيون الأثر ٢/ ٧٨.

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ٧/ ٤١٨.

٦ ـ ومـا ذكره المصنف أن النبي ﷺ استخلف أبا ذر على المدينة فهذا ذكره ابن إسحـاق، أما الواقدي وابن سعد وابن هشام فذكروا أنه استخلف عثمان بن عفان[١].

❒ ❒ ❒

(١) المصدر السابق ٥/ ١٧٥.



فَصْل

غزوة بدرٍ الموعِد

قال المصنف: «وقــد كان أبو سفيان يومَ أُحدٍ عند منصرَفه نادى: موعدُكم وإيَّانا بدرٌ العامَ المُقبل، فأمر رسُولُ الله ﷺ بعضَ أصحابه أن يُجيبه بنعم، فلما كان شعبانُ في هــذه السنة[1] نهضَ رسُولُ الله ﷺ حتى أتى بدراً للموعد، واستخلف على المدينة عبدَالله بنَ عبدالله بن أُبيّ، فأقام هناك ثمانيَ ليالٍ، ثم رجعَ ولم يلق كيداً، وذلك أن أبا سفيان خرجَ بقريشٍ، فلما كان ببعضِ الطريقِ بدا لهم الرجوعُ لأجل جدْب سنتهم فرجعوا، وهذه الغزوة تُسمّى بدراً الثالثة وبدرَ الموعِد».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ غزوة بدر الموعد وتسمّى بدر الثالثة ذكرها ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[2].

٢ ـ اختلف في تاريخ الغزوة، والمشهور أنها كانت في السنة الرابعة كما قال المصنف، وهو قول ابن إسحاق[3].

---

(١) الرابعة.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٠٩.

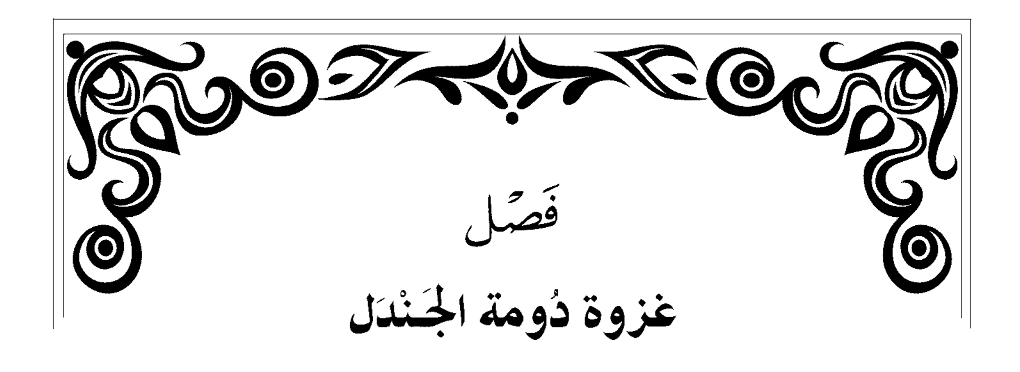
٣ ـ وقـد ذكر المصنف أن سبب رجـوع أبي سفيان بجيش مكة هو جدب الأرض، بينمـا ذكر بعض كتاب السيرة أن أبا سفيان كان كارهاً للقـاء المسلمين وإن كـان يظهر خـلاف ذلك، وأن مسألـة جـدب الأرض مـا كانت إلا ذريعـة للرجوع[١]!!

٤ ـ ولقـد كان لخروج جيش المسلمين وانتظاره ورجـوع جيش قريش أثر كبير في استعادة هيبة المسلمين بعد ما أصابهم في أحد[٢].

❒ ❒ ❒

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٣٨.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٠٢.



فَصْل
غزوة دُومة الجَنْدَل

قال المصنف: «وخـرج ﷺ إلى دُومةِ الجنْـدلِ في ربيع الأول من سنة خمسٍ، ثم رجـعَ في أثناءِ الطريقِ ولم يلقَ حـرباً، وكـان استعملَ على المـدينـة سِبَـاع بـن عُرْفُطَة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ دومة: ضبطها ابن سيد الناس[1] بضم الدال وفتحها، ودومة الجندل: قرية قريبة من تبوك[2].

٢ ـ وقد اتفق علماء المغازي والسير على تاريخ هذه الغزوة في السنة الخامسة، كما ذكره المصنف رحمه الله[3].

٣ ـ وأما سبب الغزوة فقد ذكر علماء السيرة لها سببين؛ الأول: أن النبي ﷺ بلغه أن بدومـة الجندل جمعاً كثيراً وأنهم يظلمون مـن يمرّ بهم من التجار، وأنهم يريـدون أن يدنوا من المدينة، والسبب الثاني: أن النبي ﷺ أراد أن يدنو من الشام

---

(١) عيون الأثر ٢/ ٨١.

(٢) فتح الباري ١/ ١١٨.

(٣) السيرة النبوية لمهدي رزق الله ص٤١٤.

ليفزع قيصر وجنوده[1].

٤ ـ وكما ذكر المصنف فإنه لم يحصل قتال في هذه الغزوة لأن أهل دومة الجندل لما وصلهم خبر اقتراب النبي ﷺ منهم تفرقوا، فلمَّا وصل بساحتهم لم يجد بها أحداً، فأقام أياماً ورجع[2].

❐ ❐ ❐

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٤٢.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٤٨.



فَصْل

غزوة الخَندق

قال المصنف: «فصلٌ يشتملُ على ملخّص غزوةِ الخندقِ التي ابتلى الله فيها عبادَه المؤمنين وزَلْزَلُهم، وثبَّت الإيمانَ في قلوبِ أوليائه وأظهرَ ما كان يُبْطِنه أهلُ النفاق، وفضحَهم وقرَّعهم. ثم أنزل نَصْرَه، ونَصَرَ عبدَه، وهزَمَ الأحزابَ وحدَه، وأعزَّ جُندَه، وردَّ الكفرة بغيظِهم، ووقى المؤمنين شرَّ كيدِهم، وذلك بفضْلِه ومَنّه. وحرّم عليهم شرعاً وقدراً أن يغْزوا المؤمنين بعدها، بل جعلَهم المغلوبين وجعل حزبَه هم الغالبين، والحمدُ لله ربّ العالمين».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ اشتهرت هذه الغزوة بغزوة الخندق نسبة للخندق الذي حفره النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة ليحولوا بين المشركين وبين دخول المدينة.

ويقال لها أيضاً غزوة الأحزاب، نسبة للمشركين الذين تحزبوا وتكالبوا لغزو المدينة.

وقد أشار الإمام البخاري إلى هاتين التسميتين فقال في الصحيح: «باب غزوة الخندق وهي الأحزاب»[1].

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ١٠٧.

٢ ـ وقـد كان جيش المشركين يتألف من قبائل عـدة تحالفت لغزو المدينة، وهم قريش ومن تبعها، وغطفان ومـن تبعها، في نحو عشرة آلاف مقاتل، بقيادة أبي سفيان بن حرب، إضافة إلى يهود بني قريظة بعد نقضهم العهد[1].

٣ ـ وهؤلاء الأحـزاب وإن اشتركـوا والتقوا على حـرب المسلمين في هذه الغـزوة، إلا أن دوافعهم كانت مختلفة، فقريش كانت تـدفعها العـداوة التقليدية للمسلمين، واليهود كان يـدفعهم الحقد والخيانة. وأما غطفان كانوا مجرَّد مرتزقة تجَّار حرب لا أكثر[2]!!

٤ ـ وقد كانت هذه الغزوة كمـا أشار المصنف آخر الغزوات التي تعرض لها المسلمون فـي المدينـة، وبعـدها انتقل المسلمون من مـرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم. ولـذلك صحَّ عنه ﷺ أنه قال بعد انصراف الأحزاب ورجوعهم: «الآن نغزوهـم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[3]، وكان الأمر كمـا أخبر به النبي ﷺ، وهو عَلَمٌ من أعلام نبوته.

*** تأليب بني النضير على حرب المسلمين:**

قال المصنف: «وكانت في سنـةِ خمسٍ في شوّالها على الصحيح من قَولَي أهل المغـازي والسير. وكان سبب غـزوة الخنـدق أن نَفَراً من يهود بني النَّضير الـذين أجلاهم ﷺ من المدينـة إلى خيبر كما قدمنا وهم أشرافُهم: كسلَّام بن أبي الحُقَيْق،

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٥.

(٢) ومما يؤكد ارتزاق غطفان في هذه الحرب أن اليهود كانوا قد أغروهم بإعطائهم تمر خيبر تلك السنة في حال انضموا إلى قريش في غزو المدينة كما في مغازي الواقدي ٢/ ٤٤٣.

(٣) صحيح البخاري «٤١١٠».

وسلَّام بن مِشْكَم، وكنانة بن الرَّبيع وغيرهم، خرجوا إلى قريش بمكة فألَّبوهم على حربِ رسُولِ الله ﷺ ووعـدوهم من أنفسهم النصر، فأجـابوهم، ثم خرجوا إلى غَطَفَان فدعَوهم فأجابوهم أيضاً، وخرجت قريشٌ وقائدُهم أبو سفيان بن حرب، وعلى غطفان عُيينة بن حِصْن، كلُّهم في نحو عشرة آلاف رجلٍ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ عرض المصنف في هذا الموضع من الأصل إلى الخلاف في تاريخ غزوة الخندق، ورجح أنها كانت في شـوال من السنة الخامسة من الهجرة النبوية، وهذا هو قـول جمهور علماء السيرة، وهو المعتمـد كمـا قال الحافظ ابن حجر[١]، وقال الذهبي: هو المقطوع به[٢].

٢ ـ والسبب الذي ذكره المصنف لغزوة الخندق من تحريض يهود بني النضير سبب وجيه بلا ريب، وإن كان الظاهر أن العداوة التقليدية بين قريش والمسلمين، ومحاولة قريش مراراً القضاء على قوة المسلمين هي السبب والدافع الرئيس وراء هذه الغزوة.

٣ ـ وخبر خـروج وفـد يهود النضير إلى مكـة وتحريضهم قـريشاً وغطفان على غزو المدينـة ذكره ابن إسحاق في السيرة بأسانيد عديدة مرسلة يقوي بعضها بعضاً[٣].

٤ ـ وما ذكره المصنف أن عدد جيش الأحزاب كان نحو عشرة آلاف ذكره

---

(١) فتح الباري ٧/ ٣٩٣.

(٢) تاريخ الإسلام ١/ ١٩٦.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٤.

ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[1].

*** إشارة سلمان الفارسي بحفر الخندق:**

قال المصنف: «فلما سمعَ رسُولُ الله ﷺ بمسيرِهم إليه أَمَر المسلمينَ بحفرِ خنـدقٍ يحولُ بين المشركينَ وبين المدينـةِ، وكان ذلك بإشارة سَلْمان الفارسيّ رضي الله عنه، فعمل المسلمونَ فيه مبادرين هجوم الكفار عليهم، وكانت في حفْره آياتٌ مفصلةٌ يطولُ شرحُها، وأعلامُ نبوةٍ قد تواتر خبرُها، فلما كَمُل قَدِم المشركون، فنزلوا حولَ المدينةِ كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾[الأحزاب: ١٠]».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حاصل ما ذكر المصنف هنا أن النبي ﷺ عندما سمع بمسير الأحزاب لغزو المدينة استشار أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق من الجهة الشمالية للمدينـة، وهي الجهة الوحيدة المكشوفة من المدينة أمام الغزاة، إذ كانت بقيـة الجهات محصنة طبيعياً بالحِرَار الوعـرة والأبنيـة المتشابكة التي يصعب على الجيوش الحركة فيها.

٢ ـ وخبر مشورة سلمان الفارسي بحفر الخندق مما أطبق عليه كتاب السيرة، وفي بعض ألفاظه أنـه قـال: «إنا كنا بفارس إذا حـوصرنا خنـدقنا علينا»، لكن لم أقف لهذه المشورة على إسناد[2].

٣ ـ وقـد ورد في بعض الروايات أن طول الخنـدق كان خمسة آلاف ذراع،

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٢١٩.

(٢) ينظر فتح الباري ٧/ ٣٩٣.

أي أقلّ مـن (٣) كيلو، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة إلى عشرة. كما ورد أن النبي ﷺ جعل على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً[١].

٤ ـ واختلف في المدة التي استغرقها حفر الخندق ما بين من يقول ستة أيام ومن يقول شهراً، وبينهما أقوال عدة[٢].

٥ ـ وقد ثبت في الصحيحين اشتراك النبي ﷺ مع أصحابه في حفر الخندق ونقله التراب معهم حتى وارى بياض بطنه[٣].

وفي هـذا صورة من صور تحقيقه ﷺ لمبـدأ العدالـة والمسـاواة بين الحـاكم والرعيـة في تحمّل المسؤوليات والمهام، حيث لم يكتف بالتوجيه العام أو المشاركة الرمزية كما يفعل القادة عادة.

٦ ـ وفي أخذ النبي ﷺ فكرة حفر الخندق من الفرس دليل على انفتاحه ﷺ على جميع الأنظمة والتدابير العالمية التي ليس فيها مخالفة للشرع، أخذاً بمبدأ الحكمة ضالة المؤمن.

٧ ـ وكانت أيام حفر الخنـدق أيام برد شديـد وتعب وجوع[٤]، حتى إنهم لبثوا مرة ثلاثة أيام لا يذوقون طعاماً، فكانوا يعصبون الحجاة على بطونهم[٥].

٨ ـ وقولـه: «**وكان في حفره آيات مفصلة وأعـلام نبوة قـد تواتر خبرها**»:

---

(١) وردت بذلك روايات ضعيفة من الناحية الحديثية.

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٩٤.

(٣) صحيح البخاري «٧٢٣٦»، صحيح مسلم «١٨٠٣».

(٤) فتح الباري ١١/ ٢٣١.

(٥) صحيح البخاري «٤١٠١».

أقول: من ذلك أن النبي ﷺ أطعم جمعاً غفيراً يبلغ الألف من شاة صغيرة وصاع شعير حتى شبعوا وزاد الطعام[1].

ومن ذلك أن صخرةً صلبة عرضت للصحابة أثناء الحفر لا تؤثر فيها المعاول وحالت دون إتمامهم للحفر، فكلَّموا رسول الله ﷺ فيها، فضربها فأصبحت رملاً[2].

وجاء في رواية البراء بن عازب قال: عرض لنا صخرة في مكان من الخندق، لا تأخذ فيها المعاول، قال: فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ، فأخذ المعول فقال: «بسم الله» فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا». ثم قال: «بسم الله» وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا»، ثم قال: «بسم الله» وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا»[3].

*** تحصُّن المسلمين بالخندق:**

قال المصنف: «وخرجَ رسُولُ الله ﷺ فتحصَّن بالخندقِ وهو في ثلاثةِ آلافٍ على الصحيح من أهلِ المدينةِ. وزعم ابنُ إسحاق أنه إنما كان في سبعمائةٍ. وهذا غلطٌ من غزوةِ أُحدٍ، والله تعالى أعلم».

---

(١) صحيح البخاري «٤١٠١»، صحيح مسلم «٢٠٣٩».

(٢) صحيح البخاري «٤١٠١».

(٣) مسند أحمد «١٨٦٩٤»، وحسن إسنادها الحافظ في الفتح ٧/ ٣٩٧.

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ ما ذكره المصنف من عدد جيش المسلمين أورده ابن إسحاق في السيرة وغيره بدون إسناد[1].

٢ ـ وما نقله المصنف عن ابن إسحاق من أن المسلمين كانوا سبعمائة وتغليطه له اعتمد فيه على شيخه ابن القيم[2]، والذي رأيته في سيرة ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق أنهم كانوا ثلاثة آلاف[3]، وهو الذي نقله ابن حجر عنه في الفتح[4]، فلا أدري من أين لابن القيم هذا النقل عن ابن إسحاق!!

٣ ـ وللفائدة فإن المصنف رحمه الله كثيراً ما يعتمد على كتاب «زاد المعاد» وينقل عنه نصوصاً كثيرة، يظهر هذا بالمقارنة.

*** غدر بني قريظة ونقضهم للعهد:**

قال المصنف: «فجعلوا ظهورَهم إلى سَلْع[5]. وأَمَرَ ﷺ بالنساء والذَّراري، فجُعلوا في آطامِ[6] المدينةِ. وانطلقَ حُييُّ بن أخطب النَّضري إلى بني قريظة، فاجتمع بكعب بن أسد رئيسِهم، فلم يزل به حتى نَقَضَ العهدَ الذي كان بينَه وبين رسُولِ الله ﷺ، ووافقَ كعبٌ المشركينَ على حربِ رسُولِ الله ﷺ، فسرُّوا بذلك.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٠.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٢٤٢.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٠.

(٤) فتح الباري ٧/ ٣٩٣.

(٥) جبل بالمدينة يقع الآن في وسط العمران.

(٦) جمع أُطُم وهو: الحصن.

وبَعَث رسُولُ الله ﷺ السعدين: ابنَ معاذ وابنَ عبادة وخَوَّاتَ بن جُبير وعبدَالله بن رَواحة، ليعرفوا له هل نقضَ بنو قريظة العهدَ أو لا؟ فلما قربوا منهم وجدوهم مُجاهرين بالعداوةِ والغدرِ، فتسابُّوا ونالَ اليهودُ ـ عليهم لعائن الله ـ من رسُولِ الله ﷺ، فسبَّهم سعدُ بن معاذ، وانصرفوا عنهم.

وقد أمرهم ﷺ إن كانوا نقضُوا أن لا يفتُّوا بذلك في أعضاد المسلمين(1)، لئلا يورث وهناً، وأن يَلحنوا إليه لحناً ـ أي لغزاً ـ فلمَّا قدموا عليه، قال: ما وراءكم؟ قالوا: عَضَلٌ والقارَّة، يعنون غدرهم بأصحابِ الرَّجيعِ، فعظُم ذلك على المسلمينَ، واشتدّ الأمرُ، وعظُم الخطرُ، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[الأحزاب: 11]».

الكلام عليه من وجوه:

1 ـ جَعْلُ المسلمين ظهورهم إلى جبل سَلْع، هذا كان من ضمن خطتهم بحيث تكون وجوههم مقابلة للعدو المتمركز خلف الخندق. وكذلك وضع النساء والذراري في آطامها، وكله ذكره ابن إسحاق بدون إسناد(2).

2 ـ ومجيئ حُيي بن أخطب إلى كعب بن أسد وإقناعه بنقض العهد مع المسلمين ذكره ابن إسحاق وموسى بن عقبة بدون إسناد، والقدر الثابت في الأحاديث هو غدر بني قُريظة(3).

3 ـ وإرساله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومن معهما إلى بني قريظة

---

(1) أعضاد المسلمين: قوتهم.

(2) سيرة ابن هشام 2/ 220.

(3) السيرة النبوية للعُمري 2/ 428.

ليستجلوا خبر غدرهم أورده ابن إسحاق بدون إسناد[1]. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ أرسل أيضاً الزبير بن العوام للمهمة نفسها[2].

٤ ـ وقد تسبب نقض بني قريظة العهد إلى اشتداد الأمر على المسلمين وضيق الحال بهم، فأصبحوا محاصَرين بالأعداء من فوقهم (بنو قريظة)، ومن أسفل منهم (جيش المشركين)، وأصبح الحال عندها كما وصف الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[الأحزاب: ١١].

*** إن هذه مكيدة لا تعرفها العرب:**

قال المصنف: «ولبثَ المشركونَ محاصرينَ رسُولَ الله ﷺ شهراً، ولم يكن بينهم قتالٌ لأجلِ ما حالَ الله به من الخندقِ بينه وبينهم، إلا أن فوارسَ من قريشٍ منهم عمرو بن عبد وُدّ العامري وجماعةٌ معه أقبلوا نحو الخندقِ، فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه لمكيدةٌ ما كانت العربُ تعرفُها.

ثم يمموا مكاناً ضيقاً من الخندقِ فاقتحموه وجازوه، وجالتْ بهم خيلُهم في السبخةِ بين الخندقِ وسَلْعٍ ودعوا للبِرَازِ. فانتدبَ لعمرو بنِ عبدِ ودّ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه فبارزه فقتله الله على يديه. وكان عمرٌو لا يُجَارى في الجاهلية شجاعةً، وكان شيخاً قد جاوز المائة يومئذٍ، وأما الباقون فينطلقون راجعينَ إلى قومِهم من حيث جاؤوا.

وكان هذا أولُ ما فتحَ الله به من خِذلانهم. وكان شعارُ المسلمين تلك الغزوة: حم لا ينصرون».

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢١.

(٢) صحيح البخاري «٤١١٣»، صحيح مسلم «٢٤١٥».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ ما ذكره المصنف من مدة الحصار تبع فيه شيخه ابن القيم[1]، وثَبَتَ عن ابن المسيّب أنه قال: «حاصر النبيَّ ﷺ المشركون في الخندق أربعاً وعشرين ليلة»[2]. والخلاف في هذا يسير.

٢ ـ ولم يقع قتال واسع بين الطرفين بسبب حيلولة الخندق بينهما كما أشار المصنف، لكنه وقع بينهم تراشق بالنبال من وراء الخندق قُتل وأُصيب بسببه رجال من الجيشين، منهم سعد بن معاذ رضي الله عنه؛ أصيب بسهم في أكحله فاستشهد بعد المعركة بوقت قصير[3].

٣ ـ ومبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودّ وقتله إياه ذكره ابن إسحاق وابن سعد بدون إسناد[4].

٤ ـ وما ذكره المصنف أن شعار المسلمين يومها: «حم لا ينصرون» أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد حسن[5].

٥ ـ وفي مبارزة عليّ لعمرو بن عبد ودّ دليل على جواز المبارزة خلافاً لمن أنكرها، كالحسن البصري، وشرط الأوزاعي والثوري وأحمد وإسحاق للجواز

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٢٤٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٥٦.

(٣) صحيح البخاري «٤٦٣»، صحيح مسلم «١٧٦٩». والأكحل: وريد في وسط الذراع.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٥، طبقات ابن سعد ٢/ ٥١.

(٥) السنن الكبرى «٨٨١٠»، وإسناده حسن، وهو عند أبي داود «٢٥٩٧»، والترمذي «١٦٨٢» بإسناد صحيح، لكن ليس عندهما التصريح أن ذلك كان في غزوة الخندق.

إذن أمير الجيش[1].

*** مشاورته ﷺ في إعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة:**

قال المصنف: «ولما طالَ هذا الحالُ على المسلمينَ أرادَ رسُولُ الله ﷺ أن يُصالحَ عيينة بن حِصن والحارثَ بن عوف رئيسي غطفانَ، على ثُلُثِ ثمار المدينة وينصرفا بقومهما، وجرت المراوضةُ على ذلك ولم يتم الأمرُ، حتى استشارَ ﷺ السعدين في ذلك.

فقالا: يا رسُولَ الله! إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعُه لنا فلقد كنَّا نحنُ وهؤلاءِ القوم على الشركِ بالله وعبادةِ الأوثانِ، وهم لا يطمعونَ أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى أو بيعاً، فحين أكرمنا اللهُ بالإسلامِ وهدانا له وأعزَّنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف.

فقال ﷺ: «إنما هو شيء أصنعه لكم»، وصوَّب رأيَهما في ذلك رضي الله عنهما، ولم يفعل من ذلك شيئاً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ إرادته ﷺ مصالحة غطفان وما جرى بينه وبين السعدين من حوار ومشاورة ذكره ابن إسحاق في السيرة مرسلاً من رواية الزهري[2]، وأسنده البزار والطبراني عن أبي هريرة[3].

---

(١) شرح المواهب للزرقاني ٢/ ٢٧٧.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٣.

(٣) قال الهيثمي في المجمع ٦/ ١٣٣: «رجال البزار والطبراني فيهما محمد بن عمرو، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات».

٢ ـ وفي الحادثـة دليل على مشاورتـه ﷺ أصحابه في المهمات فيما لم يرد فيه نص ملزم، وقد تقدم نظائر عديدة لهذا.

٣ ـ واستـدل بعض الفقهاء بهذه الحادثـة على جواز عقد الهدنة مع الكفار مع بـذل المال لهم إذا اقتضت الضرورة ذلك، كأن يكون بالمسلمين ضعف شديدٌ يخافون معه أن يجتاحهم العدو، من باب دفع أعلى الضررين بأخفهما[1].

*** إيقاع نُعيم بن مسعود بين قريظة والأحزاب:**

قـال المصنف: «ثم إن الله سبحانـه وله الحمدُ صنَعَ أمراً من عنـدِه خذَّلَ به بينهم وفلَّ جموعهم، وذلك أن نُعيم بن مسعـود بن عـامر الغطفاني ﷺ جـاء إلى رسُولِ الله ﷺ وقالَ: يا رسُولَ الله إني قد أسلمتُ فمرني بما شئت، فقال ﷺ: «إنما أنت رجلٌ واحدٌ فخذّل عنّا إن استطعت، فإن الحرب خُدعة».

فذهب من حينه ذلك إلى بني قريظة ـ وكان عشيراً لهم في الجاهلية ـ فدخلَ عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال يا بني قريظة! إنكم قد حاربتم محمداً، وإن قريشاً إن أصابوا فُرصة انتهزوهـا، وإلا انشمروا إلى بلادهـم وتركوكم ومحمداً، فانتقم منكم. قالوا: فما العملُ يا نُعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن، قالوا لقد أشرت بالرأي.

ثم نهضَ إلى قريشٍ فقـالَ لأبي سفيان ولهم: تعلمون ودّي ونصحي لكـم؟ قالوا نعم. قـال: إن يهودَ ندموا على ما كان منهم من نقضِ عهد محمدٍ وأصحابه، وإنهم قـد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يمالئونه عليكم. ثم

---

(١) روضة الطالبين للنووي ١٠/ ٣٣٥.

ذهبَ إلى قومه غطفانَ فقال لهم مثل ذلك. فلما كان ليلةُ السبت في شوال بعثوا إلى يهود: إنَّا لسنا بأرضِ مُقام فانهضوا بنا غداً نناجز هذا الرجل، فأرسل إليهم اليهود: إن اليوم يومُ السبت، ومع هذا فإنَّا لا نقاتلُ معكم حتى تبعثوا إلينا رهناً.

فلمَّا جاءَهم الرُّسلُ بذلك قالت قريشٌ: صدقنا والله نُعيم بن مسعود، وبعثوا إلى يهود: إنَّا والله لا نُرسل لكم أحداً فاخرجوا معنا، فقالت قريظة: صدَقَ والله نُعيم، وأبوا أن يقاتلوا معهم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قصة نعيم بن مسعود الغطفاني ذكرها ابن إسحاق بدون إسناد، وأسندها عبد الرزاق من طريق الزهري عن سعيد بن المسيّب مرسلاً[١].

٢ ـ وحديث «الحرب خُدعة» مخرج في الصحيحين من رواية جابر بن عبدالله[٢].

٣ ـ والحادثة فيها دليل على جواز خداع الكفار في الحرب كيف أمكن الخداع إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز[٣].

* هزيمة الأحزاب ورحيلهم:

قال المصنف: «وأرسل الله ﷻ على قريشٍ ومن معهم الجنودَ والريحَ

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٩، مصنف عبد الرزاق «٩٧٣٧». ومراسيل ابن المسيب قوية كما هو معروف، وقول الدكتور العُمري في السيرة الصحيحة ٢/ ٤٣٠: إنها لا يثبت من الناحية الحديثية فيه نظر، وكأنه لم يقف على رواية ابن المسيب.

(٢) صحيح البخاري «٣٠٣٠»، صحيح مسلم «١٧٣٩».

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٤٥.

تُزلزلهم، فجعلوا لا يَقِـرُّ لهـم قـرارٌ، ولا تثبت لهم خيمـةٌ ولا طُنُبٌ[1]، ولا قِـدْرٌ ولا شيءٌ. فلما رأوا ذلك ترحّلوا من ليلتِهم تلك.

وأرسلَ ﷺ حُذيفـة بنَ اليمان يخبُر له خبَرهم، فوجدهم كما وصفنا، ورأى أبا سفيان يُصْلي ظهره بنار، ولو شاء حُذيفة لقتله، ثم رجعَ إلى رسُولِ الله ﷺ ليلاً فأخبره برحيلهم. فلمّا أصبحَ رسُولُ الله ﷺ غدا إلى المدينةِ وقد وضعَ الناسُ السلاحَ، فجـاء جبريلُ عليه السلام إلى رسُولِ الله ﷺ وهو يغتسلُ في بيت أمّ سلَمة، فقالَ: أوضعتم السـلاحَ؟ أمـا نحـنُ فلم نضـعْ أسلحتنا، انهد[2] إلى هـؤلاءِ، يعني بني قريظة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حاصل مـا ذكره المصنف أن الله ﷻ لـما أراد هزيمـة الأحـزاب أرسل عليهم ريحاً باردة شديدة في ليلة مظلمة فكفأت قدورهم واقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم، فضاق المشركـون بها وبطول الانتظار والحصـار ذرعاً فتنادوا بالرحيـل وانصرفوا. والخبر بـذلك ذكره ابن إسحـاق بدون إسناد، وأخرجه ابن سعد من رواية سعيد بن جبير مرسلاً[3].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[الأحزاب: ٩].

---

(١) الطنب: حبل يشد به الخيمة ونحوها.

(٢) يقال نهد الرجل: إذا نهض وقام.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٢، طبقات ابن سعد ٢/ ٥٥.

٢ ـ وبعثه ﷺ حُذيفة بن اليمان حتى يأتيه بخبر الأحزاب أخرجه مسلم في صحيحه[١].

٣ ـ وفي الحادثـة دليل على جواز بعث الإمـام الجواسيس والعيون لكشف أخبار العدو[٢].

٤ ـ كما أن فيها معجـزة نبوية، فإن حذيفـة حين بعثه النبي ﷺ ليأتيه بخبر الأحزاب كانت الريح باردة جداً وتعصف بقوة، فلما ذهب جعل يمشي كأنه في حمام دافئ كما في رواية الصحيح ببركة دعاء النبي ﷺ له.

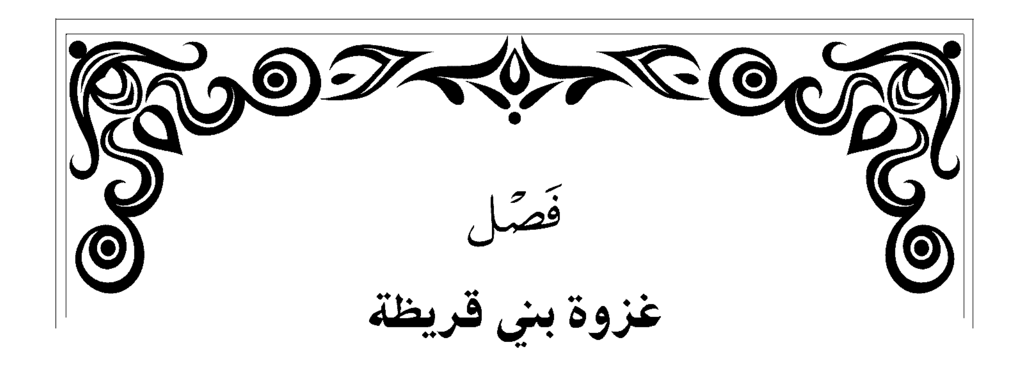
٥ ـ وقـول جبـريل للنبي ﷺ: «**أوضعتـم السـلاحَ؟ أمـا نحـن فلم نضـع أسلحتنا ...إلى آخره**» هذه الرواية مخرجة في الصحيحين بنحوه[٣].

❐ ❐ ❐

(١) صحيح مسلم «١٧٨٨».

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ١٤٦.

(٣) صحيح البخاري «٤١١٧»، صحيح مسلم «١٧٦٩».



فَصّل

غزوة بني قريظة

قال المصنف: «فَنَهَضَ ﷺ من وقتـهِ إليهم، وأمرَ المسلمينَ أن لا يصلّي أحدٌ صلاة العصرَ ـ وقـد كان دخل وقتُها ـ إلَّا في بني قريظة، فراحَ المسلمونَ أرسالاً، وكان منهم مَن صلَّى العصرَ في الطريقِ، وقالوا: لم يُرِد رسُولُ الله تركَ الصلاةِ، إنما أرادَ تعجيلَ السيرَ، وكان منهم من لم يُصلّ حتى غربت الشمسُ، ووصلَ إلى بني قريظة، ولم يعنّف ﷺ واحداً من الفريقين.

والـذين صلّوا العصرَ في وقتها حازوا قصَبَ السبقِ، لأنهم امتثلوا أمره ﷺ فـي المبادرة إلى الجهادِ وفعل الصلاة في وقتها، ولا سيما صلاة العصرِ التي أكد الله سبحانه المحافظة عليها في كتابه. والحاصلُ أنَّ الذين صلّوا العصرَ في الطريقِ جمعوا بين الأدلةِ، وفهموا المعنى فلهم الأجرُ مرتين، والآخرينَ حافظوا على أمرِه الخاصّ، فلهم الأجرُ رضي الله عن جميعهم وأرضاهم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ كانت غـزوة بني قريظة بعـد الأحزاب مباشـرة في السنة الخامسة من الهجرة، وبعضهم يعدها غزوة مستقلة، وبعضهم يعدها تابعة لغزوة الأحزاب[1].

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٨١.

٢ ـ وكـان سبب هـذه الغزوة خيانـة ونقض بني قريظة للعهد الـذي كان بينهم وبين النبي ﷺ بتحـريض من حييّ بن أخطب ـ جرثومـة هذه الفتنـة ـ كما تقدم تفصيله في حوادث غزوة الأحزاب.

ولولا أن الله ﷻ صـرف الأحزاب وردّهـم لأصاب المسلميـن شرٌّ عظيم بسبب بني قريظة ونقضهم للعهد!!

٣ ـ وقوله ﷺ: «**لا يصلينّ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة**»: هذا مخرج في الصحيحيـن، إلا أنه في روايـة مسلم: الظهر بـدل العصر[1]. وعلمـاء السيرة متفقون على أنها العصر[2].

٤ ـ وحاصل خلاف الصحابـة في فهم هذا الحديث أن بعضهم حمل النهي فيه على حقيقته فأخروا صلاة العصر حتى صلوها في بني قريظة ولم يبالوا بخروج وقتها، وأمـا الصحابـة الآخرون فحملوا النهي على غيـر حقيقتـه، وقالوا: ليس المقصود تأخير الصلاة عن وقتها، وإنما المراد الحثُّ والإسراع إلى بني قريظة، وهذا قـول الجمهور من أهـل المعـاني والقياس[3]، وفعلهم هـو الأرجـح كما أوضحه المصنف رحمه الله.

٥ ـ وقـد دلت هذه الحادثـة على جواز اجتهاد العلمـاء في فروع الأحكام، ورفـع الحرج عنهم في ذلك، وأن بعض نصوص الكتاب والسنة يمكن أن يحمل أكثر من فهم وأكثر من تفسير.

---

(١) صحيح البخاري «٤١١٩»، صحيح مسلم «١٧٧٠».

(٢) فتح الباري ٧/ ٤٠٨.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ١٥٦.

* حصار بني قريظة وبعث أبي لبابة لهم:

قال المصنف: «وأعطى رسُولُ الله ﷺ الرَّاية عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، واستخلف على المدينة ابنَ أم مكتوم، ونازلَ حصون بني قريظة، وحصَرَهُم خمساً وعشرين ليلة، وكان قد دخل معهم في الحصن حُيَيُّ بن أخطب حين انصرفت قريشٌ، لأنه كان أعطاهم عهداً بذلك حتى نقضوا العهد وجعلوا يسبُّون رسُولَ الله ﷺ ويُسمِعُون أصحابه ذلك، فأرادَ رسُولُ الله ﷺ أن يخاطبهم، فقال له عليٌّ رضي الله عنه: لا تقرب منهم يا رسُولَ الله ـ خشية أن يسمع منهم شيئاً ـ فقال: «لو قد رأوني لم يقولوا شيئاً»، فلما رأوه لم يستطع منهم أحدٌ أن يتكلَّم بشيءٍ.

ثم بعثَ ﷺ إليهم أبا لُبابة بنَ عبد المُنذر الأوسي، وكانوا حلفاء الأَوس، فلما رأوهُ قاموا في وجههِ يبكون: رجالُهم ونساؤُهم، وقالوا: يا أبا لُبابة كيف تَرى لنا؟ أننزلُ على حُكمِ محمدٍ؟

قال: نعم وأشار بيده إلى حلقِهِ، يعني: أنه الذَّبح، ثم نَدِمَ على هذه الكلمة من وقتهِ، فقام مُسرعاً فلم يرجع إلى رسُولِ الله ﷺ حتى جاء مسجدَ المدينةِ، فربط نفسه بساريةِ المسجدِ، وحلف لا يحلُّه إلَّا رسُولُ الله ﷺ بيدِه، وأنه لا يدخلُ أرضَ بني قريظة أبداً، فلما بلغ رسُولَ الله ﷺ ذلك قال: «دعوه حتى يتوبَ الله عليه»، وكان من أمره ما كان حتى تابَ الله عليه رضي الله عنه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ إعطاؤه ﷺ الرَّاية لعلي بن أبي طالب يوم الخندق ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[1]، وعزاه ابن حجر للحاكم والبيهقي من مرسل

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٤.

عروة بن الزبير[1].

٢ ـ واستخلافه ﷺ ابن أم مكتوم على المدينة أورده ابن هشام في السيرة بدون إسناد[2].

٣ ـ وحصاره ﷺ لبني قريظة خمساً وعشرين ليلة وحادثة أبي لبابة أخرجها أحمد في المسند من رواية عائشة مطولاً بإسناد جيد كما قال ابن كثير[3].

*** تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة:**

قال المصنف: «ثم إن بني قريظة نزلوا على حُكم رسُولِ الله ﷺ. ولما نزلوا على حكمه ﷺ، قالت الأوسُ: يا رسُولَ الله، قد فعلتَ في بني قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخوتنا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فقال: «ألا ترضَون أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟» قالوا: بلا. قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ».

وكان سعدٌ إذ ذاك قد أصابه جرحٌ في أكحلِه، وقد ضربَ له رسُولُ الله ﷺ خيمةً في المسجدِ، ليعوده من قريبٍ، فبعثَ إليه ﷺ فجيء به وقد وطَّؤوا له على حمارٍ، وإخوتُه من الأوس حوله يُحيطون به، وهم يقولون: يا أبا عمرو! أحسن في مواليك، فلما أكثروا عليه، قالَ: لقد آن لسعدٍ أن لا تأخذه في الله لومة لائم!

فرجعَ رجالٌ من قومهِ إلى بني عبد الأشهل فنَعوا إليهم بني قُريظة. فلمّا دنا من رسُولِ الله ﷺ، قال: «قوموا إلى سيّدكم»، فقام إليه المسلمونَ، فقالوا: يا سعدُ! قد ولّاك رسُولُ الله ﷺ الحكمَ في بني قُريظة، فقال: عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقُه

---

(١) فتح الباري ٧/ ٤١٣.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٤.

(٣) البداية والنهاية ٦/ ٩١.

أن الحكمَ فيهم كما حكمتُ؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من هاهنا؟ وأشارَ إلى الناحيةِ التي فيها رسُولُ الله ﷺ، وهو معرضٌ عن رسُولِ الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسُولُ الله ﷺ: «نعم».

فقال سعدٌ: إني أحكمُ فيهم أن تُقتل مُقاتِلتهُم، وتُسبى ذراريهم. فقال رسُولُ الله ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكمِ الله من فوقِ سبعةِ أرقعةٍ»».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حادثة حكم سعد بن معاذ في بني قريظة ثابت في الصحيحين[1] باختصار، وهو عند ابن إسحاق مطولاً على نحو ما ذكره المصنف[2].

٢ ـ وهذه الحادثة تدل كما قال الإمام النووي على: «جواز التحكيم في أمور المسلمين وفي مهماتهم العظام، وقد أجمع العلماء عليه ولم يخالف فيه إلا الخوارج فإنهم أنكروا على عليّ التحكيم وأقام الحجة عليهم»[3].

٣ ـ وقوله ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم**» ثابت في الصحيحين[4]، وقد استدل به جمهور العلماء على استحباب إكرام أهل الفضل والقيام لهم إذا أقبلوا، قالوا: وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون على الرجل وهو جالس، ويمثلون قياماً طوال جلوسه كما أفاده الإمام النووي[5].

---

(١) صحيح البخاري «٣٠٤٣»، صحيح مسلم «١٧٦٩».

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٩.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٩٢.

(٤) صحيح البخاري «٣٠٤٣»، صحيح مسلم «١٧٦٨».

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٩٣.

* قتل المقاتلة وقسمة الأموال:

قـال المصنف: «فأمر رسُـولُ الله ﷺ أن يُقتل مـن أنبتَ منهم، ومن لم يكن أنبتَ تُرك، فضـرب أعناقَهم في خنادقَ حُفِرت في سـوقِ المدينـةِ، وكـانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، وقيل: ما بين السبعمائةِ إلى الثمانمائةِ. ولم يَقتل من النساءِ أحداً سـوى امرأةٍ واحـدةٍ، لأنها كانت طرحت على رأس خلَّادِ بنِ سُويد رحىً فقتلته لعنها الله. وقسـم أموالَ بني قريظة على المسلمين؛ للراجـلِ سهمٌ وللفارسِ ثلاثةُ أسهم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ أمره عليـه الصلاة والسلام بقتل من أنبت من بني قـريظة وترك من لم ينبت أخرجه الأربعة وإسناده صحيح من قول عطية القرظي[1].

لكني أشك في صحـة هذه الحادثـة من جهة أن عطية القرظي غير مشهور ولا يعرف إلا بهذا الحديث، والذين عدوه في الصحابة اعتمدوا على هذه الحادثة والتي لم ينقلها أحدٌ سواه، فالله أعلم.

٢ ـ وما ذكره المصنف عن عـدد من قتل من بني قريظة وأنهم كانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، وقيل ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، فهذا بعض ما قيل، وقد أخرج أصحاب السنن عن جابر بن عبدالله بإسناد صحيح كما قال ابن حجر أنهم كانوا أربعمائة[2]، وهذا أصح.

---

(١) سنن أبي داود «٤٤٠٤»، سنن الترمـذي «١٥٨٤»، والنسائي ٦/ ١٥٥، وابن ماجـه «٢٥٤١».

(٢) فتح الباري ٧/ ٤١٤.

٣ ـ وقد دلت هذه الحادثة على جواز قتل الخونة من ناقضي العهد من أهل الذمة، وهو ما يسمى في الاصطلاح الحديث بالخيانة العظمى.

وما من شك أن بني قريظة قد غدروا وخانوا العهد وعرّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل، فكان عقابهم مناسب لجرمهم.

٤ ـ وقتل المرأة القرظية يدل على جواز قتل المرأة القاتلة والمحاربة.

٥ ـ ويبدوا أن هذه الحادثة قد أرعبت المنافقين كثيراً في المدينة فقد خفت صوتهم ولم يعد يسمع منهم بعدها ما يناقض الإسلام كما كانوا من قبل[١].

٦ ـ ويلاحظ أن غزوة بني قريظة كانت بسبب خيانة اليهود ومثلها غزوة بني النضير، مما يؤكد أن اليهود قوم بهت وأهل خداع وخيانة، وأنهم ما إن يجدوا سبيلاً إلى الإضرار بالمسلمين إلا وسارعوا إليه[٢].

*** استشهاد سعد بن معاذ:**

قال المصنف: «ولمَّا فرغ منهم استجاب الله دعوة العبدِ الصَّالحِ سعدِ بن معاذٍ، وذلك أنه لمَّا أصابَه الجرحُ قال: اللهم إن كنت أبقيتَ من حربِ قريشٍ شيئاً فأبقني لها، وإن كنتَ رفعتَ الحربَ بيننا وبينهم فأفجرها، ولا تمتني حتى تشفيني من بني قريظة.

وكان ﷺ قد حسَم جُرْحَه فانفجرَ عليه فمات منه ﷺ، وشيَّعه رسُولُ الله ﷺ والمسلمون، وهو الذي اهتزَّ له عرشُ الرحمن فرحاً بقدومِ روحه ﷺ وأرضاه. وقد استُشهد يوم الخندق ويوم قُريظة نحو العشرة ﷺ آمين».

---

(١) السيرة النبوية للندوي ص٣٦٦.

(٢) دراسات في السيرة النبوية ص١٠٣.

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ مقولة سعد بن معاذ: «**اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش...**» مخرجة في الصحيحين بنحوه[١].

٢ ـ واهتزاز عرش الرحمن فرحاً بقدوم روح معاذ مخرج في الصحيحين بلفظ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»[٢].

٣ ـ وقد اختلف العلماء في تفسير هذا الحديث، فقيل: إنه على ظاهره، وأن عرش الرحمن تحرك فرحاً بموت سعد بن معاذ وقدوم روحه، وقيل: إنه كناية عن تعظيم شأن موت معاذ، كما تقول العرب: أظلمت الأرض لموت فلان، واختار النووي الأول[٣].

٤ ـ وقوله: «**استشهد يوم الخندق ويوم قريظة نحو العشرة**»: أخذه عن شيخه ابن القيم في الزاد[٤]، وبحسب ابن إسحاق فإنهم كانوا نحو السبعة[٥]، والله أعلم.

❒ ❒ ❒

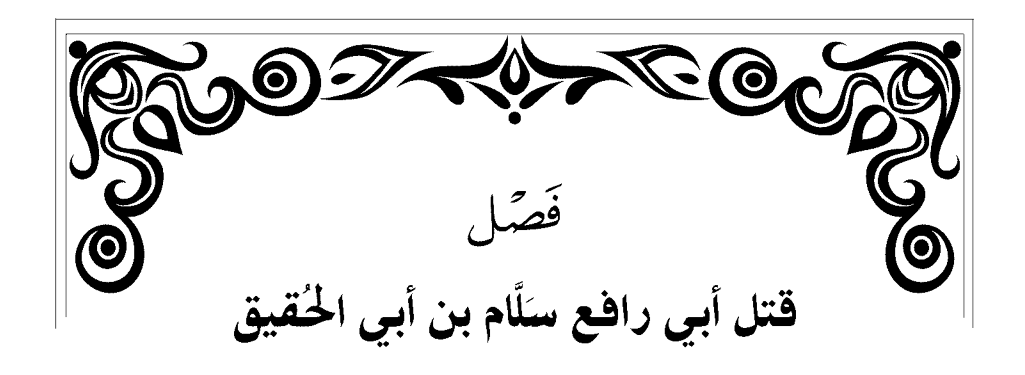
(١) صحيح البخاري «٤١٢٢»، صحيح مسلم «١٧٦٩».

(٢) صحيح البخاري «٣٨٠٣»، صحيح مسلم «٢٤٦٦».

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١٦/ ٢٢.

(٤) زاد المعاد ٣/ ٢٤٦.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٥٢.



فَصْل

قتل أبي رافع سَلَّام بن أبي الحُقيق

قال المصنف: «لمَّا قَتَلَ اللهُ ـ وله الحمدُ ـ كعبَ بن الأشرف عدوّ الله على يد رجالٍ من الأوس كما قدَّمنا ذكره بعد وقعة بدر، وكان أبو رافع سَلَّام بن أبي الحُقيق ممن أَلَّب الأحزابَ على رسُولِ الله ﷺ ولم يُقتل مع بني قريظة كما قُتل صاحبه حُييّ بنُ أخطب، رغبتِ الخزرجُ في قتله طلباً لمساواة الأوس في الأجر، فاستأذنوا رسُولَ الله في قتله فأذِن لهم.

فانتدب له رجالٌ كلهم من بني سَلَمَة، فنهضوا حتى أتوه في خيبرَ في دارٍ له جامعة، فنزلوا عليه ليلاً فقتلوه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ أخرج هذه الحادثة البخاري في صحيحه مطولة مع اختلاف عن سياق المصنف[١].

٢ ـ وأبو رافع هذا كان ممن أَلَّب الأحزاب على رسول الله ﷺ كما ذكر المصنف، وأعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب يومها بالمال الكثير[٢].

---

(١) صحيح البخاري «٤٠٣٩، ٤٠٤٠».

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٤٣.

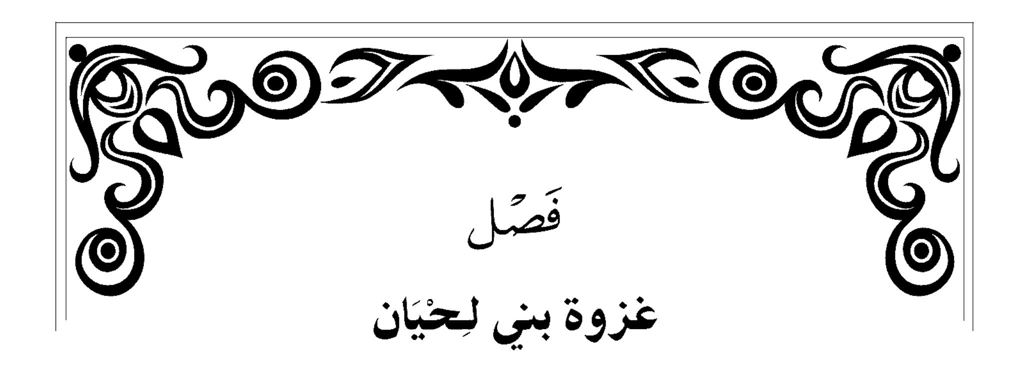
٣ ـ وقد اختلف في تاريخ وقوع هذه الحادثة، والأظهر أنها كانت بعد غزوة الأحزاب بقليل، لأن سبب قتل أبي رافع هـذا تأليبه الأحزاب على المسلمين يوم الخندق[١].

٤ ـ وفي الحادثـة دليل على جـواز قتـل ولي الأمـر المحـاربين والمعينين على رسول الله ﷺ بيدهم أو بمالهم أو بلسانهم.

❒ ❒ ❒

---

(١) السيرة النبوية لمهدي رزق الله ص٤٥٢.



فَصْل

غزوة بني لِحْيَان

قال المصنف: «ثم خَرَجَ ﷺ بعد قريظة بستةِ أشهر، وذلك في جمادى الأولى من السنة السادسة على الصحيح قاصداً بني لِحْيَان ليأخذ بثأْر أصحاب الرَّجيع المتقدم ذكرُهم، فسار حتى نزلَ بلادَهم في وادٍ يقالُ له غُرَان[1]، وهو بين أَمَج وعُسفان، فوجدهم قد تحصّنوا في رؤوس الجبالِ، فتركهم وركبَ في مائتي فارسٍ حتى نزل عُسْفان، ثم قفل ﷺ إلى المدينة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حاصل هذه الحادثة أن النبي ﷺ أراد الثأر والاقتصاص من الأعراب الخونة الذين غدروا بخُبيب بن عدي وأصحابه القراء في واقعة الرَّجيع. فخرج إليهم يريد مباغتتهم، فلما علموا به هربوا وتفرقوا في رؤوس الجبال[2].

---

(١) غُران: بضم الغين وتخفيف الراء، واد على (٨٥) كيلاً من مكة شمالاً.

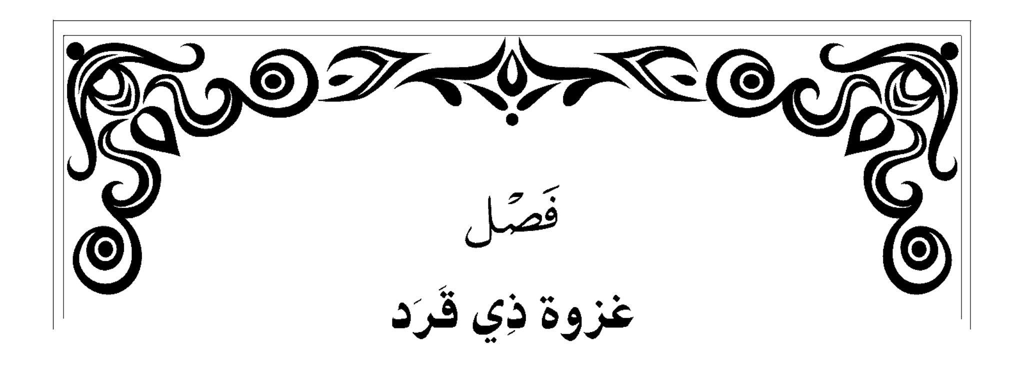
(٢) ذكر الحادثة ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٧٩ عن ابن إسحاق بدون إسناد، وأخرجها البيهقي في الدلائل ٣/ ٣٦٤ من طريق ابن إسحاق قال: حدثنا عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيره به، وهذا إسناد مرسل، عبدالله بن أبي بكر أحد علماء التابعين الثقات من أهل المدينة.

٢ ـ وكانت هـذه الغزوة في السنـة السادسة للهجـرة كما صححه المصنف هنا، وابن إسحاق في السيرة[١].

٣ ـ ويؤخذ من الحادثة مشروعية قتال من خان وغدر ومعاقبته.

❑ ❑ ❑

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٩.



فَصْل

غزوة ذِي قَرَد

قال المصنف: «ثم أغار بعد قدومه المدينة بليال عيينةُ بن حِصْن في بني عبدالله ابن غطفان، على لِقَاحِ[1] النبيّ ﷺ التي بالغابـةِ، فاستاقَها وقَتَلَ راعيَها، وأخـذوا امرأته.

فكان أول مـن أنذر بهم[2] سَلَمَـةُ بنُ عمرو بن الأكوع الأسلمي رضي الله عنه، ثم انبعثَ في طلبهم ماشياً وكان لا يُسبق، فجعل يرميهم بالنبل ويقول: أنا ابنُ الأكوع واليومُ يومُ الرُّضَع، يعني: اللئام، واسترجعَ عامة ما كان في أيديهم.

ولما وقع الصريخُ في المدينةِ خرج رسُولُ الله ﷺ في جماعةٍ من الفُرسان، فلحقوا سَلَمَـة بن الأكوع، واسترجعوا اللقاحَ، وبلغ النبيُّ ﷺ ماءً يقال له ذو قَرَد، فنحر لَقْحَة مما استرجع، وأقام هناك يوماً وليلة، ثم رجع إلى المدينةِ.

وأقبلت المرأةُ المأسورةُ على ناقةٍ لرسُولِ الله ﷺ، وقد نَذَرَتْ: إن الله أنجاها عليها لتنحرنهَّا، فقال رسُولُ الله ﷺ: «بئس ما جزتها، لا نذرَ لابنِ آدم فيما لا يملك، ولا في معصيةٍ»، وأخذ ناقته».

---

(١) اللقاح: الناقة القريبة العهد بالولادة، وتكون ذات لبن.

(٢) علم بهم.

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ خبر هـذه الغزوة مخرج في الصحيحين بنحو سياق المصنف من رواية سلمة بن الأكوع رضي الله عنه[1].

٢ ـ وقد سمّيت بذي قَرَد نسبة إلى اسم الموضع الذي وقعت عنده، وبعضهم يسمّيها غزوة الغابة لأن اللّقاح كانت ترعى هناك[2].

٣ ـ وقد اختلف في تاريخ هـذه الغزوة، والـذي عليه عامة أهل السير أنها كانت في سنة ست، قبـل صلح الحديبية، وجزم الإمام البخاري في الصحيح أنها كانت سنة سبع، قبل غزوة خيبر بثلاثة أيام[3].

٤ ـ ومن الملاحظ أن المدينة كانت تتعرض في عهده ﷺ بين حين وآخر لمثل هذا الاعتداءات ممن حولها من الأعراب، وقد سبق مثله عندما أغار كُرز بن جابر الفهري على سرح المدينة في غزوة بدر الأولى.

٥ ـ وقولـه ﷺ: **«لا نذر لابن آدم فيمـا لا يملك ولا في معصية»**: فيه دليل على أن من نذر بما لا يملك فنذره لا يصح ولا ينعقد ولا كفارة عليه، كأن يقول: لله عليّ إن شفى الله مريضي أن أتصدق بثوب فلان. وكذلك من نذر معصية كشرب الخمر، فنذره باطلٌ لا ينعقد ولا كفارة عليه عند أكثر العلماء[4].

❒ ❒ ❒

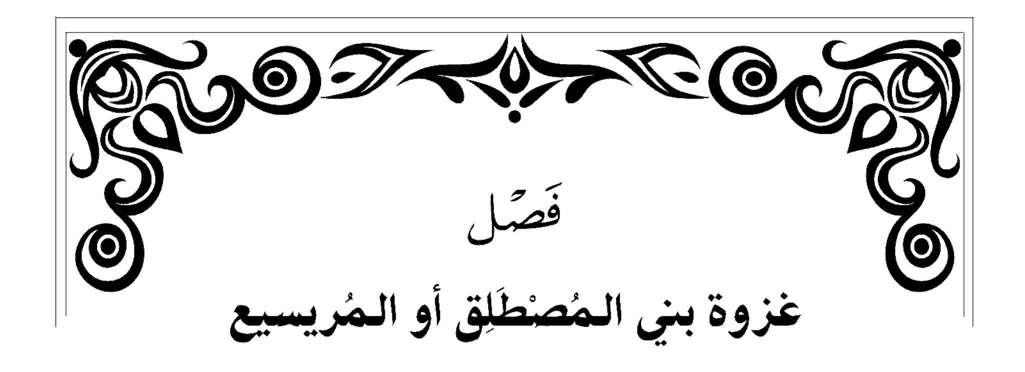
---

(١) صحيح البخاري «٤١٩٤»، صحيح مسلم «١٨٠٦».

(٢) عيون الأثر ٢/ ١٢٠، والغابة: موضع في المدينة، على بعد (٦) أكيال منها، جهة ما يسمى اليوم بالخليل.

(٣) فتح الباري ٧/ ٤٦٠.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ١٢٥، نيل الأوطار ٨/ ٢٨١.



فَصْل

غزوة بني المُصْطَلِق أو المُريسيع

قال المصنف: «ثم غـزا ﷺ بني الـمُصْطلِق من خُزاعة في شعبانَ من السنةِ السادسةِ، وقيل: كانتْ في شعبان سنة خمسٍ، والأول أصحّ، وهو قول ابن إسحاق[1] وغيره.

واستعمل على المدينــة أبا ذرّ، فأغار عليهم وهم غارُّون على ماءٍ لهم يسمّى الـمُريسيع، وهو من ناحيــة قُديد إلى الساحل، فَقَتَلَ مَن قَتَلَ منهم، وسبى النساء والذريّة.

وكان شعارُ المسلمينَ يومئـذٍ: أَمِت أَمِت. وكان من السبيّ: جُويْريــة بنتُ الحــارث بن أبي ضِـرَار مَلِك بني الـمُصْطَلِق، وقعت في سهم ثابت بــن قيس بن شَـمَّاس، فكاتبها، فأدَّى عنها رسُولُ الله ﷺ وتزوجها، فصارتْ أَمَّ المؤمنين، فأعتق المسلِمُون بسبب ذلك مائة بيتٍ من بني الـمُصْطلِق قد أسلَمُوا».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ تسمّى هذه الغزوة: غزوة بني الـمُصطلق، نسبة إلى القوم الذين غزاهم النبي ﷺ، ويقال لها أيضاً غزوة الـمُريسيع، نسبة إلى اسم الماء الذي وقعت عنده.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٩.

٢ ـ والـمُريسيع: مـاء قريب من قُديـد التي تبعـد عن مكة (١٢٠) كيلاً، جهة الساحل.

٣ ـ وأصل هـذه الغزوة ثابت في الصحيحيـن من روايـة عبدالله بن عمر: «أن النبي ﷺ أغـار على بني المصطلق وهـم غـارُّون، وأنعـامهم تسقي على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية»[١].

٤ ـ وقـد صحح المصنف أنها وقعت في السنة السادسة، لكن جزم الذهبي أنها كانت في شعبان من سنـة خمس، وهو ما رجحه ابن حجر لأدلة منها: ما ثبت في الصحيحين مـن اشتراك سعـد بن معاذ فيها، ومعلوم أن سعـد بن معاذ مات عقب غزوة الخنـدق مباشرة سنة خمس، فـلا يمكن أن تكون غزوة بني المصطلق في السنة السادسة[٢].

٥ ـ وكان عـدد جيش المسلمين (٧٠٠) مقاتل[٣]، فيهم أناس من المنافقين كعبدالله بن أبيّ بن سلول خرجوا من أجل المغانم، وتسببوا في قلاقل وفتن سيأتي الحديث عنها.

٦ ـ وكان سبب هـذه الغـزوة أن النبي ﷺ بلغـه أن بني الـمُصطلق بقيادة زعيمهم الحارث بن أبي ضِرَار تجمع السلاح وتألّب القبائل استعداداً لغزو المدينة وحرب المسلمين، وكأنهم رأوا الفرصة مواتيـة بعد معركة أحـد، وهو من سـوء تقـديرهم لقوة المسلمين!! فلمّـا تأكـد الخبر للنبي ﷺ خـرج إليهم وباغتهم على

---

(١) صحيح البخاري «٢٥٤١»، صحيح مسلم «١٧٣٠».

(٢) ينظر تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ١٧٠، وفتح الباري ٧/ ٤٣٠.

(٣) تاريخ الإسلام ١/ ١٧٠.

حين غرَّة منهم[1].

أضف أن بني الـمُصطلق كانوا من ضمن قبائل الأحـابيش الذين ساندوا قريشاً في غزوة أحد وانضموا إليهم[2].

٧ ـ ولم يستطع بنو المصطلق المقاومة فانهزموا سريعاً، وقُتل بعضهم، ووقع بقيتهم أسرى بأيدي المسلمين، وأصاب النبي ﷺ يومئذ جويرية بنت الحارث التي أعتقها فيما بعد وتزوجها[3].

٨ ـ وقد أسلم أبوها الحارث بن أبي ضرار سيّد بني المصطلق، وولاه النبي ﷺ على صدقات من أسلم من قومه[4].

٩ ـ استدل بعض علماء السلف بهذه الحادثة على جواز الإغارة على الكفار مطلقاً، سـواء بلغتهم الدعوة أو لم تبلغهم، قـال عبدالله بن عون: كتبتُ إلى نافـع مولى ابن عمر أسألـه عن الدعاء قبل القتال، قـال: فكتبَ إليَّ: «إنما كان ذلك في أول الإسلام، قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارّون»[5]!!

لكن يردّ هذا مـا تقدم من سبب الغزوة، وأن النبي ﷺ لم يباغتهم إلا بعـد أن تأكد لـه عزمهم على الغـدر، وكانوا في حالـة حـرب مـع المسلمين، فلم يكن النبي ﷺ لينتظرهـم حتى يغزوا المدينـة، فليس في الحادثـة دليل على غزو الكفار

---

(١) رواه ابن إسحاق بأسانيد متعددة مرسلة يقوي بعضها بعضاً، سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٠.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٣.

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ٥/ ١٧١.

(٤) مسند أحمد «١٨٤٥٩»، وقال السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٥٥٥: سنده جيد.

(٥) صحيح مسلم «١٧٣٠».

مطلقاً كما فهمه نافع رحمه الله!!

*** ما قاله المنافق ابن سلول في رسول الله ﷺ:**

قـال المصنف: «وفي مرجعِه ﷺ قال الخبيثُ عبـدُالله بن أُبيّ بن سَلُول: لئن رجعنا إلى المدينـةِ ليخرجنَّ الأعزُ منها الأذلَّ، يُعرّضُ برسُولِ الله ﷺ، فبلَّغها زيدُ ابنُ أرقم رسُولَ الله ﷺ، وجاء عبدُالله بنُ أُبيّ معتذرا، ويحلفُ ما قال، فسكت عنه رسُولُ الله ﷺ حتى أنزلَ الله ﷻ تصديقَ زيد بن أرقم في سورة المنافقين».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ هذه الحادثة مخرجة بنحوها في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم[1].

٢ ـ وسبب مقولـة عبدالله بن أبيّ أنـه وقع نزاع بين رجلين من المهاجـرين والأنصار، فقـال الأنصاري: يا للأنصار، وقـال المهاجري: يا للمهاجرين، وكاد يقـع الشرُّ بيـن الفريقين، فخـرج النبي ﷺ وأصلح بينهم، ونهاهـم عن دعـاوى الجاهلية، وعندها قال عبدالله بن أُبيّ المنافق مقولته هذه[2].

٣ ـ وقـد ثبت في الصحيحين أن عمر بن الخطاب استأذن النبي ﷺ في قتل عبدالله بن أبي بسبب مقولتـه، فأبى النبيُّ ﷺ وقال: «دعـه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»[3].

وفي هذا دليل على ما كان عليه ﷺ من الحلم والصبر، واحتماله بعض المفاسد خوفاً من حدوث مفاسد أكبر وأعظم منها.

---

(١) صحيح البخاري «٤٩٠٠»، صحيح مسلم «٢٧٧٢».

(٢) صحيح البخاري «٤٩٠٥»، صحيح مسلم «٢٥٨٤».

(٣) المصدرين السابقين.

قال النووي رحمه الله: «وقد كان ﷺ يتألف الناس ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم لتقوى شوكة المسلمين، وتتم دعوة الإسلام، ويتمكن الإيمان من قلوب المؤلفة، وكان يعطيهم الأموال الجزيلة لذلك، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى، ولإظهارهم الإسلام، وقد أمر بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، ولأنهم كانوا معدودين في أصحابه، ويجاهدون معه، إما حمية وإما لطلب دنيا أو عصبية لمن معه من عشائرهم»[١].

٤ ـ وكما أشار الشيخ أبي شهبة[٢] فإن غزوة بني المصطلق على صغرها قد اشتملت على حادثتين عظيمتين، إحداهما كادت تحدث فتنة بين المسلمين وتمزق وحدتهم، لولا أن تداركها النبي ﷺ بحكمته، يعني حادثة ابن سلول، والثانية حادثة الإفك التي حسم الكلام بشأنها وحي السماء، ونزل بسببها تشريع خالد، وهي ما سيتحدث عنه المصنف في حديثه التالي.

*** طعن المنافقين في السيدة عائشة وتبرئة الله لها:**

قال المصنف: «وكان في هذه الغزوة[٣] من الحوادثِ قصة الإفكِ الذي افتراه عبدُالله بن أُبيّ هذا الخبيث وأصحابه، وذلك أن أمّ المؤمنين عائشة بنت الصّدّيق ﵄ كانت قد خرجت مع رسُولِ الله ﷺ في هذه السَّفْرة، وكانت تُحمل في هَوْدَج، فنزلوا بعضَ المنازل، ثم أرادوا أن يرتحلوا أوّل النهارِ، فذهبت إلى المتبرَّز، ثم رجعت فإذا هي فاقدة عِقْداً لأختها أسماء كانت أعارتها إيَّاه، فرجعت تلتمسه في الموضعِ الذي كانت فيه، فجاء النفرُ الذين كانوا يرحَلُون بها فحملوا الهَوْدَجَ، حملة رجلٍ

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١٣٩.

(٢) السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٥٤.

(٣) غزوة بني المصطلق السابقة.

واحدٍ، وليس فيه أحـدٌ، فرَحلوه على البعير ولم يستنكروا خفَّته؛ لتساعُدِهم عليه، ولأن عـائشة ﵂ كانت في ذلك الوقـتِ لم تحمل اللحـم، بل كـانت طفلة في سنّ أربعَ عشرة سنة.

فلمـا رجعت وقـد أصابت العِقْـدَ لم تر بالمنزل أحـداً، فجلست في المنزلِ، وقالت: إنهم سيفقدونها فيرجعون إليها. وأخـذتها سَنَةٌ من النومِ فلم تستيقظ إلا بترجيع صفوانِ بن المُعَطّل السُّلَمي، وكان قد عرَّس[١] في أخرياتِ القومِ، فلما رأى أمَّ المؤمنينَ، قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، زوجةُ رسُولِ الله ﷺ؟!

ثم أناخَ بعيره فقرَّبـه إليها، فركبتـه، ولم يكلمها كلمـة واحدة، ثم سارَ بها يقودُها حتى قَدِمَا، وقد نزلَ الجيشُ في نحرِ الظهيرة[٢]. فلما رأى ذلك الناسُ تكلَّم المنافقون بما الله مجازيهم به، وجعلَ عبدُالله بن أُبيّ الخبيث مع ما تقدم له من الخزي في هذه الغزوة يتكلَّم في ذلك ويستحكيه، ويُظهره ويُشيعه ويُبديه.

وكان الأمرُ في ذلك كما هو مطول في الصحيحين عن عائشة ﵂ الصّدّيقة بنت الصـديق المبرأة من فـوق سبع سمـاواتٍ مما أبَنَها[٣] بـه أهـلُ الإفكِ في هذه الغزوة فـي قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ...﴾[النور: ١١] الآيات.

فلما أنزل الله تعالى ذلك وكان بعـد قدومهم من هذه الغزوة بأكثر من شهرٍ جُلد الذين تكلَّموا في الإفكِ. وكان ممن جُلد مِسْطحُ بنُ أُثَاثَة، وحَمْـنَةُ بنتُ جحش.

---

(١) التعريس: نزول المسافر آخر الليل للنوم أو الاستراحة.

(٢) نحر الظهيرة: أول الزوال وهو أشد ما يكون في حرارة النهار.

(٣) اتهمها.

وقد كان رسُولُ الله ﷺ قبل ذلك صعد على المنبرِ فخطبَ المسلمين واستعذرَ من عبدِالله بنِ أُبيّ وأصحابِه، فقال: «مَن يعذرني من رجلٍ بلغني أذاهُ في أهلي؟ والله ما علمتُ على أهلي إلَّا خيراً، وذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلَّا خيراً، وما يدخلُ على أهلي إلَّا معي»».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ الإفك كما قال غير واحد: أسوأ الكذب وأقبحه، وهو البهتان، مأخوذ من أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه[1].

٢ ـ وحادثة الإفك مخرجة في الصحيحين بلفظ مطول[2]، وسياق المصنف مختصر أورده بالمعنى.

٣ ـ وقد اشتملت هذه الحادثة على كثير من الأحكام والحِكَم والفوائد، منها: فضل السيدة عائشة رضي الله عنها وتكذيب من قذفها في عفافها وشرفها.

٤ ـ ومنها: فضل الصحابة الذين صانوا أنفسهم وألسنتهم عن الخوض في أعراض الناس والافتراء عليهم، وقالوا كما حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿**لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾[النور: ١٢].

٥ ـ ومنها: أن أصحاب النبي ﷺ وبرغم فضلهم ومكانتهم العظيمة قد تقع من بعضهم بعض الذنوب والآثام، لأنهم في منظور أهل السنة ليسوا بمعصومين[3]،

---

(١) تحفة الأريب لأبي حيان ص٤٦، اللامع الصبيح للبرماوي ١١/ ١٩٨.

(٢) صحيح البخاري «٤١٤١»، صحيح مسلم «٢٧٧٠».

(٣) حيث جلد النبي ﷺ بعضهم بسبب القذف في هذه الحادثة، كما في مجمع الزوائد «١٥٢٩٦» بإسناد حسن.

إلا أن ذنوبهم وآثامهم قليلة جداً، ومغمورة في بحر حسناتهم وسابقتهم ومآثرهم وبلائهم في الإسلام.

٦ ـ ومنها: حرمة قذف المحصنين والمحصنات من المؤمنين والمؤمنات، وأنه من كبائر الذنوب، وإقامة الحدّ على فاعل ذلك.

٧ ـ قال العلماء: وإنما لم يحدّ النبي ﷺ عبدالله بن أُبي بن سلول مع أنه من تولى كبر هذا الإفك وتبنّاه، لأنه لم يقذف صراحة، ولم يترك دليلاً ضده، إذ كان يعرّض ولا يصرّح.

وقال بعضهم: إنما لم يُحَدّ لأن الله تعالى أعدّ له في الآخرة عذاباً عظيماً، فلو حُدّ في الدنيا لكان تخفيفاً عنه في الآخرة، بخلاف من أقيم عليهم الحدّ، فإن الله أراد أن يطهرهم ويكفر عنهم إثم ما صدر منهم[١].

على أن الحافظ ابن حجر أبدى احتمال أن يكون النبي ﷺ قد أقام على عبدالله ابن أُبي الحدَّ لورود ذلك من طريقين مرسلين[٢].

٨ ـ وقد أراد المنافقون من وراء نشر هذا الإفك الطعن في الإسلام عن طريق الطعن في مقام النبي ﷺ وعرضه وكرامته، لكن الله فضح أمرهم وأبطل كيدهم.

❐ ❐ ❐

---

(١) طرح التثريب ٨/ ٧٣.

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٧٩ ـ ٤٨١.



فَصْل
صُلْح الحُدَيبِيَة

قال المصنف: «ولَمَّا كان ذو القعـدة من السنة السادسة خرجَ رسُولُ الله ﷺ معتمراً في ألفٍ، قيل: وخمسمائة، وقيل: وأربعمائة، وقيل: وثلاثمائة، وأما من زعم أنه خرجَ في سبعمائة فقد غلط.

فلمـا علِم المشركـونَ بـذلك جمعـوا أحـابيشهم وخرجوا من مكة صادّين لـه عن الاعتمـار هـذا العام، وقـدَّموا على خيل لهم خالـدَ بنَ الوليـد إلـى كُرَاع الغَمِيم[1].

وخالفه ﷺ في الطريقِ فانتهى ﷺ إلى الحُدَيبِيَة، وتراسلَ هو والمشركونَ حتى جاء سُهيلُ بنُ عمرو فصالحه على: أن يرجعَ عنهم عامهم هذا، وأن يعتمرَ من العام المقبل، فأجابه ﷺ إلى ما سأل؛ لِمَا جعلَ الله ﷻ في ذلك من المصلحةِ والبركةِ. وكره ذلك جماعةٌ من الصحابةِ ﵃، منهم: عمرُ بنُ الخطاب ﵁، وراجع أبا بكر الصّدّيق في ذلك، ثم راجـعَ النبي ﷺ، فكان جوابُـه ﷺ كما أجابـه الصّدّيق ﵁، وهو أنه عبدُالله ورسُولُه وليس يعصيه، وهو ناصره، وقد استقصى البخاري هذا الحديث في صحيحه».

---

(١) كراع الغميم: تبعد عن مكة (٦٤) كيلاً على طريق المدينة.

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ الحُديبية: قرية قرب مكة المكرمـة، على بعد (٢٢) كيلاً غربها، وتعرف الآن بالشميسي، وسمّيت الحادثة بالحديبية، لأن قريشاً منعت المسلمين من دخول مكة وهم بها.

٢ ـ وقد درج كثير من كتاب السيرة على تسمية هذه الحادثة بغزوة الحديبية، وكذا وقع في بعض كلام السلف.

وفي هذه التسمية عندي نظرٌ، لأن النبي ﷺ لم يخرج غازياً ولا محارباً، وإنما خرج زائراً لبيت الله معظماً له مُـحْرِماً بالعمرة.

لـذلك كان الأولى تسميتها بعمرة الحديبيـة، أو صُلح الحـديبية، ولم أر من سبقني إلى مثل هذا التنبيه، فالله أعلم.

٣ ـ وقد كان مقصد النبي ﷺ بخروجه هو زيارة البيت الحرام وأداء العمرة، هكذا ورد في الأحاديث الصحيحة[١]، وأخطأ من قال من كتاب السيرة أنه خرج قاصداً الحج[٢].

٤ ـ والحادثة كما أشار المصنف مخرجـة في صحيح البخاري بلفظ مطول، وكذا أخرج مسلم حوادث مفرقة منها[٣].

٥ ـ وقـول المصنف: «**وأمـا من زعم أنـه إنما خرج في سبعمائـة فقد غلط**»،

---

(١) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري «١٦٩٤، ١٧٧٨»، صحيح مسلم «١٢٥٣».

(٢) مثل محمد حسين هيكل في حياة محمد ص٢٣١، ومحمد أبو زهرة في خاتم النبيين ٢/ ٧٤٣.

(٣) صحيح البخاري «٢٧٣١»، صحيح مسلم «١٢٥٣، ١٧٨٣، ١٧٨٥».

فالمصنف يقصد بهذا ابن إسحاق رحمه الله.

قال ابن حجر: «وأما قول ابن إسحاق إنهم كانوا سبعمائة فلم يوافق عليه، لأنه قاله استنباطاً»[1].

قلت: لم أر ابن إسحاق صرّح بالسبعمائة من عند نفسه، وإنما روى هذا عن الزهري عن عروة عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: أنهم كانوا سبعمائة رجل[2].

وقد حمله الحافظ العراقي على مبدأ خروجهم من المدينة قبل أن يلحق بهم من لحقهم من غيرها[3].

*** شروط الصلح:**

قال المصنف: «فقاضاه سُهيلُ بنُ عمرو على أن يرجعَ عنهم عامَه هذا، وأن يعتمرَ مِن العام المقبل، على أن لا يدخلَ مكة ألا في جُلْبّان السلاح[4].

وأن لا يُقيم عندهم أكثر من ثلاثة أيامٍ. وعلى أن يأمنَ الناسُ بينهم وبينه عشر سنين.

وعلى أنه من شاء دخل في عَقْد رسُولِ الله ﷺ، ومن شاء دخل في عَقْد قريشٍ.

---

(١) فتح الباري ٧/ ٤٤١.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩.

(٣) طرح التثريب ٧/ ٢٠٨.

(٤) السيوف في قرابها.

وعلى أنه لا يأتيه أحدٌ منهم وإن كان مسلماً إلا ردّه إليهم، وإن ذهب أحدٌ من المسلمين إليهم لا يردُّونه إليه.

فأقرّ الله سبحانه ذلك كلَّه إلَّا ما استثنى من المهاجراتِ المؤمناتِ من النساء؛ فإنه نهاهم عن ردهنّ إلى الكفار، وحرمهنّ على الكفار يومئذ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ ما ذكره المصنف أن مدة الهدنة بين المسلمين وقريش كانت عشر سنين ذكره ابن إسحاق في السيرة، قال ابن حجر: «وهو المعتمد»[1].

٢ ـ وقد استدل بهذه الحادثة على جواز عقد الهُدنة بين المسلمين وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدة معلومة، إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين.

والجمهور على أنها لا تجوز أكثر من عشر سنين، بناء على ما تم في صلح الحديبية، قال ابن حجر: «وهو الراجح»[2].

٣ ـ كما دلت الحادثة على أن للإمام التنازل عن بعض الحقوق والمصالح الصغيرة رجاء تحقيق مصالح ومنافع أكبر منها وأعظم.

٤ ـ وقد كان النبي ﷺ حريصاً على إتمام هذا الصلح، لأنه كان حريصاً على إنهاء حالة الحرب التي تنافي الهدوء والاستقرار الذي يمكن أن تنتشر فيه الدعوة.

٥ ـ وقد كان لهذا الصلح فوائد عدة للمسلمين منها:

أولاً: أن فيه اعترافاً من قريش لأول مرة بالمسلمين، وأن لهم شرعية وكياناً

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٧، فتح الباري ٥/ ٣٤٣.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٤٣.

مستقلاً تبرم معه العهود والمواثيق.

ثانياً: أن هذا الصلح أتاح للنبي ﷺ التفرغ للدعوة إلى الله ومراسلة الملوك والزعماء ودعوتهم إلى الإسلام مما لم يكن متاحاً قبل الصلح.

ثالثاً: أن هذا الصلح أتاح للنبي ﷺ دعوة القبائل التي كانت تخشى قريشاً فأصبحوا يقبلون على الإسلام دون خوف أو وجل.

وقد ذكر أهل السير أن الذين أسلموا في مدة صلح الحديبية وهي سنتان فقط كانوا أكثر من الذين أسلموا قبل ذلك في (١٦) عاماً من عمرة الدعوة، وكل هذا كان من بركات صلح الحديبية[١].

٦ ـ وقد أسلم في زمن صلح الحديبية بعض كبار الصحابة، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة صاحب مفاتيح الكعبة[٢].

٧ ـ وفي مكاتبة النبي ﷺ للملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية وداخلها دليل على عالمية الإسلام، وأن رسالته لا تقتصر على أناس بعينهم أو بلد بعينه، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾[الأَعْرَافِ: ١٥٨].

٨ ـ كما دلت حادثة صلح الحديبية على أن الخِيَرة فيما يختاره الله لعباده المؤمنين، وإن كرهوه في الظاهر، كما قال تعالى: ﴿**فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾[النساء: ١٩][٣].

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٣٢٢.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٤٦.

(٣) دراسات في السيرة النبوية ص١١٥.

* بيعة الرضوان:

قال المصنف: «وقد كان ﷺ قبلَ وقوعِ هذا الصُّلْح بَعَثَ عثمان بنَ عفان رضي الله عنه إلى أهلِ مكة يُعْلِمُهم أنه لم يجيء لقتالِ أحـدٍ، وإنما جاء معتمراً، فكان من سيادة عثمان رضي الله عنه أنه عرض عليه المشركون الطَّواف بالبيتِ، فأبى عليهم وقال: لا أطوف بها قبل رسُولِ الله ﷺ. ولم يرجع عثمانُ رضي الله عنه حتى بلغه ﷺ أنه قد قُتِل عثمان، فَحَمِي لذلك رسُولُ الله ﷺ، ثم دعـا أصحابَه إلى البيعةِ على القتال، فبايعوه تحت شجرةٍ هناك. ووضعَ ﷺ إحدى يديه عن نفسهِ الكريمةِ ثم قال: «وهذه عن عثمان» رضي الله عنه، فكان ذلك أجلَّ من شُهوده تلك البيعة. وأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨]، وقـال ﷺ: «لا يـدخل أحدٌ ممن بايعَ تحتَ الشجرةِ النارَ»[(١)]، فهذه هي بيعة الرضوان».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ هذه الحادثة تسمّى ببيعة الرضوان، لأن الله تبارك وتعالى أخبر بأنه قد رضي عـن أصحـابها في قولـه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨]، وسببها كما أشار المصنف من إشاعة قتل قريشٍ لعثمان بن عفان رضي الله عنه.

٢ ـ وقد اختلف في الشيء الذي بايع الصحابةُ عليه النبيَّ ﷺ يومها، فذكر المصنف أنهم بايعوه على القتال، ولم أقف على هـذه الرواية، إلا أنها صحيحة من حيث المعني، لأن الرواية في الصحيح أنهم بايعوه على الموت، وفي رواية: على أن ألا يفروا، وفي روايـة على الصبر، وكلها روايات صحيحـة، ولا تعارض بينهما،

---

(١) صحيح مسلم «٢٤٩٦».

لأن البيعة على الموت تعني الثبات وعدم الفرار، وتعني الصبر عند اللقاء، وتعني القتال[1].

٣ ـ والحادثة فيها فضيلة ظاهرة لأهل الحديبية، وهم أهل بيعة الرضوان.

٤ ـ وفيها فضيلة خاصة لعثمان بن عفان ﷺ حيث بايع النبي ﷺ عنه في غيبته وقال: بيده اليمنى: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده، فقال: «هذه لعثمان»[2].

*** تحلل النبي ﷺ ورجوعه إلى المدينة:**

قال المصنف: «ولمَّا فَرَغَ النبيُّ ﷺ من مُقاضاةِ المشركينَ شَرعَ في التحلُّل مِن عمرتِه وأَمَرَ الناسَ بذلك، فشقَّ عليهم وتوقفوا، رجاء نسخه، فغضبَ النبيُّ ﷺ مِن ذلك، فدخل على أمّ سَلَمَة، فقال لها ذلك، فقالت: اخرج أنتَ يا رسُولَ الله فاذبحْ هديَك واحلق رأسَك، والناسُ يَتْبَعُونك يا رسُولَ الله، فخرجَ ففعل ذلك.

فبادرَ الناسُ إلى موافقته، فحلقوا كلُّهم، إلَّا عثمان بن عفان وأبا قتادة الحارث ابن ربعي، فإنهما قصّراً، ذكره السهيلي في الروض الأنف[3].

وكادَ بعضُهم يقتلُ بعضاً غماً، لأنهم يرون المشركينَ قد ألزموهم بشروطٍ كما أحبُّوا، وأجابهم ﷺ إليها، وهذا من فَرْطِ شجاعتِهم ﷺ وحرصهم على نصرِ الإسلام.

ولكنَّ الله ﷻ أعلمُ بحقائقِ الأمورِ ومصالحِها منهم. ولهذا لَمَّا انصرفَ ﷺ

---

(١) فتح الباري ٦/ ١١٨.

(٢) صحيح البخاري «٣٦٩٨».

(٣) الروض الأنف ٦/ ٤٩٢.

راجعاً إلى المدينة أنزلَ الله ﷻ عليه سورةَ الفتح بكمالها في ذلك».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ في الحادثة دليل على أن من أحرم للحج أو العمرة ثم عرض له مانع من أدائها من عدو أو مرض ونحوه فإنه يتحلَّل منها ولا يلزمه قضاء، واختلف في وجوب ذبح الهدي عليه(١).

٢ ـ وإنما تأخر الصحابة في امتثال أمره ﷺ بالتحلل لأنهم كانوا يرجون نزول وحي يغيّر الموقف وينسخ الأمر.

فلما رأوا رسول الله ﷺ أخذ في التحلُّل بادروا إلى ذلك، وقد دخلهم من الهم والغم أمر عظيم، لأنهم كانوا يرون أن شروط قريش فيها إجحاف بالمسلمين، كما أن النبي ﷺ كان قد أخبرهم قبل بأنهم سيدخلون المسجد الحرام ويطوفون بالبيت، فلما صُدُّوا عنه ووقع الصلح أشكل عليهم، فبين لهم النبي ﷺ بأنه لم يخبرهم أنهم سيدخلونه عامهم هذا.

٣ ـ ونسْبَة المصنف إلى السهيلي التقصير وعدم الحلق لعثمان بن عفان وأبي قتادة نسَبَه الحافظ في الفتح أيضاً إلى أبي داود(٢)، ولم أقف عليه عند أبي داود، فالله أعلم.

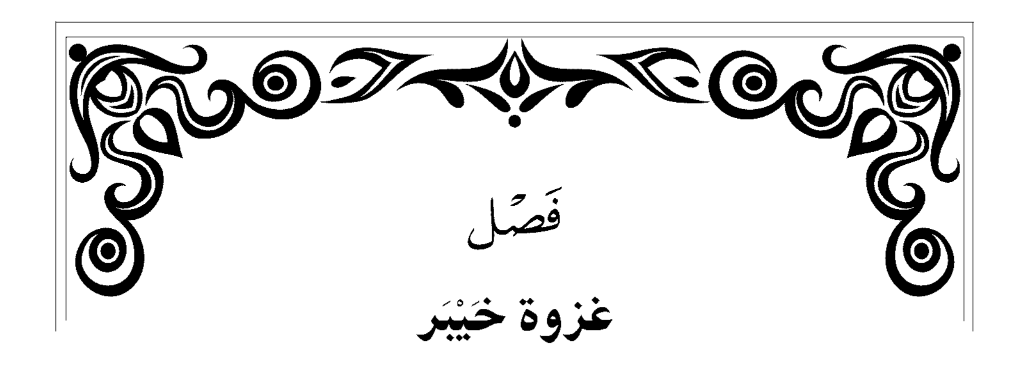
٤ ـ كما أن في الحادثة فضل أم سَلَمَة زوج النبي ﷺ وحصافة رأيها.



---

(١) سبل السلام ١/ ٦٥٩.

(٢) فتح الباري ٣/ ٥٦٣.



فَصْل

غزوة خَيْبَر

قال المصنف: «ولمَّا رجعَ ﷺ إلى المدينةِ أقامَ بها إلى المحرَّمِ من السنة السابعة، فخرجَ في آخرِه إلى خيبر، ونُقل عن مالكٍ بن أنسٍ رحمه الله أن فتحَ خيبرَ كان في سنة ستٍ، والجمهورُ على أنها في سنة سبعٍ. فسارَ ﷺ إليها، فلما انتهى إليها حاصرها حصناً حصناً يفتحُه الله ﷻ عليه ويغنمُه، حتى استكملها ﷺ وخمَّسَها، وقَسَمَ نصفَها بين المسلمينَ، وكان جملتهم من حضرَ الحُديبية فقط، وأرصدَ النصف الآخرَ لمصالحه ولما ينوبُه من أمر المسلمين».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، تقع شمال المدينة على طريق الشام، وتبعد عنها حوالي (١٥٠) كيلاً.

٢ ـ وحاصل هذه الغزوة أن النبي ﷺ بعد أن أمِن جانبَ قريش بالصلح الذي عقده معها بالحديبية أراد أن يحلّ مشكلة الخطر اليهودي في خيبر، وما كانوا يشكلونه من تهديد للمسلمين، حيث شاركوا في تأليب الأحزاب يوم الخندق، وسخروا أموالهم في ذلك، وحرضوا بني قريظة على نقض العهد مع المسلمين، وكانوا يستعدون لغزو المدينة بالتحالف مع غطَفان.

وكانت خيبر تتألف من مجموعة من الحصون المنيعة، فحاصرها النبي ﷺ

أياماً عدة، وفتحها حصناً حصناً، حتى سقطت كلها بأيدي المسلمين.

٣ ـ وجمهور علماء السير على أن الغزوة وقعت في محرَّم من سنة سبع، قال ابن حجر: «وهو الراجح»[١].

٤ ـ وما ذكره المصنف من أن رسول الله ﷺ قسم نصف خيبر، وأبقى نصفها لنوائبه ومصالحه، أخرجه أبو داود عن سهل بن أبي حثْمة، قال: «قسم رسول الله ﷺ خيبر نصفين: نصفاً لنوائبه وحاجته، ونصفاً بين المسلمين»[٢].

وقد بيّن الإمام الخطابي أن أرض خيبر منها ما فُتح عنوة فهذا هو الذي قسمه النبي ﷺ بين المجاهدين، ومنها ما فُتح صلحاً فكان فيئاً وضعه النبي ﷺ في حوائجه ومصالح المسلمين[٣].

٥ ـ وبرغم شدة القتال الذي كانت بين النبي ﷺ وبين يهود خيبر فقد كان النبي ﷺ حريصاً على إسلامهم وهدايتهم، وقال لعلي بن أبي طالب حين أعطاه الراية لقتالهم: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من أن يكون لك حُمُر النعم»[٤].

*** إقرار اليهود للعمل بخيبر وحادثة الشاة المسمومة:**

قال المصنف: «واستعملَ اليهودَ الذين كانوا فيها بعد ما سألوا ذلك عِوَضاً

---

(١) فتح الباري ٧/ ٤٦٤.

(٢) سنن أبي داود «٣٠١٠» بإسناد صحيح.

(٣) ينظر معالم السنن ٣/ ٣١.

(٤) صحيح البخاري «٣٠٠٩»، صحيح مسلم «٢٤٠٦».

عمّا كان صالحهم عليه من الجلاءِ على أن يعملوها ولرسُولِ الله ﷺ النصفُ مما يخرج منها من ثمر أو زرعٍ، وقد اصطفى ﷺ من غنائمها صفيَّة بنتَ حُييّ بن أخطب لنفسه، فأسلمت، فأعتقها وتزوجها، وبنى بها في طريقِ المدينةِ بعدما حلَّت.

وقد أهدتْ إليه امرأةٌ من يهودِ خيبر ـ وهي زينبُ بنتُ الحارثِ امرأةُ سلَّام ابن مِشْكم ـ شاة مصليَّة[1] مسمومة، فلما انتهش من ذراعها أخبره الذراعُ أنه مسمومٌ، فترك الأكلَ، ودعا باليهودية فاستخبرها: أسممتِ هذه الشاة؟ فقالت: نعم، فقال: «ما أردتِ إلى ذلك»؟ فقالت: أردتُ إن كنت نبياً لم يضرّك، وإن كنت غيره استرحنا منك، فعفا عنها ﷺ. وقيل: إن بشرَ بن البراء بن مَعْرور كان ممن أكل منها، فمات، فقتلها به. وقد روى ذلك أبو داود مرسلاً عن أبي سَلَمَة بن عبد الرحمن بن عوف».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حاصل ما ذكره المصنف أن رسول الله ﷺ بعدما فتح الله عليه خيبر عَزَم أولاً على إجلاء اليهود منها، فسألوه أن يبقيهم يعملوا فيها على أن لهم نصف ما يخرج منها، فوافق بشرط أن يخرجهم منها متى شاء.

أخرج مسلم في صحيحه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لـمّا ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها، فسألت اليهود رسول الله ﷺ أن يقرّهم بها، على أن يكفوا عملها ولهم نصف الثمر، فقال لهم رسول الله ﷺ: «نقرّكم بها على ذلك ما شئنا»، فقروا بها حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحاء[2].

---

(١) مشويّة.

(٢) صحيح مسلم «١٥٥١».

٢ ـ واصطفاؤه ﷺ صفيّة بنت حُيي وإعتاقها وتزوجها أخرجه صاحبا الصحيحين من حديث أنس بن مالك[١].

٣ ـ وقصة الشاة المسمومة التي أهديت للنبي ﷺ في خيبر مخرجة في البخاري من حديث أبي هريرة باختصار[٢].

وقد بين غير واحد من أهل العلم أن النبي ﷺ عفا عن تلك المرأة أول الأمر، لكن لما مات بشر بن البراء بعد ذلك بسبب السم قتلها قصاصاً به[٣].

٤ ـ وقوله: «**وقد روى ذلك أبو داود مرسلاً...**» قلت: لفظه عند أبي داود: عن أبي سَلَمَة: أن رسول الله ـ أهدت له يهوديةٌ بخيبر شاة مصليّة، قال: فمات بشر بن البراء بن معرور الأنصاري، فأرسل إلى اليهودية: «ما حملك على الذي صنعت؟» فأمر بها رسولُ الله ﷺ فقتلت[٤].

*** قدوم جعفر بن أبي طالب ومن بقي بالحبشة:**

قال المصنف: «وقَدِمَ على النبيّ ﷺ في غزوة خيبر بعد فراغهم من القتال جعفرُ بنُ أبي طالب وأصحابُه ممن بقي مهاجراً بأرضِ الحبشةِ، وصُحْبتهم أبو موسى الأشعري في جماعةٍ من الأشعريين يزيدون على السبعين. وقَدِم عليه أبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم أجمعين، فأعطاهم ﷺ من المغانم كما أراه الله ﷻ.

---

(١) صحيح البخاري «٣٧١»، صحيح مسلم «١٣٦٥».

(٢) صحيح البخاري «٣١٦٩».

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/ ١٧٩، فتح الباري ٧/ ٤٩٧.

(٤) سنن أبي داود «٤٥١١» وإسناده صحيح إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن، وقد وصله الحاكم ٣/ ٢١٩، والبيهقي ٨/ ٤٦ عن أبي هريرة، وسنده حسن.

وقـد قال ﷺ لجعفر: «لا أدري بأيّهما أنا أُسرّ، أبفتحِ خيبر أم بقدومِ جعفر؟»، ولمّا قَدِمَ عليـه قام وقبّـل ما بين عينيه. وقد استُشهد بخيبر من المسلمين نحو عشرين رجلاً رضي الله عنهم جميعهم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه حين فتح خيبر مخرَّج في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري[1].

ولم يتبين لي سبب تأخرهـم في بلاد الحبشة كـل هذا الوقت رغم أن سبب هجرتهم وهو اضطهاد قريش قد انتهى منذ سنوات كثيرة، ولم أر من تعرض لبحث هذا، فلينظر؟!

ثم بدى لي احتمال أن يكون مكوثهم هناك إنما هو من أجل الدعوة إلى الله والتعريف بالإسلام، هذا أمر وارد، والله أعلم.

٢ ـ وقوله ﷺ: «**لا أدري بأيهما أُسرّ، أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟**» وتقبيله له أخرجه الحاكم وصححه، وحسنه الألباني[2].

٣ ـ وفي تقبيل النبي ﷺ لجعفر دليل على مشروعيـة تقبيل القادم من السفر والتزامه، وكذلك من طال العهد به.

وأمـا حديث أنس بن مـالك عنـد الترمذي، «أن رجلاً قال يا رسول الله: الرجل منّا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: لا، قال: أفيلتزمه ويقبّله؟ قال:

---

(١) صحيح البخاري «٣١٣٦»، صحيح مسلم «٢٥٠٢».

(٢) مستدرك الحاكم ٤/ ٢١١، تعليق الألباني على فقه السيرة للغزالي ص٣٥١.

لا، قال: فيأخذ بيده فيصافحه؟ قال: نعم»[1].

فهذا الحديث محمول على اللقاء المعتاد المتكرر بين الناس، فالتقبيل والالتزام في هذه الحال غير مرغب فيه، بخلاف القادم من السفر أو من طال به العهد[2].

٤ ـ وقوله: «**استُشهد بخيبر من المسلمين نحو عشرين رجلاً**»: يعني في معارك خيبر، وقد سماهم ابن إسحاق في السيرة من قوله معلقاً[3].

وذكر الواقدي أن قُتِل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً[4].

٥ ـ وكان عدد جيش المسلمين بخيبر (١٥٠٠)، فيهم ثلاثمائة فارس[5].

٦ ـ وكما يقول الدكتور العُمري فإنه بهذه الغزوة يكون قد انتهى دور اليهود العسكري والاقتصادي في الحجاز، وتفرغ المسلمون بعدها لإخضاع قبائل العرب المشركة ولتوحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام[6].



---

(١) سنن الترمذي «٢٧٢٨»، وحسنه، وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح (٤٦٨٠).

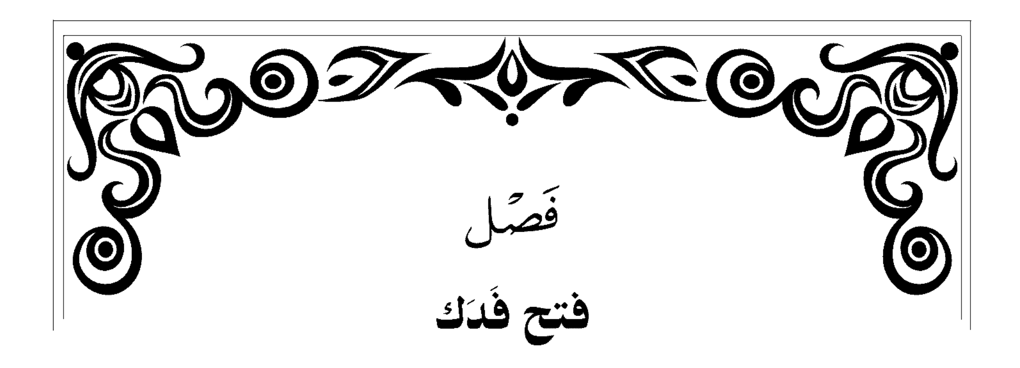
(٢) مرقاة المفاتيح ٧/ ٢٩٦٥، فقه السيرة للبوطي ص٢٤٨.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤٣.

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٧٠٠.

(٥) سنن أبي داود «٢٧٣٦»، وإسناده فيه ضعف، فيه يعقوب بن مجمع لم يوثقه غير ابن حبان.

(٦) السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٣٣٢.



فَصْل

فتح فَدَك

قال المصنف: «ولمَّا بَلَغَ أهلَ فَـدَكٍ ما فعل رسُولُ الله ﷺ بأهلِ خيبر، بعثوا إليه يطلبون الصُّلحَ فأجابهم، فكانت مما لم يُوجِف المسلمونَ عليه بخيلٍ ولا رِكابٍ، فوضعها ﷺ حيث أراه الله ﷻ، ولم يقسمها».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ فدك بالتحريك وآخره كاف: بلدة عامرة كثيرة النَّخل والزرع والسكان شرق خيبر، وتسمى اليوم: «الحائط».

٢ ـ وقصة أهل فَدَك ذكرهـا ابن أسحاق بنحـوه سياق المصنف، وهي في سنن أبي داود[١].

٣ ـ وكـان النبي ﷺ يصرفُ مـال الفيء الـذي يأتي من فَدَك وغيرهـا على ما أمره الله؛ فينفق منه على نفسه وأهله نفقة سنة، ويجعل باقيه في السلاح ومصالح المسلمين.

فلمـا مات ﷺ اعتقدت ابنته فاطمـة ﵂ أن هـذا الفيء ومنـه فَدَك يكون

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣٧ بـدون إسناد، سنن أبي داود «٣٠١٦» بإسناد ضعيف، لكن لها شواهد كثيرة تثبت بها.

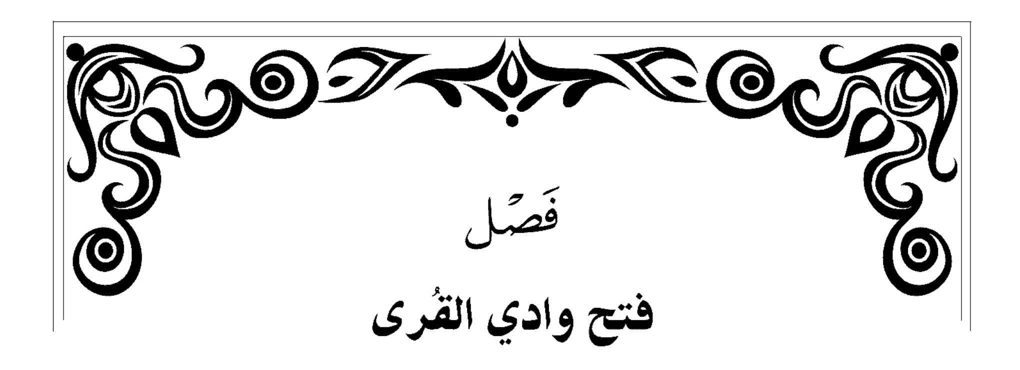
موروثاً عنه! ولم يبلغها ﷺ قوله عليه الصلاة والسلام: «لا نورث ما تركناه صدقة»[1]، أو أنها ﷺ تأوّلت الحديث على أن المراد به الأصول والرقاب دون المنافع، وأما أبو بكر فتمسك بعموم النص.

قال الحافظ ابن حجر: «وأما سبب غضبها مع احتجاج أبي بكر بالحديث المذكور فلاعتقادها تأويل الحديث على خلاف ما تمسك به أبو بكر، وكأنها اعتقدت تخصيص العموم في قوله «لا نورث»، ورأت أن منافع ما خلّفه من أرض وعقار لا يمتنع أن تورث عنه، وتمسك أبو بكر بالعموم، واختلفا في أمر محتمل للتأويل»[2].

❒ ❒ ❒

(١) صحيح البخاري «٦٧٢٦»، صحيح مسلم «١٧٥٨».

(٢) فتح الباري ٦/ ٢٠٢.



فَصْل

فتح وادي القُرى

قال المصنف: «ورجعَ إلى المدينةِ على وادي القُرى فافتتحه، وقيل: إنه قاتل فيـه. فالله أعلم. وفي الصحيحين[1]: أن غـلاماً لرسُولِ الله ﷺ يُدعى مِدْعَماً، بينما هو يَـحطُّ رحـل رسُولِ الله ﷺ إذ جاءه سهم غَرْبٌ[2] فقتله، فقال الناسُ: هنيئاً له الشهادة يا رسُـولَ الله، فقال: «كلا والـذي نفسي بيدِه، إن الشَّمْلة التي أخذها من الغنائم لم تُصبها المقاسمُ لتشتعلُ عليه ناراً»».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ وادي القرى سمّي بـذلك لكثرة قراه، وهو بين المدينة وتبوك، وأعظم مدنه اليوم: مدينة «العُلا» شمال المدينة، على مسافة (٣٥٠) كيلاً.

٢ ـ وحادثـة فتـح وادي القرى ذكـرها ابن إسحـاق فـي السيـرة[3]، وفي الصحيحين إشارة لها[4].

---

(١) صحيح البخاري «٤٢٣٤»، صحيح مسلم «١١٥» من حديث أبي هريرة.

(٢) أي لا يُدرى من رمى به.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣٨ بدون إسناد.

(٤) صحيح البخاري «٤٢٣٤»، صحيح مسلم «١١٥».

وذكر ابن القيم[1]: أنه كان بها جماعة من اليهود والعرب، فدعاهم رسول الله ﷺ أولاً إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا احرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، فلما أبوا قاتلهم حتى فتح بلادهم عنوة وغنم أموالهم.

٣ ـ وحادثة الغلام الذي غلّ الشملة من الغنائم مخرجة في الصحيحين[2]، وفيها دليل على تعظيم أمر الأخذ من مال الغنيمة قبل قسمتها، وعدّه الهيتمي من الكبائر[3].

❐ ❐ ❐

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٣١٤.

(٢) صحيح البخاري «٤٢٣٤»، صحيح مسلم «١١٥»، وليس عند مسلم التصريح باسم الغلام.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ٢٩١.



فَصْل

عُمْرة القَضَاءِ

قال المصنف: «ولمَّا رَجَعَ ﷺ إلى المدينةِ أقامَ بها إلى شهرِ ذي القعدةِ، فخرجَ فيه معتمراً عُمرة القضاءِ التي قـاضى قريشاً عليها. ومنهم من يجعلُها قضاءً عـن عُمرة الحُـديبية حيث صُـدّ، ومنهم مـن يقول عُمرة القصاصِ، والكـلُّ صحيح. فسارَ حتى بلغَ مكة فاعتمرَ وطافَ بالبيت، وتحلّلَ من عُمرته».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ عمرة القضاء ذكرهـا ابن إسحـاق وموسى بن عقبـة بسند حسنه ابن حجر عن ابن عمر[1].

٢ ـ وكانت هـذه العمرة في شهر ذي القعـدة من السنة السابعة من الهجرة في قول عامة أهل السير.

٣ ـ وسمّيت بعمرة القضاء على القول الراجح لأنها كانت مقاضاة حسبما اتُفق عليه في صلح الحديبية بين النبي ﷺ وقريش أن يرجع من عامه ذاك ويعتمر في العام المقبل.

---

(١) فتح الباري ٧/ ٥٠٠.

ولذلك يقال لها أيضاً عمرة القضيّة وعمرة الصلح.

قال العلامـة السهيلي: «سمّيت عمرة القضاء لأن النبي ﷺ قـاضى قريشاً عليها، لا لأنه قضى العمرة التي صُدّ عن البيت فيها، فإنها لم تك فسدت بصدّهم عن البيت، بل كانت عمرة تامة»[1].

٤ ـ ومما يؤكـد أنها كانت عمرة جديـدة ولم تكن قضاء لعمرة الحديبيـة أن الذين صُدّوا عن البيت كانوا ألفاً وأربعمائة، وهؤلاء كلّهم لم يكونوا معه في عمرة القضية، ولو كانت قضاء لم يتخلّف منهم أحد[2].

*** زواجه ﷺ بميمونة بنت الحارث:**

قال المصنف: «وتزوّج بعد إحلالِه بميمونة بنتِ الحارثِ أمّ المؤمنين، وتمت الثلاثـة أيام، فبعثَ إليـه المشركون علياً ﷺ يقولون لـه: اخرجْ من بلدنا. فقـال: «وما عليهم لو بنيتُ بميمونـة عندهم؟»، فأبو عليه ذلك. وقد كانوا خرجوا من مكة حين قدمها ﷺ عداوة وبغضاً له. فخرج عليه الصلاة والسلام فبنى بميمونة بسَرِفٍ ورجعَ إلى المدينةِ مؤيداً منصوراً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ بقاءُ النبي ﷺ بمكة بعد العمرة ثلاثة أيام كان بحسب اتفاقه مع قريش في صُلح الحديبية[3].

---

(١) الروض الأنف ٧/ ٢٥.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٨٦.

(٣) صحيح البخاري «٤٢٥١».

٢ ـ وبعث المشركين علياً كي يُعلم النبي ﷺ بالخروج من مكة مخرج في البخاري[1].

٣ ـ وقد اختلفت الروايات في زواجه ﷺ بميمونة بنت الحارث هل كان حلالاً وقتها أم كان مُحرماً، والصحيح أنه كان حلالاً.

وذهب ابن عباس إلى أنه كان حراماً، قال ابن القيم: «ووهم رضي الله عنه، فإن السفير بينهما بالنكاح أعلم الخلق بالقصة، وهو أبو رافع، وقد أخبر أنه تزوجها حلالاً، وقال: كنت أنا السفير بينهما. وابن عباس إذ ذاك له نحو العشر سنين أو فوقها، وكان غائباً عن القصة لم يحضرها، وأبو رافع رجلٌ بالغٌ، وعلى يده دارت القصة وهو أعلمُ بها، ولا يخفى أن مثل هذا الترجيح موجب للتقديم»[2].

٤ ـ وفي هذه العمرة تحدَّثت قريش فيما بينها بأن محمداً وأصحابه قد أضعفتهم حُمى يثرب، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة حتى يريهم منه قوة وجلداً، وقد كرر فعله هذا في عمرة الجعرانة وفي حجة الوداع فصارت سنة للأبد[3].



(١) صحيح البخاري «٤٢٥١».

(٢) زاد المعاد ١/ ١٠٩.

(٣) المنتقى للباجي ٢/ ٢٨٤.



فَصل

غزوة مُؤتة

قال المصنف: «ولمَّا كان في جمادى الآخرة من سنة ثمانٍ بعثَ ﷺ الأمراءَ إلى مؤتة، وهي قريةٌ من أرضِ الشام، ليأخذوا بثأرِ من قُتل هناك من المسلمينَ، فأمَّـر على الناسِ زيدَ بنَ حارثة مولاه ﷺ، وقال: «إن أُصيبَ زيدٌ فجعفرُ بنُ أبي طالب، فإن أُصيب جعفرٌ فعبدُالله بنُ رَواحة»».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ سمّيت هذه الغزوة مؤتة نسبة إلى المكان الذي وقعت فيه.

ومؤتـة اليوم: قرية عامرة بالسكان، شـرقي الأردن، تبعد (١١) كيلاً عن مدينة الكرك.

٢ ـ جرى عامـة كتاب السيرة على تسميـة هذه الحادثة بـ «غزوة مؤتة» مع أن النبي ﷺ لم يخرج فيها، فكان حسب الاصطلاح ينبغي أن تسمى سريّة أو بعثاً، لكنهم اطلقوا عليها غزوة لكثرة عدد المسلمين فيها، ولما لها من أهمية بالغة[١].

٣ ـ وقولـه: «**ليأخـذوا بثأر مـن قُتل هناك مـن المسلمينَ**»: كان هذا سبب الغزوة، وإيضاحـه: أن النبي ﷺ كان قد أرسل رسولاً يقال له الحارث بن عمير

(١) فقه السيرة للبوطي ص٢٥٨.

الأزدي إلى شرحبيل بن عمرو الغساني أمير بصرى من قِبَل الروم يدعوه إلى الإسلام.

فأوثقه شرحبيل وقتله صبراً، وكانت العادة قد جرت بعدم قتل الرسل والسفراء مهما عظم الخلاف وكرهت الرسالة.

فلما بلغ الخبرُ النبيَّ ﷺ غضب واشتدّ عليه فبعث هذه السرية تأديباً له[1].

وربما كان مقصد النبي ﷺ أكبر من ذلك، وأنه كان يريد تحرير قبائل العرب القاطنين شمالي الجزيرة العربية من هيمنة الروم، وجعلها تحت رعاية دولة الإسلام.

٤ ـ وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن أهل المغازي لا يختلفون في أنها وقعت في السنة الثامنة من الهجرة إلا ما ذكره خليفة بن خياط أنها كانت سنة سبع[2].

٥ ـ وترتيبه ﷺ الأمراء وقوله «**إن أصيب زيد فجعفر فإن أصيب فعبدالله ابن رواحة**»، هذا مخرّج في الصحيح بنحوه من حديث ابن عمر[3].

وفيه دليل على جواز تعليق الإمارة بشرط، وتولية عدة أمراء بالترتيب، كما أفاده الحافظ في الفتح[4].

٦ ـ وكانت هذه الغزوة هي الأولى التي يتخذ النبي ﷺ فيها مثل هذا الإجراء من تولية عدد من الأمراء على الترتيب، وربما حمله ﷺ على ذلك بعد المسافة وقوة

---

(١) طبقات ابن سعد ٤/ ٢٥٥.

(٢) فتح الباري ٧/ ٥١١.

(٣) صحيح البخاري «٤٢٦١».

(٤) فتح الباري ٧/ ٥١٣.

الأعداء، مما قد يتوقع معه حصول الأخطار والمكاره[1].

* **خروج الجيش وتوديع النبي ﷺ لهم:**

قال المصنف: «فخرجُوا في نحوِ من ثلاثةِ آلافٍ، وخَرَجَ ﷺ معهم يُودّعهم إلى بعضِ الطريقِ، فساروا حتى إذا كانوا بمعان[2] بلغهم أن هرقلَ ملكَ الروم قد خَرَجَ إليهم في مائةِ ألفٍ ومعه مالِك بنُ زافلة في مائة ألف أخرى من نصارى العرب؛ من لَخْم وجُذام وقبائل قُضاعة من بَهْراء وبِلّي وبَلْقِين.

فاشتورَ المسلمون هناك، وقالوا: نكتبُ إلى رسُولِ الله ﷺ يأمرنا بأمره أو يمدّنا. فقال عبدُالله بنُ رَواحة ﷺ: يا قومُ! والله إن الذي خرجتُم تطلبون: أمامكم ـ يعني الشهادة ـ وإنكم ما تقاتلون الناسَ بعددٍ ولا قوةٍ، وما نقاتلهم إلَّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فهي إحدى الحُسنيين: إما ظهورٌ، وإما شهادةٌ. فوافقه القومُ، فنهضوا».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ عامة مصادر السيرة تذكر أن عدد جيش المسلمين كان ثلاثة آلاف، بينما كان عدد جيش الروم ومن انضم إليهم من نصارى العرب مائتي ألف مقاتل، أي أكثر من (٦٦) ضعفاً!!

قال ابن كثير: «أقل ما قيل: إن الروم كانوا مائة ألف ومن العرب خمسون ألفا»[3].

---

(١) السيرة النبوية للعُمري ٢/ ٤٦٧.

(٢) معان: مدينة جنوب عمان بالأردن، على مسافة (٢١٢) كيلاً منها.

(٣) البداية والنهاية ٦/ ٤١٦.

وأنا أشك في هذا الرقم، وأرى أن فيه مبالغة لأسباب منها:

أولاً: أن حشـد مثل هـذه الأعـداد الضخمـة ليس بالأمـر الهين في وقت قصير.

ثانياً: أن عـدد جيش المسلمين كان معروفاً لـدى أعدائهم وأنه لا يتجاوز ثلاثة آلاف، فمن المستبعد أن يقابلهم الروم بتلك الأعداد الهائلة.

ثالثاً: أن حصيلة شهداء المسلمين في المعركـة لم تتجاوز ثلاثـة عشر شهيداً أو أقلّ، مما لا يتناسب مع ما ذُكر من أعداد خصومهم وقوتهم!؟

على أن بعض علمـاء السيرة كالإمام الزهري[1] لم يحدد عدداً لجيش الروم وحلفائهم، واكتفى بكونهم جموعاً كثيرة، ولعل هذا هو الأصوب والله أعلم[2].

٢ ـ مقولة عبدالله بن رواحة «**يا قوم إن الذي خرجتم تطلبون أمامكم...**»، نقلها ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[3].

٣ ـ وقد دلت مواجهة الصحابـة لهذه الجموع الكبيرة على مقـدار ما كانوا عليه من شجاعة وصبر وقوة إيمان في ميادين الجهاد.

٤ ـ رأى بعض المحللين المعاصرين أن تشجيع عبدالله بن رواحة للمسلمين

---

(١) رواه عنه الطبراني، وقـال الهيثمي في المجمع ٦/ ١٦٠: رجاله ثقات. وانظر: مرويات الإمام الزهري في المغازي ٢/ ٦٨٤.

(٢) وبعد كتابـة هذا رأيت من كتاب السيـرة المعاصـرين أيضاً من أبدى شكاً فيها ذكر من أعـداد الروم ومن معهم ومـال إلى مـا رجحتـه، ينظر غـزوة مؤتـة لبـريك أبي مـائلة ص٢٧٩.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧٥.

لخوض هذه المعركة بالرغم من تفوق عدوهم الهائل يعد خطأ استراتيجياً ومغامرة خطرة!!

لكن يجاب عن هـذا بأن ما ذكر إنما هو بحسب القوانين الأرضية المادية، وليس بحسب من يجاهد في سبيل الله ويدافع عن عقيدة وإيمان[1].

*** اشتداد القتال واستشهاد القادة الثلاثة:**

قال المصنف: «فلمَّـا كانوا بتخومِ البلْقاء لقُوا جموعَ الروم، فنزل المسلمون إلى جنب قريـة مؤتـة، والرومُ على قريةٍ يقـال لها مَشَـارف، ثم التقوا فقاتلوا قتالاً عظيماً. وقُتل أميرُ المسلمين زيدُ بنُ حارثة ﷺ والراية في يده، فتناولها جعفرٌ، وقاتل حتى قُطعت يده اليمنى، فأخذ الراية بيده الأخرى فقُطعت أيضاً، فاحتضن الراية ثم قُتل ﷺ عن ثلاث وثلاثين سنـة على الصحيح. فأخذ الراية عبدُالله بنُ رواحة الأنصاري ﷺ، وتلوَّم بعض التلوّم، ثم صمَّم وقـاتل حتى قُتل، فيقالُ: إن ثابتَ ابن أقرم أخذ الراية وأراد المسلمون أن يؤمّروه عليهم فأبى.

فأخذ الرايـة خالدُ بن الوليد ﷺ فانحـازَ بالمسلمين، وتلطَّفَ حتى خَلَصَ المسلمون من العدو، ففتح الله على يديه كما أخبر بذلك كلّه رسُولُ الله ﷺ أصحابه الذين بالمدينة يومئذٍ، وهو قائم على المنبر، فنعى إليهم الأمراء، واحداً واحداً، وعيناه تذرفان ﷺ، والحديث في الصحيح[2].

وجاء الليل فكفّ الكفار عن القتال. ومع كثرة هذا العدو وقلّة عدد المسلمين بالنسبة إليهم لم يُقتل مـن المسلمين خلقٌ كثيرٌ على مـا ذكـره أهل السيـر، فإنهم لم

---

(١) ينظر غزوة مؤتة لأبي مائلة ص٢٩٤.

(٢) صحيح البخاري «٤٢٦٢» من حديث أنس بن مالك.

يذكروا فيها سمّوا إلا نحو العشرة. وكرَّ المسلمون راجعين، ووقى الله شرّ الكفرة وله الحمدُ والمنّة، إلا أن هذه الغزوة كانت إرهاصاً لما بعدها من غزو الروم، وإرهاباً لأعداءِ الله ورسُولِه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ عامة ما أورده المصنف من أحداث الغزوة ذكره ابن إسحاق في السيرة[1]، وبعضه في صحيح البخاري كما أشار المصنف.

٢ ـ ومن براعة خالد بن الوليد العسكرية في هذه المعركة ما ذكره الواقدي أنه عندما تسلَّم خالدٌ قيادة الجيش في المساء غيّر ترتيبه، فجعل مقدمته مؤخرته، ومؤخرته مقدمته، وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته، فلما أصبح من الغد أنكر الروم هيئة الجيش وراياته وحسبوا أنه قد جاءهم مَدَدٌ فرعبوا وانهزموا[2].

٣ ـ وفي نعيه ﷺ لزيد وجعفر وابن رواحة وهو على المنبر في اليوم الذي ماتوا فيه قبل أن يأتيه خبرهم آية باهرة ومعجزة ظاهرة من معجزاته صلوات الله وسلامه وعليه.

٤ ـ وفي نعيه ﷺ للقادة الثلاثة دليل على جواز الإعلام بموت الميت، وليس ذلك من النعي المنهي عنه، فإن المراد بالنهي إذاعة موت الميت في الأماكن العامة مع تعديد شمائله ومآثره ونعته بأنواع المدائح الصحيحة والمكذوبة، هذا هو المنهي عنه[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧٨.

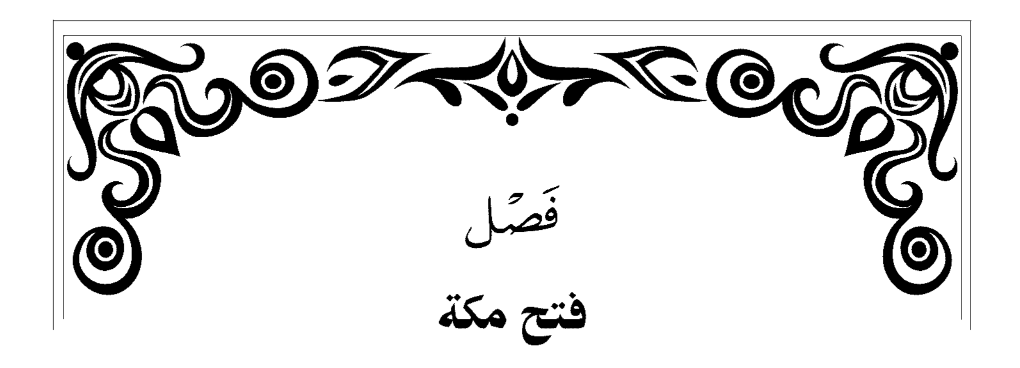
(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٧٦٤.

(٣) تيسير العلام ص٢٧٩.

٥ ـ وفي ظهور حزنه وبكائه ﷺ على أهل مؤتة دليل على أن الحزن والبكاء لا يتنافيان مع الصبر والرضا بالقضاء، وإنما النهي موجه للجزع ورفع الصوت عند المصيبة[1].

❐ ❐ ❐

(١) فتح الباري ٧/ ٥١٤.



فَصْل

فتح مكة

قال المصنف: «نذكر ملخص غزوة فتح مكة التي أكرم الله ﷻ بها رسُولَه، وأقرَّ عينَـه بها، وجعلها عَلَماً ظاهـراً على إعـلاءِ كلمتـه وإكمـالِ دينـه والاعتناءِ بنصرته.

وذلك لمـّا دخلت خزاعةُ ـ كما قدّمنا ـ عام الحُديبية في عَقْد رسُولِ الله ﷺ، ودخلت بنو بكرٍ في عَقْد قريشٍ، وضُربت المدَّةُ إلى عشْر سنين، أَمِنَ الناسُ بعضهم بعضاً، ومضى مـن المدةِ سنةٌ ومن الثانيـة نحو تسعـةِ أشهر، فلم تكمل حتى غدا نوفلُ بن معاويـة الدّيلي فيمن أطاعـه من بني بكر بنِ عبـد مناة فبيَّتوا خُزاعة على ماءٍ لهم يقال له الوَتِير[1]، فاقتتلوا هناك بذحُول[2] كانت لبني بكرٍ على خزاعة من أيام الجاهليـة، وأعانت قريشٌ بني بكرٍ على خزاعة بالسّلاح، وساعدهم بعضهم بنفسِه خفية، وقتلوا من خزاعة رجلاً، فانتقض عهدُ قريشٍ بذلك.

فخرج عمرو بن سالم الخزاعي وبُديل بن ورقـاء الخزاعي وقومٌ من خزاعة حتى أتوا رسُولَ الله ﷺ فأعلموه بما كان من قريشٍ واستنصروه عليهم، فأجابهم ﷺ

---

(١) ماء قريب من مكة.

(٢) الذحل: ثأر الجاهلية وعداوتها.

وبشرهـم بالنَّصر، وأنذرهم أن أبا سفيان سيقدُمُ عليهم مؤكداً العَقْد وأنه سيردُّه بغير حاجةٍ. فكان ذلك».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ اتفق علمـاء السيرة على أن غزوة فتح مكة كانت في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة[١].

٢ ـ وسبب هذه الغزوة هو نقض قريشٍ للعهد الذي كان بينها وبين النبي ﷺ، وذلك أن قريشاً كانت قـد أعانت بني بكر على غزو خزاعة وساعدتهم بالسلاح والرجال، وكانت خزاعـة قد دخلت في عقد المسلمين وجوارهم بموجب اتفاق الحديبية، وبذلك تكون قريش قد نقضت عهد الصلح مع المسلمين[٢].

٣ ـ وقـد دلت هذه الحادثـة على أن أهل العهد والهدنـة مـع المسلمين، إذا حاربوا من هم في ذمـة المسلمين وجواره، صاروا حـرباً لهم بذلك. ولم يبق بينهم وبين المسلمين عهد. وهذا ما اتفق عليه علماء المسلمين[٣].

*** فشل قريش في تجديد عقد الصلح:**

قـال المصنف: «وذلك أن قريشاً نـدِمُوا على ما كان منهم، فبعثوا أبا سفيان

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة للعُمري ٢/ ٤٧٥.

(٢) هذه محصلة رواية ابن إسحاق ـ كما في البداية والنهاية ٦/ ٥٠٨ ـ بسنده عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم به، ومن طريق ابن إسحاق رواه البيهقي في الكبرى ٩/ ٢٣٣، وصحح إسناده الصوياني في كتابه السيرة النبوية ٤/ ١٢، وحسنه أكرم العُمري في السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٧٣، وله شاهدان آخران ذكرهما العُمري في كتابه السابق.

(٣) فقه السيرة للبوطي ص٢٧٠.

ليشدَّ العَقْد الذي بينهم وبيـن محمدٍ ﷺ ويزيدَ في الأجلِ، وذهب أبو سفيان حتى قدم المدينـة فدخل على ابنته أم حبيبة زوج رسُولِ الله ﷺ و رضي الله عنها، فذهب ليقعد على فراش رسُولِ الله ﷺ فمنعته، وقالت: إنك رجلٌ مشركٌ نجسٌ. فقال: والله يا بنيّة لقد أصابك بعدي شرٌّ. ثم جاء رسُولَ الله ﷺ فعرض عليه ما جاء له، فلم يجبه ﷺ بكلمةٍ واحـدةٍ. ثم ذهب إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه فطلب منه أن يكلّم رسُولَ الله ﷺ فأبى عليه، ثم جاء إلى عمر رضي الله عنه فأغلظ له، وقال: أنا أفعل ذلك؟! والله لو لم أجد إلا الذرّ لقاتلتكم به. وجاء علياً رضي الله عنه فلم يفعل، وطلب من فاطمة بنتَ رسُولِ الله ﷺ و رضي الله عنها أن تأمر ولدَها الحسن أن يجير بين الناس، فقالت: ما بلغ بنيّ ذلك، وما يجيرُ أحدٌ على رسُولِ الله ﷺ.

فأشار عليه عليٌّ رضي الله عنه أن يقوم هو فيجيرُ بين الناس، ففعل. ورجعَ إلى مكةَ، فأعلمهم بما كان منه ومنهم، فقالوا: والله ما زاد ـ يعنون علياً ـ أن لعبَ بك.

ثم شَرَع رسُـولُ الله ﷺ فـي الجهاز إلى مكـة، وسـأل الله عز وجل أن يعمّي على قريشٍ الأخبار، فاستجـاب له ربّه تبارك وتعـالى، ولذلك لما كتَبَ حاطبُ بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يعلمُهم فيه بما هَمَّ به رسُولُ الله ﷺ من القدومِ على قتالهِم، وبَعَثَ بـه مـع امرأة، وقـد تأول فـي ذلك مصلحـةً تعود عليـه، وقَبِلَ ذلك منـه رسُولُ الله ﷺ وصدَّقه، لأنه كان من أهلِ بدرٍ، وبَعَثَ رسُولُ الله ﷺ علياً والزبير والمقداد رضي الله عنهم، فردُّوا تلك المرأة من روضة خَاخٍ[1]، وأخذوا منها الكتاب.

وكان هذا من إعلامِ الله عز وجل نبيّه ﷺ بذلك ومن أَعلامِ نبوته ﷺ. وخرجَ ﷺ لعشرٍ خلون مـن رمضان، في عشرة آلاف مُقاتل من المهاجرين والأنصار وقبائل

---

(١) موضع بالمدينة بقرب حمراء الأسد من حدود العقيق.

العرب. ولقيه عمّه العباس بذي الحليفة، وقيل: بالجحفة فأسلَم، ورجعَ معه ﷺ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ نَدَمُ قريشٍ على نقضهم العهد وإرسالهم أبا سفيان لتجديده وفشله في ذلك ذكره ابن إسحاق من مرسل عروة بن الزبير، وابن أبي شيبة بإسناد صحيح من مرسل عكرمة(١).

٢ ـ وسؤال النبي ﷺ أن يعمّي عن قريش أخبار مسيره إليهم ذكره ابن إسحاق بلفظ: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»(٢).

٣ ـ وكتابة حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ...إلى آخر قصته مخرج في الصحيحين بلفظ مطول من حديث علي بن أبي طالب(٣).

٤ ـ وقد عفى النبي ﷺ عن حاطب خطيئته هذه لأنه كان من أهل بدر، وقال لعمر بن الخطاب عندما أراد قتله: «وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، **فقد غفرت لكم**»(٤).

٥ ـ قال ابن القيم: «وفي هذا دليل أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية... ثم ذكر نصوصاً عدة في أن الحسنات قد تمحوا

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة «٢٦٩٠٢»، فتح الباري ٨/ ٦.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٩٧، وقال الألباني في تعليقه على فقه السيرة ص٣٧٦: ضعيف رواه ابن إسحاق بدون إسناد.

(٣) صحيح البخاري «٤٢٧٤»، صحيح مسلم «٢٤٩٤».

(٤) صحيح البخاري «٣٠٨١»، صحيح مسلم «٢٤٩٤».

السيئات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود: ١١٤]، ثم قال: «وعَكْسُ هذا ذو الخُويْصَرة التميمي وأضرابه من الخوارج الذين بلغ اجتهادهم في الصلاة والصيام والقراءة إلى حدٍّ يحقر أحد الصحابة عمله معه كيف قال فيهم: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[1] فلم ينتفعوا بتلك الأعمال العظيمة مع تلك المواد الفاسدة المهلكة»[2].

٦ ـ وما ذكره المصنف من إسلام العباس بن عبد المطلب قبل الفتح هذا هو المشهور في إسلامه، وقيل إنه أسلم قبل خيبر، وكان يكتم إسلامه وأظهره يوم الفتح، وبه جزم به ابن عبد البر، وقال ابن حجر إنه «ليس ببعيد»[3].

٧ ـ وفي إعلامه ﷺ بالظعينة التي كانت تحمل كتاب حاطب إلى قريش آية ظاهرة ومعجزة باهرة، وهو مما أطلعه الله عليه من الغيب.

* إسلام أبي سفيان بن حرب:

قال المصنف: «وأما قريشٌ فعمّى الله عليها الخبر، إلا أنَّهم قد خافوا وتوهَّموا من ذلك، فلما كانت تلك الليلةُ خرجَ ابن حَرْب، وبُدَيل بن وَرْقاء، وحَكيم بن حِزَام يتجسسون الخبر، فلما رأوا النيران أنكروها، فقال بُديل: هي نار خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة أقلّ من ذلك. وركب العبّاس بغلة رسُولِ الله ﷺ ليلتئذٍ، وخرجَ من الجيش لعله يلقى أحداً، فلما سمعَ أصواتهم عرفهم، فقال: أبا حنظلة! فعرفه أبو سفيان، فقال: أبو الفضل؟ قال نعم. قال ما وراءك؟ قال ويحك، هذا

---

(١) صحيح البخاري «٧٤٣٢»، صحيح مسلم «١٠٦٤».

(٢) زاد المعاد ٣/ ٣٧٥ باختصار.

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ٢/ ٨١٢، فتح الباري ٣/ ٢٢٠، ٧/ ٧٧.

رسُولُ الله ﷺ في الناس، قال: فما الحيلة؟ قال والله لئن ظَفِرَ بك ليقتلنَّك، ولكن اركبْ ورائي وأسْلِم.

فأدخله على رسُولِ الله ﷺ، وجاء عمرُ في أثره، فاستأذن رسُولَ الله ﷺ في ضربِ عنقه، فأجاره العبّاسُ مبادرة، فتقاول هو وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فأمره ﷺ أن يأتيه به غداً، فلما أصبحَ أتى به رسُولَ الله ﷺ، فعَرَضَ عليه الإسلامَ فتلكأ قليلاً، ثم زجره العبّاسُ فأسْلَم، فقال العبّاسُ: يا رسول الله! إن أبا سفيان يحبُّ الشرفَ، فقال ﷺ «من دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن». والغرضُ أنه ﷺ أصبحَ يومه ذلك سائراً إلى مكة، وقد أَمَر ﷺ العبّاسَ أن يُوقف أبا سفيان عند خَطْم الجبل[1]، لينظر إلى جنودِ الإسلامِ إذا مرَّت عليه.

وقد جعلَ ﷺ أبا عُبيدة بنَ الجرَّاح رضي الله عنه على المقدّمة، وخالدَ بنَ الوليد رضي الله عنه على الميمنة، والزبيرَ بنَ العوام رضي الله عنه على الميسرة، ورسُولُ الله ﷺ في القلب، وأَمَرَهُم بقتالِ مَن قاتلهم، فقُتل من المسلمين ثلاثةٌ، وقُتل من المشركين ثلاثة عشر، وفرّ بقيتُهم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ خروج أبي سفيان وبُدَيل بن وَرْقاء وحَكيم بن حِزام يتجسسون الخبر ...إلى آخر القصة أخرجه البخاري[2] بنحوه مع زيادات ونقص من حديث

---

(١) خطم الجبل: أنفه النادر منه.

(٢) صحيح البخاري «٤٢٨٠».

عروة بن الزبير. قال القسطلاني: «هذا مرسل لأن عروة تابعي»[1].

٢ ـ وقصة إسلام أبي سفيان وقوله ﷺ: «من دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن... الحديث» مخرجة عند أبي داود من حديث ابن عباس بإسناد حسن[2]، وللمرفوع شاهد من حديث أبي هريرة عند مسلم بنحوه[3].

٣ ـ وفي قصة إسلام أبي سفيان بن حرب دليل على عدم اشتراط رسوخ الإيمان في بداية الإسلام، فإن أبا سفيان أسلم في أول الأمر وهو متردد لكن حسن إسلامه بعد ذلك.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحبّ إليه من الدنيا وما عليها»[4].

٤ ـ واستدل بضعهم بقوله ﷺ: «من دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن... الحديث» على أن مكة فتحت صلحاً، وذهب الأكثرون إلى أنها فتحت عنوة، بدليل قوله ﷺ: «فإن أحدٌ ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار»[5]، وأما ما ذكروه من عدم قسمة أرض مكة بين الفاتحين فلقدسيتها وكونها حرم الله ودار النسك ومتعبد الخلق...

---

(١) إرشاد الساري ٦/ ٣٩٠.

(٢) حسنه الألباني في صحيح أبي داود «٣٠٢٢».

(٣) صحيح مسلم «١٧٨٠».

(٤) المصدر السابق «٢٣١٢».

(٥) صحيح مسلم «١٣٥٤».

والمسألة فيها أبحاث طويلة[1].

٥ ـ وفي إرداف العبّاس لأبي سفيان دليل على جواز الإرداف على الدابة إذا كانت تطيق ذلك وليس فيه إضرار بها، وقد صحَّ ذلك من فعله ﷺ في أحاديث عدة[2].

٦ ـ وقوله: «**وأَمَرَهُم بقتال من قاتلهم**»، قلت: قد صحّ هذا من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «هل ترون أوباش قريش؟ قالوا: نعم، قال: انظروا إذا لقيتموهم غداً: أن تَحصدُوهم حصداً، وأحفَى بيده، ووضع يمينَه على شماله»[3].

*** دخوله ﷺ مكة وتأمين الناس:**

قال المصنف: «ودخل رسُولُ الله ﷺ مكة وهو راكبٌ على ناقته وعلى رأسه الـمِغْفَر، ورأسه يكاد يمسُّ مُقَدَّمة الرَّحل من تواضعه لربّه ﷻ. وقد أَمَّنَ ﷺ الناسَ إلا عبدَ العزى بن خَطَل، وعبدَالله بن سعد بن أبي سرح، وعِكرمةَ بن أبي جهل، ومِقْيَسَ بن صُبَابة، والحويرثَ بن نُقَيْذ، وقينتين لابن خَطَل، وسارةَ مولاة لبني عبد المطلب، فإنه ﷺ أهدر دمائهم، وأمر بقتلهم حيث وُجدوا، حتى ولو كانوا متعلّقين بأستار الكعبة. فقُتل ابن خَطَل، وهو متعلّق بالأستار، ومِقْيَس بن صُبَابة، والحويرث بن نُقَيْذ، وإحدى القينتين، وآمن الباقون».

---

(١) فتح الباري ٨/ ١٢، عمدة القاري ٨/ ١٦٢.

(٢) معالم السنن ٢/ ٢٥٠، فيض القدير ٥/ ٢١٥.

(٣) صحيح مسلم «١٧٨٠».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ دخوله ﷺ مكة وعلى رأسه الـمِغْفَر مخرج في الصحيحين(١).

٢ ـ وقوله: «**ورأسه يكاد يمسُّ مُقَدَّمة الرَّحل من تواضعه لربّه**» هذا أخرجه أبو يعلى عن أنس بن مالك بلفظ: «وضع رأسه على رحله تخشُّعاً»(٢).

٣ ـ وتأمينه ﷺ الناس يوم الفتح إلا من ذكرهم المصنف أخرجه النسائي والبيهقي والحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص، وحسنه بمجموع طرقه وشواهده الصوياني(٣).

وفيه دليل على رحمته ﷺ بالناس وعدم إرادته الانتقام ممن طردوه وحاربوه سنين طويلة وكانوا ألدّ أعدائه.

وبهذه الأخلاق الرفيعة تمكّن الإسلام من قلوبهم، فأقبلوا عليه، ودخلوا في دين الله أفواجاً(٤).

وقد أورد ابن إسحاق في السيرة أن النبي ﷺ قال لقريش يوم الفتح: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»(٥).

---

(١) صحيح البخاري «٥٨٠٨»، صحيح مسلم «١٣٥٧».

(٢) مسند أبي يعلى «٣٣٩٣»، وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ١٩٦: «فيه عبدالله بن أبي بكر المقدمي وهو ضعيف».

(٣) الصحيح من أحاديث السيرة ص٤٩٧.

(٤) دراسات في السيرة النبوية ص١٢٦.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٢ بإسناد مرسل، حيث قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم.

٤ ـ وأمره ﷺ بقتل ابن خَطَل ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة ثابت في الصحيحين[١].

قال الدكتور أكرم العُمري: «وهؤلاء الذين أُهدرت دماؤُهم كانوا ممن ألحق الأذى الشديد بالمسلمين، فكان في إهدار دمهم عبرة لم تسوّل له نفسه الظلم والطغيان»[٢].

٥ ـ ودخوله ﷺ مكة ورأسه يكاد يمسّ مقدَّمة رحله دليل على شدة تواضعه ﷺ وبعده عما يصيب الفاتحين عادة من التعاظم والغرور.

٦ ـ وفي دخوله ﷺ مكة وعلى رأسه المغفر، وفي رواية: وعليه عمامة سوداء، دليل على جواز دخول مكة بغير إحرام لمن لم يرد الحج أو العمرة، سواء دخلها لحاجة تتكرر أو لا تتكرر[٣].

*** أمره ﷺ بمحو الصور التي في الكعبة:**

قال المصنف: «ونَزَلَ ﷺ مكة واغتسل في بيت أم هانئ، وصلّى ثماني ركعاتٍ يسلّم من كل ركعتين، فقيل إنها صلاة الضحى. وقيل: صلاة الفجر. وخرج ﷺ إلى البيت فطاف به طواف قدومٍ، ولم يسعَ، ولم يكن معتمراً، ودعا بالمفتاحِ، فدخلَ البيتَ وأمر بإلقاء الصور ومحوها منه، وأذَّن بلالٌ يومئذ على ظَهْرِ الكعبة، ثم ردَّ ﷺ المفتاحَ إلى عثمانَ بنَ طلحة بن أبي طلحة. وأقرَّهم على السّدَانَة[٤]. وكان الفتحُ

---

(١) صحيح البخاري «٣٠٤٤»، صحيح مسلم «١٣٥٧».

(٢) السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٨٠.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٩/ ١٣١.

(٤) سِدَانة الكعبة معناه: القيام بشؤونها من فتحها وإغلاقها وتنظيفها وكسوتها وصيانتها...

لعَشْرٍ بقين من رمضانَ».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ نزوله واغتساله ﷺ في بيت أم هانئ وصلاته فيه ثمان ركعات ثابت في الصحيحين[1].

٢ ـ وقول المصنف: «**فقيل إنها صلاة الضحى، وقيل: صلاة الفجر**»، قلت: الصحيح أنها كانت صلاة الضحى لتصريح الروايات الثابتة في الصحيحين بذلك كما تقدم.

٣ ـ وفي صلاته ﷺ صلاة الضحى بمكة دليل على مشروعية صلاة الضحى للمسافر، وبوب عليه البخاري بقوله: «باب صلاة الضحى في السفر»[2].

٤ ـ وطوافه ﷺ يوم الفتح بالبيت من غير عمرة مخرج في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة[3].

٥ ـ وأذان بلال رضي الله عنه يوم الفتح فوق ظهر الكعبة أخرجه البيهقي من مرسل عروة بن الزبير، ومن مرسل ابن ابي مليكة، ومن حديث بعض آل جبير بن مطعم به[4].

٦ ـ وأمره ﷺ بمحو الصور وإخراجها من البيت ودخول البيت بعد ذلك

---

(١) صحيح البخاري «١١٧٦»، صحيح مسلم «٣٣٦».

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ٣/ ٥٢.

(٣) صحيح مسلم «١٧٨٠».

(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٧٩، وهو يتقوى بتعدد تلك المراسيل.

مخرج في صحيح البخاري من حديث ابن عباس[١].

وقد صحّ أيضاً أن النبي ﷺ أمر بتحطيم الأصنام التي كانت حول البيت وتطهيره منها، وشارك في ذلك بنفسه، وكانت ثلاثمائة وستين صنماً[٢].

٭ خطبته ﷺ وبيان حرمة مكة:

قال المصنف: «واستمر ﷺ مُفطراً بقيّة الشهر، يصلّي ركعتين، ويأمر أهلَ مكة أن يتمّوا، كما رواه النسائي[٣] بإسناد حسن عن عمران بن حصين ﷺ، وخَطَبَ ﷺ الغَدَ من يوم الفتح فبيَّن حرمة مكة وأنها لم تحلّ لأحدٍ قبله ولا تحلّ لأحدٍ بعده، وقد أُحلَّت له ساعةً من نهار، وهي غير ساعته تلك حرامٌ. وبعث ﷺ السرايا إلى من حول مكة من أحياءِ العربِ يدعوهم إلى الإسلام».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قوله: «**واستمر ﷺ مُفطراً بقية الشهر، يصلّي ركعتين**»: قلت: قال المصنف في تاريخه: «ولا خلاف أنه عليه الصلاة والسلام أقام بقيّة شهر رمضان يقصر الصلاة ويفطر»[٤].

٢ ـ وخطبته ﷺ الغَد من يوم الفتح وبيان حرمة مكة مخرج في الصحيحين من حديث أبي شريح العدوي[٥].

---

(١) صحيح البخاري «١٦٠١».

(٢) صحيح البخاري «٢٤٧٨»، صحيح مسلم «١٧٨١».

(٣) الحديث لم يروه النسائي، وإنما هو في سنن أبي داود (١٢٢٩).

(٤) البداية والنهاية ٦/ ٦٠٩.

(٥) صحيح البخاري «٤٢٩٥»، صحيح مسلم «١٣٥٤».

٣ ـ وبعثه ﷺ السرايا حول مكة تدعوا إلى الإسلام ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد(١).

٤ ـ وقد استدل بقصره ﷺ مدة بقائه بمكة زمن الفتح على أن المسافر له أن يقصر ولو كان مقيماً.

واختلف في المدة، فالجمهور على أنها أربعة أيام، وذهب بعضهم كابن عباس إلى أن له القصر إلى تسعة عشر يوماً استدلالاً بحادثة الفتح هذه، فإنه قال بعد أن روى الحديث: «ونحن نقصر ما بيننا وبين تسع عشرة، فإذا زدنا أتممنا»(٢).

٥ ـ وفي خطبته ﷺ يوم الفتح ما يؤكد على حرمة مكة المكرمة، وعظيم شرفها، وتحريم القتال فيها، وحرمة قطع الشجر، وقتل الصيد، وإخافته فيها.

٦ ـ وهكذا قضى الإسلام على الوثنية والشرك في مكة بلد التوحيد ومهد الإسلام، فلم تَقُم بعده للشرك قائمة فيه(٣).

❐ ❐ ❐

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢٨.

(٢) صحيح البخاري «٤٢٩٩».

(٣) دراسات في السيرة النبوية ص١٢٧.



فَصۡل

غزوة حُنين

قـال المصنف: «ولمَّا بَلَغَ فتحُ مكة هَـوازِنَ جَمَعَهم مالكُ بن عوف النَّصْري، فاجتمعَ إليـه ثقيفٌ، وقومُه بنو نصر بن معاوية، وبنو جُشَم، وبنو سعد بن بكر، ويسيرٌ من بني هلال بن عامر، وقد استصحبوا معهم أنعامَهم ونساءَهم لئَلَّا يَفِرُّوا، وبَعَثَ ﷺ عبدَالله بن أبي حَدْرَد الأسْلَمي فاستعلَم له خبر القوم وقصدهم، فتهيأ رسُولُ الله ﷺ للقائهم، واستعـارَ من صَفوان بن أُميـة أدراعاً، واقترض منه جملة من المال.

وسَـارَ إليهم في العَشَرَةِ آلافٍ الذين كانوا معه في الفَتْحِ، وألفينِ من طُلقاءِ مكة[1]، واستخلف على مكة عتَّاب بن أُسيد، وله نحو عشرين سنة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ سمّيت هذه الغزوة حُنين نسبة إلى المكان الذي وقعت فيه، وحُنين: وادٍ يعرف اليوم بالشرائع، ويبعد عن مكة (٢٦) كيلاً شرقاً.

٢ ـ وكانت غزوة حنين في أول شهر شوال من السنة الثامنة من الهجرة[2].

---

(١) طلقاء مكة: هم الذين مَنَّ عليهم رسولُ الله ﷺ يوم الفتح فخلى سبيلهم ولم يسترقهم، ينظر شرح المواهب للزرقاني ٣/ ٤٩٨.

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير ص٢٢٨.

٣ ـ وخروج هوازن عن بكـرة أبيها وقد جمعت أنعامها ونساءها وذراريها لملاقاة رسـول الله ﷺ أخرجـه أبو داود والنسائي وغيرهما بسند صحيح[١]، وله شاهد في صحيح مسلم بنحوه[٢].

٤ ـ وفي بعثـه ﷺ عبـدالله بن أبي حَدْرَد ليأتيـه بخبر القوم دليل على جواز بثّ العيون بين الأعداء ليأتوا بأخبارهم وشأنهم، بل إنه واجب إذا دعت الحاجة إليه[٣].

٥ ـ وفي استعارتـه ﷺ سلاحـاً ومـالاً من صفوان بن أُميـة وكـان لا يزال مشـركاً دليل على جـواز الاستعانـة بالمشرك إذا كان موضع ثقـة واطمئنان، وقد تقدمت هذه المسألة بشواهدها مراراً.

٦ ـ ومسيره ﷺ إلى هوازن في جيشٍ تعداده عشرة آلاف ومعه من الطلقاء مخرج في الصحيحين من حديث أنس بن مالك[٤].

٧ ـ وتحديد الطلقاء بألفين ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[٥].

وكان عـدد جيش هوازن ضعف عدد جيش المسلمين أو أكثر حسب قول الحافظ ابن حجر[٦]، أي نحو عشرين ألفاً.

---

(١) سنن أبي داود «٢٥٠١»، سنن النسائي الكبرى «٨٨١٩».

(٢) صحيح مسلم «١٠٥٩».

(٣) فقه السيرة للبوطي ص٢٩٠.

(٤) صحيح البخاري «٤٣٣٧»، صحيح مسلم «١٠٥٩».

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٠.

(٦) فتح الباري ٨/ ٢٩.

٨ ـ واستخلافه ﷺ عتّاب بن أُسيد على مكة ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[1].

وفيه دليل على عنايته ﷺ بعنصر الشباب وتربيتهم على القيام بالمهام الكبيرة، فإن عتَّاباً كان عمره عشرين عاماً عندما استخلفه النبي ﷺ والياً على مكة، وسيأتي أنه ﷺ أوكل إليه أيضاً مهمة الحج بالناس عام حنين.

*** اجعل لنا ذات أنواط!!**

قال المصنف: «ومرَّ ﷺ في مسيره ذلك على شجرة يعظِّمُها المشركون، يُقال لها ذاتُ أَنْوَاط، فقال بعض جُهَّال العَرَب: اجعل لنا ذاتَ أَنْوَاط كما لهم ذاتُ أَنْوَاط. فقال: «قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قال قومُ موسى: اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ، لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم»».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ حادثة ذات أنواط مخرجة في مسند أحمد، وصححها الألباني وشعيب الأرناؤوط[2].

٢ ـ وفي الحادثة دليل تحريم التبرك بالأشجار والأحجار والعكوف عندها، وسدّ جميع المنافذ التي قد تفضي إلى الشرك، ونحوه العكوف على القبور والتماس البركة منها.

٣ ـ ولا شك أن الذين طلبوا من النبي ﷺ هذا الطلب العجيب من أن يجعل

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٠.

(٢) مسند الإمام أحمد «٢١٨٩٧» بتحقيق الأرناؤوط، تعليق الألباني على مشكاة المصابيح «٥٤٠٨».

لهم ذات أنواط كـانوا يجهلون معنى إخـلاص التوحيـد لله تعـالى، ولعله بسبـب حداثة دخولهم في الإسلام.

*** كمون هوازن للمسلمين في عماية الصبح:**

قال المصنف: «ثم نَهَضَ ﷺ فوافى حنيناً، وهو واد حَدُوْر[(1)] من أودية تهامة. وقد كَمَنَتْ لهم هَوازِنُ فيـه، وذلك في عَمَايـة الصُّبْحِ، فحَمَلُوا على المسلميـن حَمْلَةَ رجُل واحـدٍ، فولّى المسلمون لا يلوي أحـدٌ على أحدٍ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التَّوْبَة: ٢٥].

وذلك أن بعضَهم قـال: لن نُغلب اليوم مـن قلّة. وثَبَتَ رسُولُ الله ﷺ، ولم يفرَّ، ومعـه من الصحابة: أبو بكر، وعمر، وعليّ، وعمّه العبّاس، وابناه: الفضل، وقُثَم، وأبو سفيان بن الحـارث بن عبـد المطلب، وابنه جعفر، وآخرون. وهو ﷺ يومئذ راكب بغلته التي أهداها له فَرْوَة بن نُفَاثَة الجِذَامي، وهو يَرْكُضُها إلى وجهِ العدو، والعبّاسُ آخذٌ بحكَمَتها يكفُّها عن التقدم، وهو ﷺ يُنَوّه باسمه يقول: أنا النبيُّ لا كذب... أنا ابنُ عبد المطلب».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ هجوم هوازن في عمايـة الصبح وانهزام المسلمين في أول الأمر وثبات النبي ﷺ في جمـع من أصحابه ذكره ابن إسحـاق في السيـرة، ومن طريقه أحمد في المسند بإسناد حسنه شعيب الأرناؤوط[(2)].

---

(١) منحدر.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٢، ومسند أحمد «١٥٠٢٧».

٢ ـ وفي هذه الغزوة دليل على أن الكثرة لا تفيد شيئاً إذا لم يكونوا صابرين محتسبين منظمين، فقد انضم لجيش المسلمين جموع كثيرة لم يتمكن الإيمان في نفوسهم وفرحوا بكثرة عددهم، فكانوا سبب الهزيمة في أول الأمر[١].

٣ ـ وفي ركوبه ﷺ البغلة دليل على تواضعه الشديد، وكان بإمكانه اصطفاء أفضل فرس ليركبه.

٤ ـ وفي ثباته ﷺ حين ولّي أكثر المسلمين في بداية المعركة دليل على فرط شجاعته وقوة يقينه، قال المصنف في تفسيره تعليقاً على هذه الحادثة: «وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلُح لكرّ ولا لفرّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، وما هذا كلّه إلا ثقة بالله، وتوكلاً عليه، وعلْماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان»[٢].

*** ثبات المؤمنين وهزيمة المشركين:**

قال المصنف: «ثم أَمَرَ العبَّاسَ ـ وكان جَهِيرَ الصّوت ـ أن يُنادي: يا معشرَ الأنصار، يا معشرَ أصحابِ الشجرةِ، يا معشرَ أصحابِ السَّمُرة، فلمَّا سمعه المسلمونَ وهم فارُّون كرُّوا وأجابوه: لبيْك لبيْك.

وجَعَلَ الرجلُ إذا لم يستطع أن يُثني بعيره لكثرة المنهزمين نَزَلَ عن بعيِره وأخذ دِرْعَه فلبسها، وأخذ سيفه وتِرسَه، ويرجع راجلاً إلى رسُولِ الله ﷺ، حتى

---

(١) فقه السيرة للبوطي ص٢٨٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٢٨.

إذا اجتمعَ حولـه عِصَابةٌ منهم نحو المائة، استقبلوا هَوزِانَ فاجتلدوا هُمْ وإيّاهم، واشتـدّت الحربُ، وألقى الله في قلوبِ هَـوازِن الرعبَ حينَ رجعوا، فلم يملكوا أنفُسَهم.

ورمـاهم ﷺ بقبضة حصى بيـده، فلم يبقى منهم أحـدٌ إلا ناله منها. وتَفِرُّ هَوازِنُ بين يدي المسلمين، ويتبعونهم يقتلون ويأسرون، فلم يرجع آخرُ الصحابة إلى رسُولِ الله ﷺ إلا والأُسارى بين يده، وحازَ ﷺ أموالَهم وعيالَهم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ أمره ﷺ العبّاس بمناداة الأنصار وأصحاب الشجرة إلى قول المصنف: ورماهم ﷺ بقبضة حصى فلم يبـق منهم أحـدٌ إلا نالـه منها... أخرجه مسلم في صحيحه بنحـوه من حديث سَلَمَـة بن الأكوع رضي الله عنه، وقد ذكره أيضاً ابن إسحاق في السيرة بإسناد صحيح[1].

٢ ـ وفي رميه ﷺ كفاً من حصى بيده وإصابته جميع جيش المشركين معجزة ظاهرة له ﷺ وقد تقدم نظيرها في غزوة بدر[2].

٣ ـ وقد دل القرآن الكريم على اشتراك الملائكـة في هذه المعركة وتأييد الله للمؤمنيـن بهم، وذلك في قولـه تعـالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ

(١) صحيح مسلم «١٧٧٧»، سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٤.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٦٢٨.

﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥ ـ ٢٦]. وهؤلاء الجنود الذين أنزلهم الله تعالى هم الملائكة كما قال ابن عباس وغيره[1].

٤ ـ وفي الغزوة دليل ظاهر على فضل الأنصار وأصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان لأنهم أول من أمر النبي ﷺ بمناداتهم عندما انهزم جيش المسلمين في البداية، وهم أول من فاء إليه وثبت معه حينها.

*** انحياز المشركين إلى أوطاس:**

قال المصنف: «وانحازتْ طوائفُ من هَوازِن إلى أَوْطَاس[2]، فبَعَثَ ﷺ إليهم أبا عَامر الأشعري واسمه عُبَيْد ومعه ابن أخيه أبو موسى الأشعري حاملاً راية المسلمين في جماعة من المسلمين، فقتلوا منهم خَلْقاً.

وقُتِلَ أميرُ المسلمين أبو عَامر، رماه رجلٌ فأصاب ركبته، وكان منها حتفه، فَقَتَل أبو موسى قاتله، وقيل: بل أسلم قاتلُه بعد ذلك. ولما أخبر أبو موسى رسُولَ الله ﷺ بذلك استغفرَ ﷺ لأبي عَامر.

وكان أبو عَامر رابع أربعة استشهدوا يوم حنين، وأما المشركون فقُتل منهم خلقٌ كثيرٌ. وفي هذه الغزوة قال ﷺ: «من قَتَلَ قتِيلاً فَلَه سَلَبُه»».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ انحياز طوائف من هوازن إلى أوطاس وبعْثه ﷺ أبا عامر الأَشعري إليهم... إلى استشهاده واستغفار رسول الله ﷺ له كله مخرج في الصحيحين من

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٢/ ٢٤٧.

(٢) واد في ديار هوازن قرب حنين.

حديث أبي موسى الأشعري[1].

٢ ـ وفي هذا دليل على فضل أبي عامر الأشعري ـ واسمه: عُبيد بن سُليم ـ حيث استغفر له رسولُ الله ﷺ، وثبت عنه ﷺ أيضاً أنه قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثيرٍ من خلقك»[2].

٣ ـ وقوله: «**فَقَتَلَ أبو موسى قاتلَ أبي عامر، وقيل بل أسلم قاتلُه بعد ذلك**»، قلت: الصواب الأول لثبوته في الصحيحين، وأما رواية إسلامه فقال ابن حجر: «هذا يخالف الحديث الصحيح في أن أبا موسى قَتَل قاتِل أبي عامر، وما في الصحيح أولى بالقبول»[3].

٤ ـ وقوله ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**» مخرج في الصحيحين[4] من حديث أبي قتادة رضي الله عنه. والسلب هو: ما يكون مع القتيل من سلاح ونحوه.

وقد استدل به على أن للقاتل أخذ سلب القتيل في المعركة، لكن وقع اختلاف بين العلماء هل يستحق القاتلُ السلبَ في جميع الحروب ولو بدون إذن القائد، أم لا بد أن يصرح القائد بذلك قبل الحرب فيقول: من قتل قتيلاً فله سلبه؟ قولان لأهل العلم[5].

٥ ـ وقد كانت غزوة حنين هي آخر الغزوات داخل الجزيرة العربية، حيث

---

(١) صحيح البخاري «٤٣٢٣»، صحيح مسلم «٢٤٩٨».

(٢) صحيح البخاري «٤٣٢٣»، صحيح مسلم «٢٤٩٨».

(٣) فتح الباري ٨/ ٤٣.

(٤) صحيح البخاري «٤٣٢١»، صحيح مسلم «١٧٥١».

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٥٩.

ابتدأت ببدر وانتهت بحنين.

٦ ـ وربما كانت أيضاً آخر محاولة يائسة لمحاربة الرسول ﷺ، ووقف مدّ الإسلام في جزيرة العرب[١].

❑ ❑ ❑

(١) السيرة النبوية للندوي ص٣٥٣.



فَصْل

غزوة الطائِف

قال المصنف: «ورَجَعَ ﷺ من حُنينٍ فلم يدخل مكة حتى أتى الطائفَ فحاصَرهم. وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «فحاصرناهم أربعين يوماً»[1]، يعني ثقيفاً، فاستعصوا وتَمَنَّعوا، وقتلوا جماعةً من المسلمين بالنَّبْلِ وغيرِه.

وقد خرَّب ﷺ كثيراً من أموالهم الظاهِرَة وقطع أعنَابَهم، ولم يَنَلْ منهم كبيرَ شيء، فرجعَ عنهم فأتى الجِعِرَّانَة[2]، فأتاه وفدُ هَوازِن هنالك مسلمين، وذلك قبل أن يَقْسِم الغنائم، فخيَّرَهم ﷺ بين ذراريهم وبين أموالهم، فاختاروا الذُّرية، فقال ﷺ: «أما ما كان لِي ولِبَني عبْد المطلب فهو لكم»، قال المهاجرون والأنصار: وما كان لنَا فهو لرسُولِ الله ﷺ.

فرُدَّت الذُّريَّة على هَوازِن، وكانوا ستة آلاف، فيهم الشَّيْماءُ بنتُ الحارث بنُ عبد العُزَّى من بني سعْد بن بكر بن هَوزِان، وهي أختُ رسُولِ الله ﷺ من الرَّضاعة، فأكرمها وأعطاها، ورجعت إلى بلادِها مختارةً لذلك، وقد كانت هَوازِن مَتُّوا إلى

---

(١) صحيح مسلم «١٠٥٩». ولفظه: أربعين ليلة.

(٢) الجعرانة: مدينة صغيرة على بعد (٢٠) كيلاً شمال شرق مكة، يعتمر منها المكيون.

رسُولِ الله ﷺ برضاعتهم إياه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ كانت غزوة الطائف بعد فراغه ﷺ من غزوة حُنين في شهر شوال من السنة الثامنة، قال ابن حجر: «وهو قول جمهور أهل المغازي»[(١)].

٢ ـ وحصاره ﷺ أهل الطائف ثابت في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك حيث حاصرهم أربعين ليلة[(٢)].

٣ ـ وتخريبه ﷺ أموال أهل الطائف وقطع أعنابهم ذكره ابن إسحاق بغير إسناد[(٣)].

وكان الغرض من ذلك هو التضييق عليهم وإضعافهم حتى يستسلموا، ثم إنه ﷺ أمر بالكفّ عن القطع لمـّا ناشدته ثقيف ذلك، وقال: «إني أدعها لله وللرحم»[(٤)].

٤ ـ وقدوم وفد هوازن مسلمين إلى النبي ﷺ بعد انصرافه إلى الجعرانة وتخييره لهم بين أخذ المال أو السبي مخرج في البخاري من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة[(٥)].

٥ ـ ووقوع الشيماء بنت الحارث أخت النبي ﷺ بالرَّضاع وإكرامه لها وردها

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٤.

(٢) صحيح مسلم «١٠٥٩».

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) صحيح البخاري «٢٣٠٧».

إلى بلادها أورده ابن إسحاق مرسلاً من رواية يزيد بن عبيد السعدي، وله شواهد أخرى تقويه.

وقد أطبق العلماء على هذه الحادثة، وعلى عَدّ الشيماء من ضمن الصحابة[1].

٦ ـ وقوله: «**وقد كانت هَوازن مَتُّوا إلى رسولِ الله برضاعتهم إياه**»: قلت: أخرجه ابن إسحاق قال: حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبدالله بن عمرو: أن وفد هوازن أتوا رسولَ الله ﷺ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وفيه «وإنما في الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك»[2].

٧ ـ وفي الغزوة دليل على جواز قطع أشجار الكفار إذا كان في ذلك إضعافهم والنكاية بهم.

٨ ـ كذلك دلت الغزوة على أن للإمام إعادة الغنائم إلى أصحابها إذا جاؤوا مسلمين قبل قسمتها، أما بعد القسمة فليس للإمام استرداد شيء منها إلا بطيب نفس من الغانمين[3].

*** قسمة الغنائم وإعطاء المؤلفة قلوبهم:**

قال المصنف: «ثم قَسَمَ ﷺ بقيّته على المسلمين، وتألَّفَ جماعةً من ساداتِ قُريشٍ وغيرهم، فجعل يُعطي الرجلَ المائة بعير، والخمسين، ونحو ذلك. وعَتَبَ بعضُ الأنصارِ، فبَلَغَه، فخَطَبَهم وحدهم، وامتنَّ عليهم بما أكرمهم الله من الإيمانِ

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥٨، ومرويات غزوة حنين وحصار الطائف ص٢٦٨.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٨ وإسناده حسن.

(٣) فقه السيرة للبوطي ص٢٩٣.

به، وبما أغنَاهم اللهُ به بعد فقرهم، وألَّف بينهم بعد العداوةِ التَّامةِ، فرضوا وطابتْ أنفُسُهم ﷺ وأرضاهم.

وطَعَنَ ذو الخُويْصِرة التَّميمي، واسمه حُرْقُوص ـ فيما قيل ـ على النبيّ ﷺ في قِسْمَتِه تلك، وصَفَحَ عنه ﷺ وحَلُمَ، بعد ما قال له بعض الأمراء: ألا نضربُ عنقه؟ فقال: لا. ثم قال: «إنه سيخرج من ضِئْضِئِ هذا قومٌ يقرؤون القرآنَ لا يُجاوزُ حناجرَهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلِهم أجراً لمن قتلهم».

واستعمل ﷺ مالك بن عَوف النَّصْري على من أسلم من قومه، وكان قد أسلَم وحسُن إسلامُه. واعتمر ﷺ من الجِعِرَّانة ودخل مكة، فلما قضى عمرتَه ارتحل إلى المدينةِ، وأقام للناسِ الحجَّ عامئذٍ عَتَّابُ بنُ أُسيدٍ ﷺ، فكان أَوَّل من حجَّ بالنَّاسِ من أُمراء المسلمين».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ تألفه ﷺ بعض ساداتِ قريش وغيرهم بالعطاء، وعَتَب بعض الأنصار في ذلك، وتطيبه ﷺ نفوسهم... كله مخرج في الصحيحين في أكثر من حديث[١].

٢ ـ وقصة ذي الخُويصرة في طعْنه في قسمة النبي ﷺ مخرجة في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري[٢].

٣ ـ واستعماله ﷺ مالك بن عوف النَّصْري على قومه بعد إسلامه ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[٣].

---

(١) صحيح البخاري «٤٣٣١»، صحيح مسلم «١٠٥٩».

(٢) صحيح البخاري «٣٦١٠»، صحيح مسلم «١٠٦٤».

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩١.

٤ ـ واعتماره ﷺ من الجعرانـة بعد انصرافه من الطائف وفراغه من قسمة غنائم حنين مخرج في الصحيحين من حديث أنس بن مالك[١].

٥ ـ وحجّ عتّاب بن أُسيـد بالناس عـام حنين ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[٢]. وفيه دليل على عنايته ﷺ بعنصر الشباب وتربيتهم على القيام بالمهام الكبيرة، فإن عتَّاباً كـان عمره عشـرين عاماً عنـدما أوكـل النبي ﷺ مهمـة الحج بالناس تلك السنة، وكان قد استخلفه أيضاً على مكة كما تقدم.

٦ ـ كما أن في الحادثة دليل على جواز إعطاء المؤلفة قلوبهم من أموال الغنائم إذا رأى الإمام المصلحة في ذلك، والمراد بهم هنا: أناس حديثٌ عهدهم بالإسلام ليتمكن الإسـلام من قلوبهم، وقـد عدّ الحافظ منهم نحـواً من أربعين نفساً ممن أعطاهم النبي ﷺ[٣].

٧ ـ وقد اختلف هل أعطى النبي ﷺ هؤلاء المؤلفة قلوبهم من أصل الغنيمة أم من الخمس، وقد اعتمد الحافظ القول الأول واعتبره خاصاً بتلك الواقعة، لأن قريشاً كانت حديثة عهد بمصيبة فأراد أن يتألفهم ويجبر قلوبهم[٤].

٨ ـ وفي قصة ذي الخُويصرة بيانٌ لحال الخوارج وأصلهم، وأن النبي ﷺ لم يسلم منهم ومن شرّهم فكيف بمن بعد من العلماء والصالحين؟!

❒ ❒ ❒

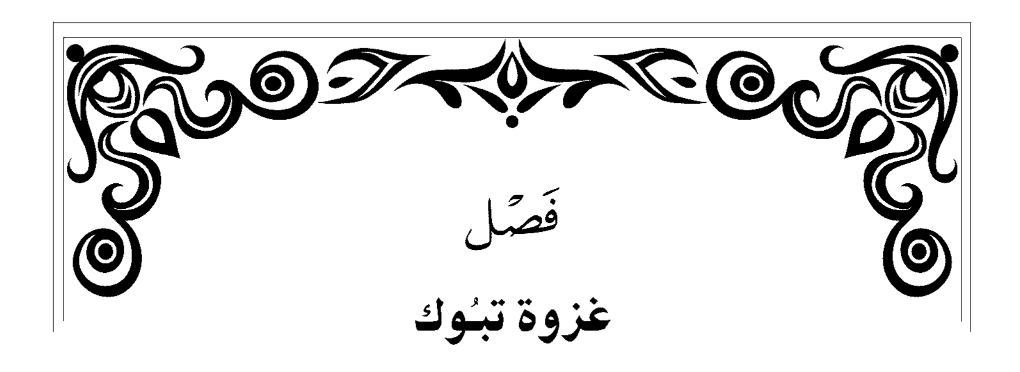
---

(١) صحيح البخاري «١٧٧٨»، صحيح مسلم «١٢٥٣».

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٠٠.

(٣) فتح الباري ٨/ ٤٨.

(٤) المصدر السابق.



فَصْل

غزوة تبوك

قال المصنف: «ولمَّا أنزل الله ﷻ على رسُولِه ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[التَّوْبَة: ٢٩] نَدَبَ رسُولُ الله ﷺ أهلَ المدينةِ ومن حولهم من الأعرابِ إلى الجهادِ، وأعلَمَهم بغزو الروم، وذلك في رجب من سنة تسعٍ، وكان لا يريد غزوةً إلَّا ورَّى بغيرها، إلا غزوته هذه، فإنه صرَّح لهم بها ليتأهبوا، لشدَّة عدوّهم وكثرتِه، وذلك حين طابتْ الثمارُ، وكان ذلك في سنةٍ مُجدبة، فتأهب المسلمونَ لذلك.

وأنْفَقَ عثمانُ بنُ عفان ﷺ على هذا الجيشِ وهو جيشُ العُسْرة مالاً جزيلاً. ونهَضَ ﷺ في نحو من ثلاثين ألفاً، وقد خرجَ معه عبدُالله بنُ أُبيّ رأسُ النفاق، ثم رجعَ من أثناء الطريق.

وتخلَّف عن رسُولِ الله ﷺ النساء والذرية، ومن عَذَرَه الله من الرّجال ممن لا يجد ظهراً يركبه أو نفقة تكفيه، وتخلَّف منافقون كفراً وعِنَاداً وكانوا نحو الثمانين رجلاً. وتخلَّف عُصَاةٌ مثل: مُرارة بن الرَّبيع، وكعْب بن مالك، وهِلَال بن أُميّة، ثم تابَ الله عليهم بعد قدومه ﷺ بخمسينَ ليلةً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ تسمّى هذه الغزوة غزوة تبوك نسبة إلى المدينة المعروفة، وهي في منتصف المسافة بين المدينة ودمشق، تبعد عن المدينة نحو (٧٧٨) كيلاً.

وتسمّى الغزوة أيضاً غزوة العُسرة، مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[التوبة: ١١٧]. وبعضهم يسميها غزوة الفاضحة، لأنها فضحت حال كثير من المنافقين[١].

٢ ـ وكانت هذه الغزوة في شهر رجب من سنة تسع من الهجرة كما ذكر المصنف، قال ابن حجر: «بلا خلاف»[٢].

وكانت في وقت «حرّ شديد» حسب وصف الصحابي كعب بن مالك ﷺ[٣]. وفي القرآن الكريم حكاية عما قاله المنافقون في هذه الغزوة: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾[التوبة: ٨١].

٣ ـ وقد ذكر المصنف أن سبب هذه الغزوة هو استجابة النبي ﷺ لقول الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ...الآية﴾[التَّوْبَةِ: ٢٩].

لكن ذكر ابن سعد وغيره أن النبي ﷺ بلغه أن الرّوم كانوا قد جمعوا جموعاً كثيرة بالشام ومعهم متنصّرة العرب لغزو المسلمين ولم يكن لذلك حقيقة، حينها نَدَبَ رسولُ الله ﷺ الناس للخروج[٤].

---

(١) السيرة الحلبية ٣/ ١٨٣.

(٢) فتح الباري ٨/ ١١١.

(٣) صحيح البخاري «٤٤١٨».

(٤) طبقات ابن سعد ٢/ ١٢٥.

ولعل مـا ذكره المصنف سبب عـام، وما ذكره ابن سعد سبب مباشر، فلا تعارض بينهما.

٤ ـ وقولـه: «**وكان ﷺ لا يريـد غزوة إلا ورّى بغيرهـا**»، قلت: هذا مخرج في الصحيحين من حديث كعب بن مالك[١].

٥ ـ وانفاق عثمـانُ بنُ عفان على جيش العُسْرة مـالاً جزيلاً ثابت في سنن الترمذي بإسناد حسنه عبـد القـادر الأرناؤوط، وأصـل تجهيزه للجيش ثابت في البخاري[٢].

٦ ـ وما ذكره المصنف أن عدد جيش المسلمين نحو ثلاثين ألفاً هو ما جزم به ابن إسحاق[٣]. وعليه أغلب المؤرخين[٤].

والذي في صحيح مسلم من حديث كعب بن مالك أنهم كانوا يزيدون على عشرة آلاف[٥]. وهو بلا شك أكبر جيش قاده النبي ﷺ.

٧ ـ وقوله ﷺ لعليّ بن أبي طالب: «**ألا تَرْضى أن تكون منّي بمنزلة هارونَ من موسى غير أنـه لا نبيّ بعدي**» هـذا مخرج في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقـاص[٦]. وفيـه دليـل على فضل علي بن أبي طالـب ﷺ، وفضائله في السنة

---

(١) صحيح البخاري «٤٤١٨»، صحيح مسلم «٢٧٦٩».

(٢) سنن الترمذي «٣٧٠١»، جامع الأصول بتعليق عبد القادر الأرناؤوط «٦٤٧٠»، صحيح البخاري «٢٧٧٨».

(٣) نسبه إليه ابن حجر في الفتح ٨/ ١١٧ ولم أقف عليه في سيرة ابن هشام.

(٤) السيرة النبوية للعُمري ٢/ ٥٣١.

(٥) صحيح مسلم «٢٧٦٩».

(٦) صحيح البخاري «٤٤١٦»، صحيح مسلم «٢٤٠٤».

النبوية كثيرة مشهورة.

٨ ـ وتخلُّف عبدالله بن أُبيّ المنافق في الغزوة أثناء الطريق ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[1]. وكان مقصوده: تخذيل المسلمين والإرجاف بهم.

٩ ـ وما ذكره المصنف من عدد المنافقين الذين تخلفوا، وأنهم كانوا نحو ثمانين رجلاً... هذا ثابت في الصحيحين من حديث كعب بن مالك بلفظ: «بضعة وثمانين رجلاً»[2].

ومن أسباب تخلّفهم في هذه الغزوة: بعد المسافة ومشقة السفر وشدّة الحر وقوة العدو.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ**﴾[التوبة: ٤٢].

١٠ ـ وحادثة الثلاثة الذين خُلّفوا ثم تاب الله عليهم ثابتة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك[3]. وقد كانوا كلهم من الأنصار، ومن خيار الصحابة، ولكن الشيطان يترصد للإنسان!! وفي الحادثة دلالة على جواز الهجر لأكثر من ثلاث لسبب شرعي، ذلك أن النبي ﷺ هجرهم خمسين ليلة حتى نزلت توبة الله عليهم.

١١ ـ وقد دلّ إعلامه ﷺ أصحابه بوجهته في غزوة تبوك وتوريته بغيرها

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥١٩.

(٢) صحيح البخاري «٤٤١٨»، صحيح مسلم «٢٧٦٩».

(٣) المصدرين السابقين بالأرقام نفسها.

مـن الغزوات على أنـه يجب على الإمـام أن يصرح لرعيتـه بالأمـر الذي يضرهم ستره[1].

١٢ ـ وفي تجهيز عثمان جيش العسرة بمالٍ جزيل دليل على فضله وقوة إيمانه، وقد صحّ عنـه ﷺ أنه قال تعليقاً على صنيعـه: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم» مرتين[2].

١٣ ـ كمـا دلت الحادثـة على أن من عزم على الجهاد وعجـز عنه فلا حرج عليه، كما في حـال الذين لم يجدوا ظهراً يحملهم للجهاد، وقـد أثنى عليهم القرآن الكريم.

*** مروره ﷺ بديار ثمود:**

قـال المصنف: «فسَارَ ﷺ فمرَّ في طريقـه بالحِجْر[3]، فأَمَرَهم أن لَا يدخلوا عليهم بيـوتَهم إلَّا أن يكـونوا باكينَ، وأن لَا يشربوا إلا من بئْر الناقـة، وما كانوا عجنوا به من غيره فليطعموه للإِبل، وجازها ﷺ مُقَنَّعاً[4]».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ مروره ﷺ بالحِجْر في غزوة تبوك وأمره أصحابه ألا يدخلوه إلا باكين،

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٤٨٨.

(٢) أخرجـه الترمذي في سننه «٣٧٠١»، وحسن إسناده عبـد القادر الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول «٦٤٧٠».

(٣) الحِجر: واد بين المدينـة والشام، كان يسكنـه ثمود (قـوم صالح)، الـذين أهلكهم الله بالصيحة، ويعرف اليوم بمدائن صالح، يبعد عن مدينة العُلا (٢٢) كيلاً شمالاً.

(٤) مغطياً رأسه.

ومجاوزته له مقنَّعاً، كله مخرج في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر[1].

٢ ـ ونهيه ﷺ أن يشربوا من مياه الحِجْر إلا من البئر التي تردها الناقة مخرج في صحيح مسلم من حديث ابن عمر[2].

٣ ـ وأمرهم بإطعام الإبل ما عُجن بماء الحِجْر ثابت في الصحيحين من حديث ابن عمر[3].

٤ ـ وفي الحادثة دليل على أنه ينبغي للمارّ في مواضع العذاب: المراقبة والخوف والبكاء والاعتبار بمصارع أولئك القوم وأن يستعيذ بالله من ذلك[4].

٥ ـ وفي نهيه ﷺ أصحابه من الشرب من مياه الحِجْر إلا من بئر الناقة... دليل على النهى عن استعمال مياه آبار الحِجْر إلا بئر الناقة، ولو عجن منه عجيناً لم يأكله بل يعلفه الدواب[5].

*** بعض ما وقع من الآيات في طريق تبوك:**

قال المصنف: «فبَلَغَ ﷺ تبُوك وفيها عينٌ تَبِضُّ بشيءٍ من ماءٍ قليلٍ فكثُرت ببركته، مع ما شُوهِد من بركةِ دعائه في هذه الغزوة، من تكثير الطَّعَامِ الذي كان حاصِلُ الجيشِ جميعِهِ منه مقدار العَنْزِ البارِكَة، فدعا الله ﷻ فأكلوا منه وملؤوا كلَّ وِعَاء كان في ذلك الجيشِ، وكذا لمَّا عطشوا دعا الله تعالى فجاءت سحابةٌ فأَمطرتْ،

(١) صحيح البخاري «٤٤١٩»، صحيح مسلم «٢٩٨٠»، لكن ليس عند مسلم: «وجازها مقنعاً».

(٢) صحيح مسلم «٢٩٨١».

(٣) صحيح البخاري «٣٣٧٩»، صحيح مسلم «٢٩٨١».

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/ ١١١.

(٥) المصدر السابق ١٨/ ١١١.

فشربوا حتى رووا واحتملوا، ثم وجدوها لم تُجاوِز الجيش، في آياتٍ أُخَرَ كثيرةٍ احتاجوا إليها في ذلك الوقت.

ولَمَّا انتهى إلى هناكَ لم يَلْقَ عدواً، ورأى أن دخولهم إلى أرض الشَّامِ بهذه السنة يَشُقُّ عليهم، فعزمَ على الرُّجوع.

وصالحَ ﷺ يُحَنَّة بن رُؤْبَة صاحبَ أيلة، وبعث خالداً إلى أُكَيْدر دومة، فجيء به فصالحه أيضاً، وردَّه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ تكثير ماء عين تبوك ببركته ﷺ ثابت عند مسلم من حديث أنس بن مالك(١).

٢ ـ وتكثير طعام الجيش ببركة دعائه ﷺ ثابت عند مسلم من حديث أبي هريرة، ولفظه: «لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله ﷺ: «افعلوا»، قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله، إن فعلت قلّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: فدعا بنطع، فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكف تمر، قال: ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: «خذوا في أوعيتكم»، قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله

---

(١) صحيح مسلم «٧٠٦».

إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة»»[1].

٣ ـ وحادثة السحابة التي أمطرت الجيش حتى شربوا ولم تجاوزه أخرجها ابن حبان في صحيحه، من حديث ابن عباس قال: «قيل لعمر بن الخطاب: حدثنا من شأن العُسرة، قـال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديـد، فنزلنا منزلاً، أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقـابنا ستنقطع، حتى إن كـان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى نظنّ أن رقبتـه ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصِر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، قد عوَّدك الله في الدعاء خيراً، فادع لنا، فقـال: «أتحبُّ ذلك؟» قـال: نعم، قال: فرفع يديه ﷺ، فلم يرجعهما حتى أظلت سحابة، فسكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر»، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط[2].

٤ ـ وفي تكثير مـاء عين تبوك وتكثير طعام الجيش ونزول المطر بها لم يجاوز الجيش كل هذا من معجزاته الظاهرة وآياته الباهرة صلوات الله وسلامه عليه.

٥ ـ مصالحته ﷺ يُحَنَّة بن رؤبة صاحب أيلة في غزوة تبوك ذكرها ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد، وكان ذلك مقابل الجزية[3].

٦ ـ وبعثه ﷺ خالداً إلى أُكيـدر دومة ومصالحته إياه أخرجه أبو يعلى بسند قوي كما قال ابن حجر[4].

---

(١) صحيح مسلم «٤٤».

(٢) صحيح ابن حبان «١٣٨٣» بتحقيق شعيب الأرناؤوط.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٢٥.

(٤) فتح الباري ٥/ ٢٣١، المطالب العالية «٤٣١٧».

٧ ـ وقـد عسكر النبي ﷺ بتبوك عشرين يوماً قبل أن يرجع إلى المدينة بغير حرب ولا قتال(١).

*** رجوعه ﷺ إلى المدينة وأمره بهدم مسجد الضرار:**

قـال المصنف: «ثم رجعَ ﷺ، وبعد رجوعه أَمَرَ بهدم مسجدِ الضِّرَار، وهو المسجـد الذي نهى الله رسُولَـه أن يقوم فيـه أبداً. وكان رجوعه من هذه الغزاة في رمضانَ من سنـة تسع. وأنزل فيها عامـةُ سورة التوبة، وعاتبَ الله ﷻ مَنْ تخلَّف عنه ﷺ، فقال ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ... ﴾ الآية والتي تليها، [التَّوْبَة: ١٢٠]، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[التوبة: ١٢٢]».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ أمره ﷺ بهدم مسجد الضرار إثر عودته من غزوة تبوك ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد(٢).

٢ ـ وقـد كان ذلك امتثالاً لأمـر الله تعـالى فـي قولـه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...إلى أن قال: لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ١٠٧ ـ ١٠٨].

٣ ـ وكان هذا المسجد قد بناه المنافقون للتفريق بين المؤمنين ومأوى للمتآمرين من أهل النفاق.

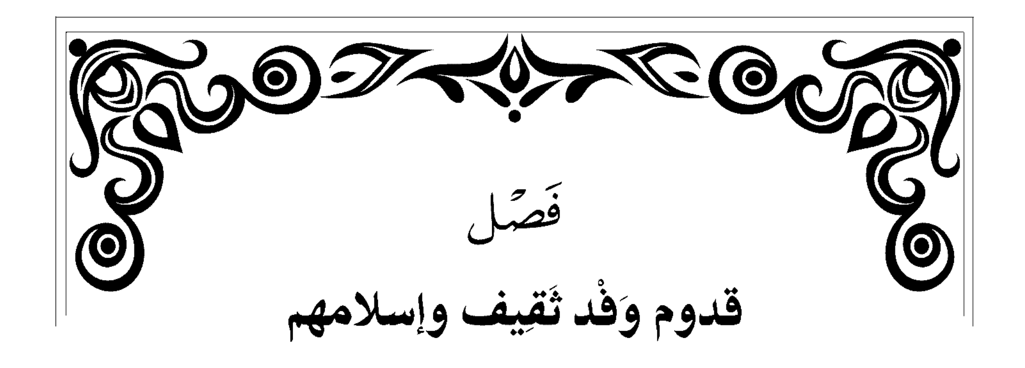
---

(١) مسند أحمد «١٤١٣٩»، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٣٠.

٤ ـ وفي موقفه ﷺ من المتخلفين من المنافقين والمتخلفين من أصحابه دليل على اختلاف سياسته ﷺ في التعامل بين الفريقين، حيث قَبِلَ من المنافقين وصَفَحَ عنهم بينما عاتب وعاقب أصحابه المؤمنين تكريماً وتشريفاً لهم.

❑ ❑ ❑



فَصْل

قدوم وَفْد ثَقِيف وإسلامهم

قـال المصنف: «وقدِمَ وفدُ ثقيفٍ على رسُـولِ الله ﷺ في رمضانَ هذه السنة فأسلموا، وكان سببُ ذلك أن عروة بن مسعودٍ سيّدَهم كان قد جاء رسُولَ الله ﷺ منصرَفَه من حنين والطائف وقبل وصوله إلى المدينة، فأسلَم وحَسُن إسلامُه واستأذن رسُولَ الله ﷺ في الرجوعِ إلى قومه ليدعُوهم إلى الله ﷻ، فأذن له وهو يخشى عليه، فلما رَجَعَ إليهم ودعـاهم إلى الإسلامِ رَمَـوْه بالنبل فقتلوه. ثم إنهم نَـدِموا ورأوا أنهم لا طاقـةَ لهم بحربِ رسُولِ الله ﷺ، فبعثوا وفْدَهم إليه في رمضانَ كما قدَّمنا، وكانوا ستةً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ كانت السنة التاسعة من الهجرة تسمّى سنة الوفود، حيث أقبلت القبائل العربية من كل جهة تبايع النبي ﷺ على الإسلام بعد أن أكرمه الله بفتح مكة وفرغ من صراعه مع قريش وأسلم أهل الطائف[1].

وقـد ثبت في صحيح البخـاري عن عمرو بن سلمـة قال: «كانت العرب تُلَوَّمُ ـ تنتظر ـ بإسلامهم الفتح، فلما كانت وقعة الفتح،........................

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٦٠.

بادر كل قوم بإسلامهم»[1].

٢ ـ وكان من ضمن الوفود التي قدمت: وفد ثقيف، حيث أرسلوا نفراً منهم لمبايعة النبيّ ﷺ وإعلان إسلامهم.

وأصل قدومهم مخرج في صحيح مسلم، وذكر الحادثة ابن إسحاق مفصلة بدون إسناد[2].

٣ ـ وقصة إسلام عروة بن مسعود ومقتله على يد قومه ذكرها ابن إسحاق بدون إسناد[3].

٤ ـ وفي الحادثة دليل على فضل عروة بن مسعود رضي الله عنه، وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «مثل عروة، مثل صاحب ياسين دعا قومه إلى الله فقتلوه»[4]، وقد كانت له اليد البيضاء في تقرير صلح الحديبية كما في الصحيح[5].

*** هدم طاغية ثقيف:**

قال المصنف: «فأنزلهم عليه الصلاة والسلام في المسجدِ وضَرَب لهم فيه قُبة، فأسلموا واشترطوا أن تبقى عندهم طاغيتهم اللّات، وأن لَا تُهدم، فلم يُجيبهم ﷺ إلى ذلك.

---

(١) صحيح البخاري «٤٣٠٢» باختصار.

(٢) صحيح مسلم «٣٢٨، ٢٣٣١»، سيرة ابن هشام ٢/ ٥٣٧.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٣٧.

(٤) قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٣٨٦: «رواه الطبراني، وروي عن الزهري نحوه، وكلاهما مرسل، وإسنادهما حسن».

(٥) صحيح البخاري «٢٧٣١» ضمن حديث مطول.

وسألوا أن يخفّف عنهم بعض الصلواتِ فلم يُجبهم إلى ذلك. فسألوا أن لَا يهدموا بأيديهم طاغيتهم، فأجابهم إليه. وبَعَثَ معهم أبا سفيان صخرَ بنَ حرْب والمغيرةَ بنَ شعبة لهدمها فهدمها. وعَظُمَ ذلك على نساءُ ثقيف، واعتقدوا أن يصيبهم منها سوء! وقد طَنَّزَ[1] بهم المغيرةُ بنُ شعبة حين هدمها فخرَّ صريعاً، وذلك بتواطؤ منه ومن أبي سفيان، ليُوهمهم أن ذلك منها، ثم قام يبكِّتهم ويقرِّعهم ﷺ. فأسلموا وحَسُن إسلامُهم».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ إنزاله ﷺ وفْد ثقيفٍ في المسجد وضربه لهم فيه قبة ذكره ابن إسحاق بدون إسناد، وقال: «كما يزعمون»[2]، أي كما يزعم الرواة.

٢ ـ واشتراط ثقيف في بداية الأمر ألا يهدم صنمهم اللَّات وأن تخفّف عنهم بعض الصلوات المفروضة وإباء النبي ﷺ ذكره ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[3].

لكن أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن رجل من ثقيف قال: «سألنا رسولَ الله ﷺ ثلاثاً، فلم يرخّص لنا، فقلنا: إن أرضنا أرض باردة، فسألناه أن يرخّص لنا في الطهور، فلم يرخّص لنا، وسألناه أن يرخّص لنا في الدُّباء[4]، فلم يرخّص لنا فيه ساعة، وسألناه أن يرد إلينا أبا بكرة، فأبى، وقال: «هو طليق الله

---

(١) طنز: سخر وتهكم.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٤٠.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٥٣٩.

(٤) يعني الانتباذ في الدباء لصنع الخمر.

وطليق رسوله»، وكان أبو بكرة خرج إلى النبي ﷺ حين حاصر الطائف فأسلم»[1].

٣ ـ وقصة أبي سفيان والمغيرة بن شعبة حين بعثهما ﷺ لهدم اللَّات ذكرها ابن إسحاق في السيرة بدون إسناد[2].

٤ ـ وقد أوضح ابنُ إسحاق سبب طلب وفد ثقيف إبقاء صنمهم اللَّات، فقال: «وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يَسْلَموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يُرَوِّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام»[3]. لكن النبي ﷺ أبى عليهم ذلك.

٥ ـ وفي إنزاله ﷺ وفْد ثقيف في المسجد قبل إسلامهم دليل على جواز إدخال الكافر المسجد إذا كان في ذلك مصلحة شرعية، وهو قول جماعة من أهل العلم. والقصة وإن كانت لا تثبت من الناحية الحديثية إلا أن لها شواهد عديدة منها: ربطه ﷺ ثمامة بن أثال في سواري المسجد وكان مشركاً وقتها، وقد بوب عليه البخاري بقوله: «باب دخول المشرك المسجد»[4].



---

(١) مسند أحمد «١٧٥٣٠»، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٤١.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٥٤٠.

(٤) صحيح البخاري «٤٦٩»، فتح الباري ١/ ٥٦٠.



فَصْل

حجة أبي بكرٍ الصّدّيق وتواتر الوفُودِ عليه ﷺ

قال المصنف: «وبَعَثَ ﷺ أبا بكرٍ الصّدّيق ﷺ أميراً على الحجّ هذه السنة، وأردفـه عليّاً ﷺ بسـورة براءة: أن لا يَحُجَّ بعـد العام مُشرِكٌ، ولا يطوف بالبيت عُريانٌ، وينبِذ إليهم عهودَهم إلا من كان ذا عَهْد مقدَّرٍ فعهدُه إلى مُدَّته.

وتواترت الوُفودُ هـذه السَّنَة وما بعدها على رسُولِ الله ﷺ مُذعنة بالإسلامِ وداخلينَ في دينِ الله أفواجـاً، كمـا قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[النَّصْرِ: ١ ـ ٣].

وبَعَثَ ﷺ معاذَ بنَ جبلٍ إلى اليمنِ ومعه أبو موسى الأشعري ﷺ، وبَعَثَ الرُّسُل إلى ملوكِ الأقطارِ يدعوهم إلى الإسلامِ. وانتشرت الدعوة، وعَلَتْ الكلمة، وجاء الحقُّ، وزَهَقَ الباطلُ، إن الباطلَ كان زَهُوقاً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ بعثه ﷺ أبا بكر أميراً على حجّ تلك السنـة وإردافـه علياً بسورة براءة، وألا يحج بعـد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، كله مخرج في الصحيح من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه[١].

٢ ـ ولم يحجّ النبي ﷺ تلك السنة مع تمكنه من ذلك لأنه كره مخالطة المشركين وهُم يطوفون بالبيت عراة ويتلفظون بالشركيات.

٣ ـ قال العلماء: وإنما أردف النبيُّ ﷺ علياً بإبلاغ الناس سورة براءة لأنها تتضمن نبذ العهود المطلقة بين النبي ﷺ وبين العرب والبراءة منها، وكان من عادة العرب ألا يبرم العهد ولا يفسخه إلا الرجل نفسه أو رجل من أهل بيته[٢].

٤ ـ وقوله: «**وتواترت الوفود في هذه السنة وما بعدها**»: قدَّمنا في الفصل السابق أن سنة تسع كانت تسمّى سنة الوفود، لأنها السنة التي قدمت فيها وفود قبائل العرب من كل صوب لإعلان إسلام قبائلهم ومبايعة النبي ﷺ. وأن العرب كانت تنتظر بإسلامها إسلام قريش، فلما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم.

٥ ـ وبعثه ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن مخرج في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري، ولفظه عند مسلم: أن النبي ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن، فقال: «يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا ولا تختلفا»[٣].

٦ ـ وقوله ﷺ: «**ولا يطوف بالبيت عريان**» فيه إبطال لما كانت عليه الجاهلية من الطواف بالبيت عراة، واستدل به بعض العلماء على أن الطواف يشترط له ستر العورة[٤].

---

(١) صحيح البخاري «٤٦٥٥».

(٢) منهاج السنة لابن تيمية ٥/ ٤٩٣.

(٣) صحيح البخاري «٤٣٤١»، صحيح مسلم «١٧٣٣».

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٩/ ١١٦.

٧ ـ وفي تواتر الوفود عليه ﷺ دليل على وفاء الله له بوعده بالنصر، وانتشار الإسلام في أرجاء جزيرة العرب، وتوحيدها تحت رايته، وكانت هي المرة الأولى التي يتوحد فيها سكان الجزيرة العربية تحت راية واحدة دينياً وسياسياً.

❒ ❒ ❒



فَصْل

حجة الوَدَاع

* صلاته ﷺ بذي الحليفة وانطلاقه من المدينة:

قال المصنف: «صلَّى رسُولُ الله ﷺ الظهرَ يوم الخميسِ لستٍّ بقين من ذي القعدة من سنة عَشرٍ بالمدينة، ثم خَرَجَ منها بمن معه من المسلمينَ من أهلِ المدينةِ ومَن تجمَّع مِن الأَعراب، فصلَّى العصرَ بذي الحُليفة ركعتين، وبَاتَ بها. وأتاه آتٍ من ربّه ﷻ في ذلك الموضع ـ وهو وادي العَقِيق ـ يأمرُه عن ربّه ﷻ أن يقولَ في حجته هذه: حجةٌ في عمرة. ومعنى هذا أن الله أمره أن يَقْرِن الحجّ مع العمرة، فأصبحَ ﷺ فأخبر الناسَ بذلك، فطافَ على نسائه يومئذٍ بغسل واحدٍ. ثم اغتسلَ وصلَّى في المسجدِ ركعتين، وأهلَّ بحجة وعمرة معاً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ كانت حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة باتفاق العلماء.

٢ ـ وسُميت بحجة الوداع لأن النبي ﷺ ودَّع الناس فيها وقال لهم: «لا أدري لعلّي لا أحجّ بعد حجتي هذه»[1]، وتسمّى حجة البلاغ، لأن النبي ﷺ قال فيها:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه «١٢٩٧». وفي رواية عند النسائي ذكرها في جامع الأصول «١٥٨٣»: «فإني لا أدري لعلي لا أعيش بعد عامي هذا».

«ألا هل بلغت، قالوا: نعم»(١).

٣ ـ ولم يحجّ النبي ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة سواها، وقد حج بعد النبوة وقبلها حجات لا يُعرف عددها(٢).

٤ ـ وحجة الوداع تشتمل على أحكام فقهية كثيرة متعلقة بالحج وغيره، ومن ثم أفردها غير واحدٍ من أهل العلم بتصانيف مستقلة، كالإمام ابن حزم، والشيخ الألباني في العصر الحديث وغيرهما.

٥ ـ وصلاته ﷺ العصر بذي الحليفة ركعتين ومبيته بها ثابت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك(٣).

٦ ـ وقول المصنف أنه ﷺ أتاه آت في واد العقيق، فقال له: «قلْ حجّة في عمرة» مخرج في البخاري من حديث عمر بن الخطاب، ولفظه: «أتاني الليلة آتٍ من ربي، فقال: صلّ في هذا الوادي المبارك، وقلْ: عمرة في حجّة»(٤).

٧ ـ وقوله: «**ومعنى هذا أن الله أمره أن يَقْرِن الحجّ مع العمرة**»: هذا مبنيّ على القول بأن النبي ﷺ حجّ قارناً، وهي مسألة مختلف فيها، والذي جزم به المصنف بعد مناقشة مطولة هو أن النبي ﷺ حج قارناً(٥)، وبه جزم شيخه ابن القيم، واستدل له بأكثر من عشرين دليلاً(٦).

---

(١) صحيح البخاري «٤٤٠٣».

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص٤١.

(٣) صحيح البخاري «١٥٤٧»، صحيح مسلم «٦٩٠».

(٤) صحيح البخاري «١٥٣٤».

(٥) البداية والنهاية ٧/ ٤٨٧.

(٦) زاد المعاد ٢/ ١٠٢.

٨ ـ وقولـه: «**وطاف على نسائـه يومئذ بغسل واحد**»، قلت: هذا مخرج في الصحيحين من حديث عائشة[١].

٩ ـ وقوله: «**ثم اغتسل وصلَّى في المسجد ركعتين**»: المراد بالغُسل هنا غسلٌ خاصٌ للإحـرام غير غُسل الجماع الأول كما رجحه ابن القيم[٢]، وقوله: «وصلّى في المسجـد ركعتين وأهلَّ بحجّـة وعمرة معاً»: المراد بالركعتين هـذه هي ركعتي الظهر قصراً، قـال ابن القيم: «ولم ينقل عنـه أنه صلَّى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر»[٣].

*** سوقه ﷺ الهدي ووصوله إلى مكة:**

قـال المصنف: «وساقَ ﷺ الهدْيَ من ذِي الـحُلَيْفة[٤]، وأَمَـرَ مَن كان معـه هدْيٌ أن يُهِلَّ كما أهلَّ ﷺ. وسَارَ ﷺ والنَّاسُ بين يديه وخلفه، وعن يمينه وشماله، أُمماً لا يُحصَوْن كثرةً، كلُّهم قَدِمَ ليأتمّ به ﷺ.

فلما قَدِمَ ﷺ مكة طافَ للقدوم، ثم سعى بين الصفا والمروة، وأَمَر الذين لم يسوقوا هَدْياً أن يَفْسَخُوا حجّهم إلى عُمرةٍ ويتحلَّلوا حِلاً تاماً، ثم يُهِلُّوا بالحجّ وقتَ خروجهم إلى مِنى، ثم قال: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما سقتُ الهدْيَ ولجعلتُها عُمرةً»».

---

(١) صحيح البخاري «٢٧٠»، صحيح مسلم «١١٩٢».

(٢) زاد المعاد ٢/ ١٠١.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠١.

(٤) ذو الحليفة: موضع بقرب المدينـة على طريق مكـة، وهو ميقات أهـل المدينة ومن يمر بها، تبعد عنها تسعة أكيال.

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قوله: «**وساق ﷺ الهدي من ذي الحليفة ...إلى آخره**»: مأخوذ من حديث جابر بن عبدالله في صفة حجه ﷺ[١].

٢ ـ وسوقه ﷺ الهدي من ذي الحليفة فيه دليل على ندب سَوْق الهدي من المواقيت ومن الأماكن البعيدة وهي من السنن التي أغفلها كثير من الناس كما قال ابن حجر[٢]، لكن قد لا يتيسر هذا الآن لمعظم المعتمرين والحجيج بسبب اختلاف وسائل المواصلات عن الزمن القديم.

٣ ـ وقوله: «**ولما قدم ﷺ مكة طاف للقدوم**»، فيه دليل على استحباب طواف القدوم للحاج، وهو سنة عند جماهير العلماء وليس بواجب، وأما العمرة فليس لها طواف قدوم[٣].

٤ ـ وقوله: «**ثم سعى بين الصفا والمروة**»، هذا هو سعي الحجّ، وهو ركن من أركانه عند أكثر العلماء[٤].

*** أداؤه ﷺ المناسك ورجوعه إلى المدينة:**

قال المصنف: «ثم خَرَجَ ﷺ إلى مِنى فباتَ بها وكانت ليلة الجمعة التاسع من ذِي الحجة. ثم أصْبحَ فسارَ إلى عَرَفَة وخطَبَ بنَمِرَة خطبةً عظيمةً، شهدها مِن أصحابه نحو أربعين ألفاً رضي الله عنهم أجمعين، وجَمَع بين الظهر والعصر، ثم وقف

---

(١) صحيح مسلم «١٢١٨».

(٢) فتح الباري ٣/ ٥٤٠.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٨/ ٢١٧، ٢١٨.

(٤) المصدر السابق ٩/ ٢١.

بعَرَفَة. ثم باتَ بالـمُزدلفـة، وجَمَع بيـن المغرب والعشـاء ليلتئذٍ، ثم أصْبَحَ فصلَّى الفجـرَ في أوَّل وقتهـا. ثم سـارَ قبـلَ طُلُوع الشمسِ إلى مِنى، فرمى جمْرة العَقَبَة، ونَحـرَ، وحَلَقَ. ثم أفاضَ فطاف بالبيت طوافَ الفرض وهو طواف الزيارة.

واختُلف أين صلَّى الظهر يومئـذٍ، وقـد أشكل ذلك على كثيرٍ من الحفَّاظ. ثم حـلَّ من كلّ شيءٍ حرُم منـه ﷺ. وخطبَ ثاني يوم النَّحر خُطبة عظيمة أيضاً، ووصَّى وحذَّر وأنذر وأشهدهم على أنفُسِهم أنه بلَّغ الرسالة. فنحن نشهدُ أنه بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونَصَحَ الأُمة ﷺ تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين. ثم أقبلَ ﷺ منصرفاً إلى المدينة، وقد أكملَ الله له دينَه».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ قوله: «**ثم خرج ﷺ إلى منى فبات بها ...إلى آخره**»: هذا ملخّص ما ورد في حديث جابر بن عبدالله في صفة حجه ﷺ[١].

٢ ـ وقوله: «**وشهد خطبـة عرفة من أصحابه نحو من أربعين ألفاً**»: قلت: لم أقف على هـذا العدد في المصادر المتقدمـة، وقد كرر نحـوه في تاريخـه[٢]. وقال العلامة الحلبي: «كان معـه جموعٌ لا يعلمها إلا الله تعـالى، قيل كانوا أربعين ألفاً، وقيل كانوا سبعين ألفاً، وقيل كانوا تسعين ألفاً، وقيل كانوا مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، وقيل وعشرين ألفاً، وقيل كانوا أكثر من ذلك»[٣]. والله أعلم.

٣ ـ وفي خطبة يوم عرف لخّص عليه الصلاة السلام تعاليم الإسلام ونظامه

---

(١) صحيح مسلم «١٢١٨».

(٢) البداية والنهاية ٧/ ٤٧٩.

(٣) السيرة الحلبية ٣/ ٣٦١.

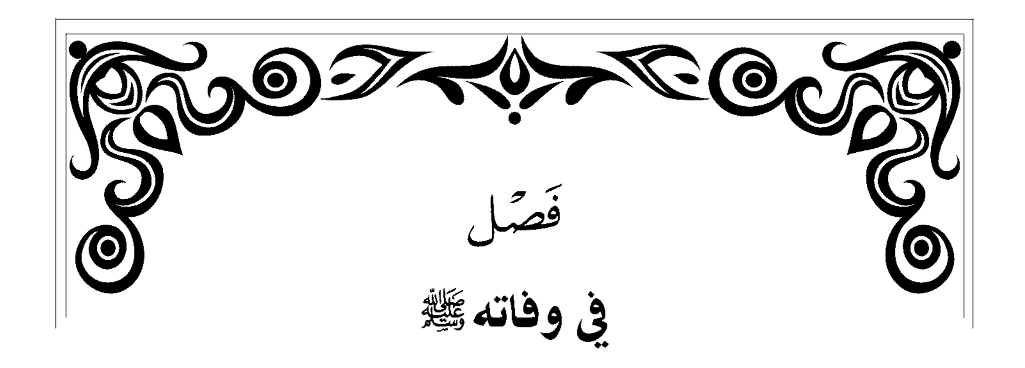
في كلمات جامعة، فأكد على حُرمـة التعدي على الـدماء والأموال، وأبطل ثارات الجاهليـة، ووضع الربا الذي كان منتشراً بينهم، وأوصى بالنســاء خيراً، وأوصى بلزوم كتاب الله والعمل بسنة نبيه ﷺ.

٤ ـ وقولـه: «**واختُلف أين صلَّى الظهر يوم النحـر، وقـد أشكل ذلك على كثيرٍ من الحفَّاظ**»: قلت: سبب الإشكال أنه قد تعارض في ذلك حديثان صحيحان صريحان، أحدهما يقول إنه ﷺ صلّى الظهر يومها بمنى. والآخر يقول صلَّى الظهر بمكة. وقـد أبدى المصنف في تاريخه احتمال أن يكون عليه الصلاة والسلام صلَّى الظهر بمكة، ثم رجع إلى منى فوجد الناس ينتظرونه، فصلّى بهم، والله أعلم[1].

٥ ـ وقد تضمنت حجتـه ﷺ أحكاماً فقهيـة كثيرة وعظيمـة متعلقة بالحجّ لا مجال للخوض فيها، ومحلُّها كتب الفقه وشروح الأحاديث.

❐ ❐ ❐

(١) البداية والنهاية ٧/ ٦٢٢.



فَصل
في وفاته ﷺ

* بدء وجعه ﷺ وتمريضه في بيت عائشة:

قال المصنف: «فأقامَ بها[1] بقيَّة ذِي الحِجَّـة والمحرَّم وصَفَر، ثم ابتدأَ به ﷺ وجَعُهُ في بيت مَيمونة يوم خميسٍ، وكان وَجَعاً في رأسِهِ الكريم، وكثيراً ما كان يعتريه الصُّداعُ عليـه الصلاة والسلام، فجَعَلَ مـع هذا يـدورُ على نسائهِ حتى شَقَّ عليهِ، فاستأذنهنَّ أن يمرَّض في بيت عائشة رضي الله عنها، فأَذِنَّ له، فمكثَ وَجِعاً اثني عشر يوماً. وقيل: أربعة عشر يوماً. والصّدّيقُ رضي الله عنه يصلّي بالناسِ بنصّه ﷺ عليه، واستثنائه له من جيشِ أُسامة الذي كان قد جهَّزه ﷺ إلى الشام؛ لغزو الروم. فلما حصل الوَجَعُ، تربصـوا لينظروا مـا يكون من أمـرِه ﷺ، وقـد صلَّى عليه الصلاة والسلام خَلْفَ الصّدّيق جالساً».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ الموت هو حكم الله في خلقه ونهاية كل حيّ، والنبي ﷺ هو كغيره من خلق الله ليـس بمخلّد، والله عز وجل خاطبـه بقولـه تعـالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

---

(١) المدينة المنورة.

٢ ـ وابتداء مرضه ﷺ في بيت زوجه ميمونة هو القول المعتمد كما قال ابن حجر[1].

ويدلّ عليه حديث عائشة ﵂ قالت: «أول ما اشتكى رسولُ الله ﷺ في بيت ميمونة»[2].

٣ ـ وكان من أسباب مرضه ﷺ: أثرُ الشاة المسمُومة التي قدَّمتها له المرأة اليهودية في غزوة خيبر، فإن ذاك السمّ لم يقتله وقتها، لكنه بقي أثره معه حتى كان من أسباب وفاته، كما في صحيح البخاري، عن عائشة ﵂ قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجدُ ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهَري[3] من ذلك السُّم»[4]. وبهذا جمع الله لنبيه بين درجة النبوة ودرجة الشهادة وأكرمه بذلك.

٤ ـ وقوله: «**وكان وَجَعاً في رأسه ﷺ**»: قلت: دلّ عليه ما ثبت عن عائشة ﵂ قالت: «دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ في اليوم الذي بُدئ فيه، فقلت، وارأساه، قال: بل أنا وارأساه...»[5].

٥ ـ وقوله: «**وكثيراً ما كان يعتريه الصُّداع ﷺ**»: قلت: ربما دلَّ عليه

---

(١) فتح الباري ٨/ ١٢٩.

(٢) صحيح مسلم «٤١٨».

(٣) عِرْق مرتبط بالقلب.

(٤) صحيح البخاري «٤٤٢٨».

(٥) أخرجه أحمد في المسند «٢٥١١٣»، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

حـديث ابن عباس: أن رسـول الله ﷺ «احتجم وهـو محرم في رأسـه، من شقيقةٍ كانت به»[1].

٦ ـ ودورانه ﷺ على أزواجه في مرض موته واستئذانه منهنَّ أن يمرَّض في بيت عائشة ثابت في الصحيحين من حديثين لعائشة ﵂[2].

٧ ـ وقولـه: «**فمكثَ وَجِعاً اثني عشـر يوماً...**»: قـال الحـافظ ابن حجر: «اختلف في مـدة مرضه فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يوماً، وقيل بزيادة يوم، وقيل بنقصه»[3].

٨ ـ وقوله: «**والصّدّيق يصلّي بالناس بنصّه ﷺ عليه**»: هذا يدلّ عليه ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة ﵂ قالت: لما مرض رسولُ الله ﷺ مرضه الذي مـات فيـه، فحضـرت الصلاة، فـأُذّن، فقـال: «مروا أبا بكـر فليصل بالناس... الحديث»[4].

٩ ـ وقوله: «**وقد صلَّى ﷺ خَلْفَ الصّدّيق جالساً**»: قلت: في هذا نظر، لأن الثابت في حـديث عـائشة أنها قـالت: «فلمّـا دخـل ـ أبو بكر ـ في الصلاة وجـد رسـولُ الله ﷺ من نفسه خفَّـة فقام يُهادى بيـن رجلين، قالت: فلما دخل المسجد سمـع أبو بكر حسه، ذهب يتأخـر، فأومأ إليـه رسـول الله ﷺ قم مكانك، فجاء رسـول الله ﷺ حتى جلس عن يسـار أبي بكر، قالت: فكان رسول الله ﷺ يصلّي

---

(١) صحيح البخاري «٥٧٠١».

(٢) صحيح البخاري «١٣٨٩، ٢٥٨٨»، صحيح مسلم «٤١٨، ٢٤٤٣».

(٣) فتح الباري ٨/ ١٢٩.

(٤) صحيح البخاري «٦٦٤»، صحيح مسلم «٤١٨».

بالناس جالساً، وأبو بكر قائماً، يقتدي أبو بكر بصلاة النبي ﷺ ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر»[1]. فهذه الرواية صريحة في أن الإمام كان النبي ﷺ وليس أبا بكر.

١٠ ـ وفي استخلافه ﷺ أبا بكر الصّدّيق ليصلّي بالناس في مرض موته دليل على فضل أبي بكر، وأنه أولى الناس بالخلافة بعد النبي ﷺ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «رضيه لديننا فرضيناه لدنيانا»[2].

*** تاريخ وقت وفاته ﷺ:**

قال المصنف: «وقُبِضَ ﷺ ضُحى، يوم الاثنين من ربيع الأول، فالمشهور أنه الثاني عشر منه، وقيل: مستهله. وقيل: ثانيه. وقيل غير ذلك. وكان عمُرُه يوم مات ﷺ ثلاثاً وستين سنة على الصحيح.

فاشتدَّت الرَّزية بموته ﷺ، وعظُم الخطبُ وجلَّ الأمر، وأُصيب المسلمون بنبيّهم، وأَنكر عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه ذلك، وقال: إنه لم يمت، وإنه سيعودُ كما عَادَ موسى لقومه. وماجَ الناسُ، وجاء الصّدّيقُ المؤيّد المنصور رضي الله عنه أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، فأقام الأَوَدَ[3]، وصَدَع بالحقّ، وخَطَبَ الناسَ وتلا عليهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤]، فكأنَّ الناسَ لم يسمعوها قبْل ذلك، فما مِن أحدٍ إلَّا يتلوها».

---

(١) صحيح مسلم «٤١٨».

(٢) قال السفاريني في لوامع الأنوار ٢/ ٣١٣: أخرجه الحاكم بإسناد جيد.

(٣) أصلح الأمر.

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ **أجمع العلماء على** أن وفاته ﷺ كانت يوم الاثنين من شهر ربيع الأول[١]، لكن اختلف في تحديد اليوم؟ والمشهور كما ذكر المصنف أنه في الثاني عشر، وهو قول جمهور العلماء[٢].

٢ ـ وقوله: «**وكان عمُرُه يوم مات ثلاثاً وستين سنة على الصحيح**»، قلت: وهو قول جمهور العلماء. قال الحافظ ابن حجر: «كل من روي عنه من الصحابة ما يخالف المشهور وهو ثلاث وستون جاء عنه المشهور»[٣].

٣ ـ وقصة إنكار **عمر** بن الخطاب موته ﷺ وبيان الصّدّيق للحق مشهورة وهي مخرجة في الصحيح[٤].

٤ ـ وفي موقف أبي بكر عند وفاته ﷺ دليل على ثباته ورباطة جأشه عند الشدائد وعميق علمه وفقهه في الدين رضي الله عنه.

*** بيعة الصحابة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه:**

قال المصنف: «ثم ذهبَ المسلمونَ به[٥] إلى سَقِيفة بني سَاعِدَة وقد اجتمعوا على إِمرة سعدِ بنِ عُبادة، فصدَّهم عن ذلك وردَّهم، وأشار عليهم بعمرَ بنِ الخطاب أو بأَبي عُبيدة بن الجرَّاحِ، فأبيا ذلك والمسلمونَ، وأبى الله ذلك أيضاً، فبايعه

---

(١) حكى إجماعهم الحافظ في فتح الباري ٧/ ١٦٤.

(٢) المصدر السابق ٨/ ١٢٩.

(٣) فتح الباري ٨/ ١٥١.

(٤) صحيح البخاري «٤٤٥٤».

(٥) يعني أبا بكر الصديق.

المسلمونَ ﷺ هناك، ثم جاء فبايعه الناسُ البيعة العامة على المِنبر».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ مشاورة الصحابة في سقيفة بني ساعدة ومبايعتهم لأبي بكر الصّديق مخرجة بطولها في الصحيح من حديث عائشة ﵂[1].

* تجهيزه والصلاة عليه ودفنه ﷺ:

قال المصنف: «ثم شرعوا في جَهَاز رسُولِ الله ﷺ، فغسَّلوه في قميصه، وكان الـذي تولَّى ذلك عمُّـه العبَّاس، وابنـه قُثَم، وعليُّ بن أبي طالب، وأُسامة بن زيد، وشُقْران ـ مولياه ـ يصبَّان الماء، وساعد في ذلك أَوْس بن خَوْلِي الأنصاري البدريّ، رضي الله عنهم أجمعين.

وكفَّنوه في ثلاثـةِ أثوابٍ قُطْنٍ سَحُوليَّـة[2] بيضٌ ليس فيها قَميص، وصلَّوا عليه أفراداً واحـداً واحداً، لحديث جاء في ذلك رواه البزار ـ والله أعلم بصحته ـ أنه ﷺ أمرهم بذلك.

ودُفِن ﷺ يوم الثلاثاء، وقيـل: ليلة الأربعـاء سَحَراً، في الموضع الذي توفي فيه من حجرة عائشة، لحـديث رواه الترمـذي عن أبي بكر ﵁، وهذا هو المتواتر تواتراً ضرورياً معلوماً من الدَّفن الذي هو اليوم داخل مسجدِ المدينة».

الكلام عليه من وجوه:

١ ـ تغسيله ﷺ في قميصه مخرج عند أبي داود بإسناد حسن عن عائشة ﵁

---

(١) صحيح البخاري «٣٦٦٧، ٣٦٦٨».

(٢) سحولية: نسبة إلى سحول مدينة باليمن تجلب منها هذه الثياب.

أنها قالت: «لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: والله ما ندري أنجرّد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرّد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله ﷻ عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلّمهم مكلّم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه يصبّون الماء فوق القميص، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم، وكانت عائشة تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه»[(١)].

٢ ـ وتغسيل العباس ومن معه للنبي ﷺ مخرج في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)]. لكن ورد في المسند إضافة الفضل بن العباس رضي الله عنهما.

٣ ـ وتكفينه ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية من قطن ليس فيها قميص ولا عمامة مخرج في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها[(٣)].

٤ ـ وفي الحادثة دلالة على فضل هؤلاء الصحابة الذين شرفهم الله بغسل نبيه ﷺ وتكفينه.

٥ ـ وقوله: «**صلُّوا عليه أفراداً واحداً واحداً، لحديث جاء في ذلك رواه البزار، الله أعلم بصحته**»، قلت: حديث البزار يدل على أن ذلك كان بأمره ﷺ ولفظه: «ثم ادخلوا عليَّ فوجاً فوجاً فصلُّوا عليَّ». لكن الحديث ضعيف، قال عنه ابن حجر: «سنده ضعيف»[(٤)].

---

(١) سنن أبي داود «٣١٤١»، وحسنه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٢) مسند أحمد «٢٣٥٧»، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٣) صحيح البخاري «١٢٦٤»، صحيح مسلم «٩٤١».

(٤) مسند البزار «٢٠٢٨»، فتح الباري ٥/ ٣٦٣.

لكن صلاتهم عليه ﷺ فُرادى لم يؤمَّهم أحدٌ عليه أمرٌ مُجمع عليه لا خلاف فيه كما قال ابن عبد البر في التمهيد والمصنف في تاريخه[1].

وقال الإمام النووي: «والصحيح الذي عليه الجمهور أنهم صلُّوا عليه فُرادى، فكان يدخل فوج يصلّون فرادى ثم يخرجون ثم يدخل فوج آخر فيصلّون كذلك ثم دخلت النساء بعد الرجال ثم الصبيان»[2].

٦ ـ وقد اختلف في تعليل صلاة الصحابة عليه فُرادى، فنقل المصنف في الأصل عن الشافعي أنه قال: «إنما صلُّوا عليه مرة بعد مرة أفذاذاً لعِظَم قَدره، ولمنافستهم أن يؤمَّهم عليه أحدٌ»[3]، وقيل: حتى تكثر الصلاة عليه وتتكرر، وقيل: إنه أمر تعبدي، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

٧ ـ ثم إن الصحيح الذي عليه الجمهور أن الصحابة صلّوا عليه صلاة حقيقية صلاة الجنازة وليس مجرد دعاء كما زعم بعضهم[4].

٨ ـ وقوله: «**ودفن ﷺ يوم الثلاثاء، وقيل الأربعاء سحراً**»: قلت: دفنه ﷺ ليلة الأربعاء هو المشهور عن الجمهور كما قال المصنف في تاريخه[5].

ويؤيده حديث عائشة، قالت: «توفي النبي ﷺ يوم الاثنين، ودفن ليلة الأربعاء»[6].

---

(١) التمهيد ٢٤/ ٣٩٧، البداية والنهاية ٨/ ١٣٤.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٧/ ٣٦.

(٣) الفصول ص٢٠٤.

(٤) سبل الهدى والرشاد ١٢/ ٣٣٢.

(٥) البداية والنهاية ٨/ ١٥٢.

(٦) رواه أحمد في المسند «٢٤٧٩٠»، وقال شعيب الأرناؤوط: «حديث محتمل للتحسين».

٩ ـ وقولـه: «**ودفن في الموضع الـذي توفي فيـه من حجـرة عائشة، لحديث رواه الترمـذي عن أبي بكر** ﷺ» قلت: لفظ الحديث: عن عائشة ﷺ: قالت: «لما قُبض رسـولُ الله ﷺ اختلفوا في دفنـه، فقال أبو بكر: سمعتُ من رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيته قال: «ما قَبَض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه»، فدفنوه في موضع فراشه»[١].

١٠ ـ ولا ريب أن مصاب المسلمين بفقد نبيهم ﷺ لا يعدله مصاب في الدنيا، وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «إذا أصاب أحدكم مصيبة، فليذكر مصابه بي، فإنها من أعظم المصائب»[٢].

قال العلامة المناوي: «وإنما كان ـ موته ﷺ ـ أعظم المصائب لانقطاع الوحي، وظهور الشرّ بارتداد العرب، وتحزب المنافقين، وكان موته أول نقصان الخير»[٣].

والحمـد لله الـذي حفظ كتابـه، ووفق علمـاء الأمـة لحفظ سيرة نبيه ﷺ، والحمد لله أولاً وآخراً.

تم الكتاب بحمد الله

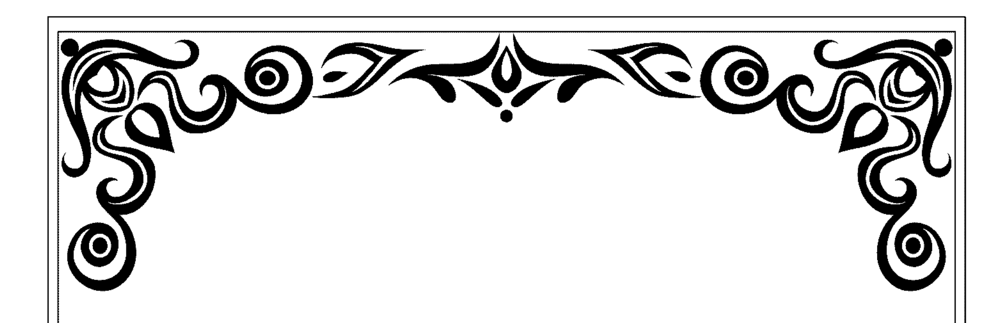
❑ ❑ ❑

---

(١) سنن الترمذي «١٠١٨»، وقـال الألباني في أحكام الجنائز ص١٣٧: «حديث ثابت بما له من الطرق والشواهد».

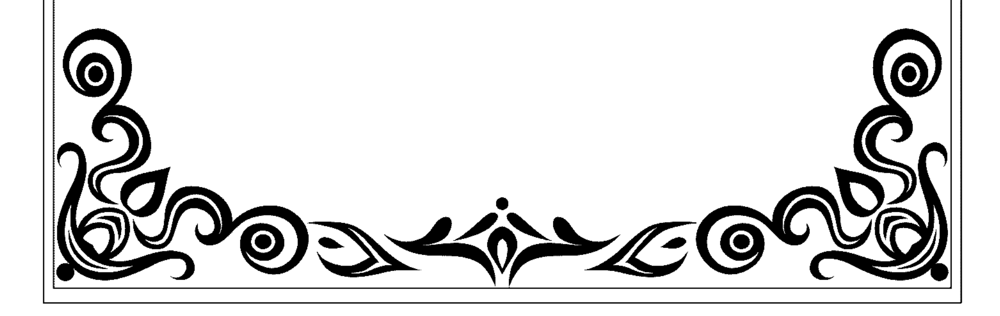
(٢) أخرجه الدارمي في سننه «٨٦»، وصححه الألباني في صحيح الجامع «٣٤٧».

(٣) فيض القدير ١/ ٢٨٦.



الفهارس العامة

* أهم المصادر والمراجع.
* فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
* فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
* فهرس المواقع المعرف بها.
* فهرس محتويات الكتاب.





أهم المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد القسطلاني الشافعي، المطبعة الكبرى، مصر، ط: ٧، ١٣٢٣هـ.

٣ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ليوسف بن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق: علي محمد البيجاوي، دار الجيل، بيروت، ط: ١، ١٤١٢هـ.

٤ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعلي بن محمد ابن الأثير الجزري، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط: ١، ١٤١٥هـ.

٥ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لأحمد ابن حجر العسقلاني الشافعي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤١٥هـ.

٦ ـ البداية والنهاية، لإسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي الشافعي، تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط: ١، ١٤١٨هـ.

٧ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لمحمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط: ١، ٢٠٠٣م.

٨ ـ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، لمحمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ط: ٢، ١٣٨٧هـ.

٩ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ليوسف بن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق: مصطفى بن أحمد ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، ١٣٨٧هـ.

١٠ ـ جوامع السيرة، لعلي بن أحمد بن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، دار المعارف، مصر، ط: ١.

١١ ـ حياة محمد ﷺ، لمحمد حسين هيكل، بدون ناشر أو تاريخ طبع.

١٢ ـ خاتم النبيين، لمحمد أبي زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ.

١٣ ـ دراسات في السيرة النبوية، لمجموعة من المؤلفين غير مسميين، دار جامعة الملك سعود للنشر، الرياض، الإصدار الثاني، ١٤٣٩هـ.

١٤ ـ الدرر في اختصار المغازي والسير، ليوسف ابن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٣هـ.

١٥ ـ دفاع عن الحديث النبوي الشريف، لمحمد ناصر الدين الألباني، بدون ناشر أو تاريخ نشر.

١٦ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤٠٥هـ.

١٧ ـ الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، دار الهلال، بيروت، ط: ١.

١٨ ـ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، لعبد الرحمن بن عبدالله السهيلي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ١، ١٤١٢هـ.

١٩ ـ زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٠ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: ٢٧، ١٤١٥هـ.

٢١ ـ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤١٤هـ.

٢٢ ـ سنن ابن ماجه، لمحمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، ط: ١، ١٤٣٠هـ.

٢٣ ـ سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، ط: ١، ١٤٣٠هـ.

٢٤ ـ سنن النسائي، لأحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط: ٢، ١٤٠٦هـ.

٢٥ ـ سنن الترمذي، لمحمد ابن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، طبعة مصطفى البابي الحلبي، ط: ٢، ١٣٩٥هـ.

٢٦ ـ سيرة ابن هشام (السيرة النبوية)، لعبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشلبي، طبعة مصطفى البابي الحلبي، ط: ٢، ١٣٧٥هـ.

٢٧ ـ سيرة ابن إسحاق (السير والمغازي)، قطعة منها، لمحمد بن يسار بن إسحاق المطلبي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط: ١، ١٣٩٨هـ.

٢٨ ـ السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، لعلي بن إبراهيم الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ٢، ١٤٢٧هـ.

٢٩ ـ السيرة النبوية، لأبي الحسن علي الندوي، دار القلم، دمشق، ط: ٥، ١٤٣١هـ.

٣٠ ـ السيرة النبوية الصحيحة، للدكتور أكرم ضياء العُمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط: ٦، ١٤١٥هـ.

٣١ ـ السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، لمحمد بن حمد الصوياني، مكتبة العبيكان، ط: ١، ١٤٢٤هـ.

٣٢ ـ السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، لمحمد محمد أبي شهبة، دار القلم، دمشق، ط: ٨، ١٤٢٧هـ.

٣٣ ـ السيرة النبوية على ضوء المصادر الأصلية، للدكتور مهدي رزق الله، دار إمام الدعوة، ط: ٣، ١٤٢٤هـ.

٣٤ ـ السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، لعبد الوهاب خلاف، دار القلم، ط: ١٤٠٨هـ.

٣٥ـ شرح المواهب اللدنية، لمحمد عبد الباقي الزرقاني، دار الكتب العلمية، ط: ١، ١٤١٧هـ.

٣٦ـ شرح النووي على صحيح مسلم، ليحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ٢، ١٣٩٢هـ.

٣٧ـ صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: ١، ١٤٢٢هـ.

٣٨ـ صحيح السيرة النبوية، إبراهيم بن محمد العلي، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط: ١، ١٤١٥هـ.

٣٩ـ صحيح السيرة، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، ط: ١.

٤٠ ـ صحيح وضعيف سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١هـ.

٤١ ـ صحيح وضعيف سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٢هـ.

٤٢ ـ صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٣ ـ الصحيح من أحاديث السيرة النبوية، لمحمد بن حمد الصوياني، مدار الوطن للنشر، ط: ١، ١٤٣٢هـ.

٤٤ ـ طبقات ابن سعد (الطبقات الكبرى)، لمحمد بن سعد الهاشمي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤١٠هـ.

٤٥ ـ طرح التثريب في شرح التقريب، لعبد الرحيم بن الحسين العراقي، دار إحياء التراث العربي.

٤٦ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين محمد بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٧ ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لمحمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري، تحقيق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط: ١، ١٤١٤هـ.

٤٨ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني الشافعي، تصحيح محمد الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٤٩ ـ الفصول في سيرة الرسول، لإسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي، تحقيق: باسم الجوابرة وسمير أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط: ٢، ١٤٢٧هـ.

٥٠ ـ فقه السيرة، لمحمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط: ٢٥، ١٤٢٦هـ.

٥١ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ.

٥٢ ـ المستدرك على الصحيحين، لمحمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤١١هـ.

٥٣ ـ مسند أحمد، لأحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط: ١، ١٤١٦هـ.

٥٤ ـ مسند أحمد، لأحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط: ١، ١٤٢١هـ.





فهرس الآيات القرآنية الكريمة

طرف الآية	رقمها	الصفحة
سورة الإنسان		
﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا﴾	٨	١٤٧
سورة الليل		
﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾	١٧ ـ ١٨	٥٤

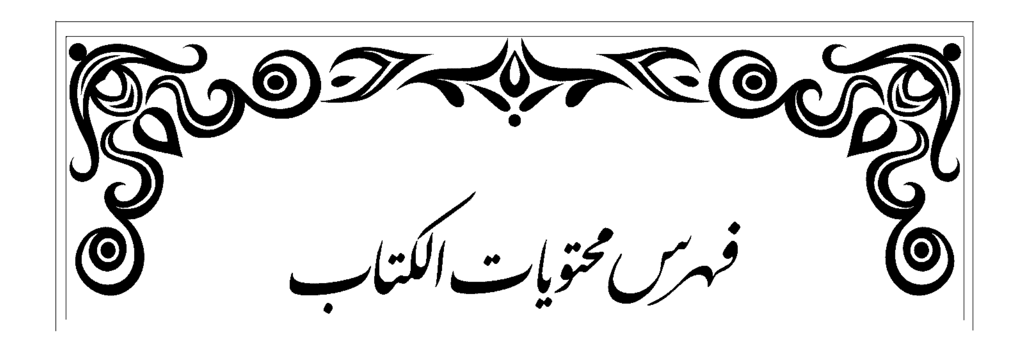
❑ ❑ ❑


فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

❑ ❑ ❑


فهرس المواقع المعرف بها

❐ ❐ ❐



المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

الفهارس العامة

المحتوى	الصفحة

❏ ❏ ❏